MAG-2225 - 15/04

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة وآدابها

سجل تحت رقم 2128
بتاريخ 27 ماي 2008

التّضـــــادّ

في

شعر الدّعوة الإسلاميّة

أيّام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم

- دراسة دلاليّة بلاغيّة -

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
مكتبة الكلية

أطروحة لنيل شهادة الماجستير

في

الأدب العربيّ القديم

إعداد الطالب
امحمد يقوته نور

بإشراف الأستاذ الدكتور
عبد القادر قروش

السنة الجامعية 2000 – 1422/2001هـ

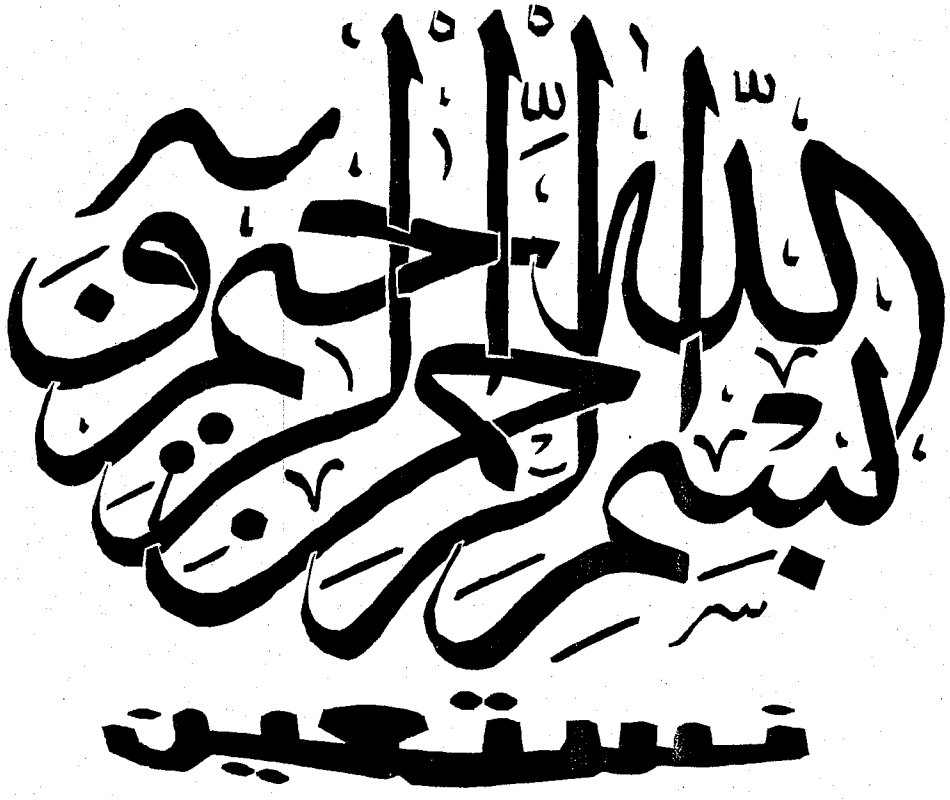
بسم الله الرحمن الرحيم
نستعين

كلمة شكر

أتقدّم بالشّكر الجزيل والتقدير:

- إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدّكتور عبد القادر قرّوش على قبوله الإشراف على موضوع أطروحتي، وعلى توجيهاته، وعلى متابعته الدّائمة لإنجاز هذا البحث المتواضع.

- وإلى الأساتذة والدّكاترة الكرام أعضاء اللّجنة الموقّرة على قبولهم مناقشة هذه الأطروحة.

- وإلى كلّ من أعارني كتابا، أو سهّل لي سبيل الوصول إليه.

المقدّمة

إنّ لكلّ شاعر أدواته الفنيّة التي يحبّذها لتنسيق صوره الشّعرية وإيصال معانيه إلى الآخرين. والحياة-من حولنا-مبنية على الائتلاف والاختلاف والتّضادّ. ولغة الشّاعر تتشكّل من خلال تعامله مع المؤتلفات والمختلفات والمتضادّات، وتفاعله معها لإنضاج تجربته الشّعريّة ووَسْمِها بسمات خاصّة مميّزة.

وقد نجد التّضادّ أداة فنيّة مميّزة في شعر شاعر أو جملة من الشّعراء في الشّعر العربيّ القديم أو المحدث، يلجؤون إليها للتّعبير عن ذواتهم وعن رؤيتهم الخاصّة للحياة وللكون. وقد تبدو لغة هؤلاء الشّعراء متناقضة في ظاهرها، ولكن إذا أنعمنا النّظر قليلا، وجدناها تستمدّ روعتها من ذلك التّناقض الكامن فيها، والذي يعبّر أحيانا عن الانسجام والوفاق.

ولا نستبعد أن يصيب الشّاعر القديم أو المحدث كثير من القهر والغبن إذا تعامل البلاغيّون والنّقاد مع ميزة التّضادّ التي تعلي من قدر شعره بين الشّعراء، بمزيد من المصطلحات وتفريعاتها التي تلقي أضواء باهتة على صوره الشّعريّة فتطمسها. من هنا، شغلنا نفسنا وركّزنا جهدنا في هذا البحث المتواضع على محاولة تصحيح نظرة البلاغيّين العرب القدامى إلى التّضادّ، على أنّه مجرّد محسّن معنـــويّ بديـــعيّ يؤتى به فـــي الكلام لتحسينه، وإضـــفاء الجمال والرّونق عليه، لا غير.

وقد شجّعنا على المضيّ في هذا السّبيل ما صدر من كتابات متميّزة لدى المعاصرين الذين تمرّدوا على النّظرة البلاغيّة القديمة إلى فنّ التّضادّ، نذكر منهم رجاء عيد في كتابه « في البلاغة العربيّة »، ومنير سلطان في كتابه "البديع تأصيل وتجديد"، وحسن فتح الباب في كتابه "رؤية جديدة لشعرنا القديم » حين ربط القدرة التّعبيريّة الرّائعة لدى الشّاعر العبّاسي مهيار الدّيلميّ بتمكّنه من استخدام فنّ التّضادّ تمكّنا حقق له ذلك الأسلوب الذي نطلق عليه السّهل الممتنع.

وقد اخترنا أن نقف عند شعر الدّعوة الإسلاميّة أيّام الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، لما حدث من رجّة في قيم المجتمع العربيّ الجاهليّ بظهور الإسلام، وما نشأ من صراع مرير عقيديّ، وقيميّ، وماديّ بين أنصار الدّعوة الإسلاميّة وحلفاء الكفر والشّرك.

ولقد اعتمدنا في هذه الدّراسة على المنهج التّاريخيّ، أدواتنا في ذلك الاستقصاء والمقارنة والتّحليل والاستنتاج. واقتضت طبيعة موضوعنا أن نبحث عن جذور مصطلح التّضادّ عند البلاغيّين العرب القدامى، واستقصائهم للتّضادّ في الشّعر القديم والمحدث، وتحديدهم لأنواعه وشواهده، وكان علينا أن نقوم بجهد الاستقصاء للتّضادّ، متوقفين عند شعر الدّعوة الإسلاميّة وما سبقها من شعر جاهليّ، لنكشف عن مدى استخدام الشّعراء للتّضادّ كما عرفوه معرفة ممارسة فنيّة لا معرفة اصطلاحية، ونبحث عن دلالاته الممكنة في النّصوص المدروسة.

وقد قسّمنا بحثنا إلى مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة. فشرحنا في المقدّمة دواعي اختيارنا لهذا الموضوع، وأسباب اعتمادنا على المنهج التّاريخيّ. وخصّصنا الفصل الأوّل لبحث مصطلح التّضادّ ضمن فنون البديع، ثمّ التّأسيس له نظريّا عبر المستويات المعجميّة والنّحويّة والبلاغيّة والدّلاليّة. وكان واجبا علينا

أن نفرد فصلا ثانيا لدراسة التّضادّ في شعر ما قبل الدّعوة الإسلاميّة، واقتصرنا على المعلّقات العشر على أساس أنّها أرقى نموذج للشّعر الجاهليّ، كما رتّبنا شعراء المعلّقات حسب سني وفاتهم، رغبة منّا في متابعة استخدامهم للتّضادّ في شعرهم، ورصد ما يمكن أن يطرأ عليه من تطوّر محتمل. أمّا الفصل الثّالث فقد ركّزنا فيه البحث في شعر الدّعوة الإسلاميّة أيّام الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم- وهو موضوع بحثنا هذا-عمّا ورد من تضادّ في العقيدة، وفي القيم، وفي الموقف بين أنصار الدّعوة الإسلاميّة ومعارضيها من الكفّار والمشركين.

ولعلّ القارئ لبحثنا المتواضع سيفتقد-أثناء دراستنا الدّلاليّة- تلك المصطلحات المعهودة التي درج البلاغيّون العرب القدامى على التّنويه بها لأنواع التّضادّ، فقد ارتأينا أن نبتعد عنها مكتفين بتحليل التّضادّ داخل السّياق، لأنّ التّوقّف في كلّ مرّة للإشارة إلى نوع التّضادّ الذي استخدمه الشّاعر، يعطّل سيرورة الدّراسة الدّلاليّة، ويطمس عمق صوره الشّعريّة ويزري بمعانيه. وقد ختمنا بحثنا بجملة من الاستنتاجات التي تمكّنا من التّوصّل إليها بعد هذه الدّراسة المتواضعة.

فإن وفّقنا إلى بعض الصّواب فذلك من توفيق اللّه تعالى، وإلاّ فقد بذلنا وسعنا ولم نَأْلُ.

واللّه نسأل التّوفيق والسّداد.

الفصل الأول: مصطلح التضاد

أ- مصطلح التضاد ضمن فنون البديع.

ب- تحديد مصطلح التضاد عبر المستويات المعجمية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية:

1- المستوى المعجمي

2- المستوى النحوي

3- المستوى البلاغي

4- المستوى الدلالي

التّضادّ سنّة من سنن الحياة، ومبدأ هام في الفنون بعامة، ولعله-أيضا- من الأمور المنطقية التي لا تحتاج إلى مجهود شاقّ، إذ الضدّ أقرب خطورا بالبال إذا ذكر ضده. وإذا كانت فنون البديع تعتمد على التناسق، فإن هذا التناسق يمكن أن يعود إلى التّضادّ كما يرجع إلى التّماثل.

وممّا لاشك فيه أن الشاعر العربيّ، منذ العصر الجاهلي، قد أدرك بذكائه الفطري وطبعه السّليم ما لبعض الأساليب البلاغية- دون أن يعرف أسماءها وأقسامها-من جمال ووقع في نفوس السّامعين، فاستخدمها الشّعراء- وإن اختلفوا قلّة أو كثرة- في أشعارهم بحسب ما يتطلبه تشكيل الصورة الشعرية والوفاء بالمعنى. ولمّا جاء الشعراء المحدثون في العصر العباسي الأول، ووقفوا على ما في تلك الأساليب – على قلتها-من جمال وطرافة، عمدوا إلى الإكثار منها، والتكلف في طلبها رغبة في التجديد في الألفاظ والمعاني وفي الصياغة الشعرية بعامة، وتمشّيا مع الحياة الجديدة، ومجاراة لروح العصر الذي ازدهرت فيه العلوم، واختلفت الثقافات، وامتزجت الأجناس، وتبادلت التأثر والتأثير فيما بينها.

لكن ذلك التجديد المتمثل في التأنق في الألفاظ والإغراق في المعاني قوبل بالرفض من كبار الرواة واللغويين كأبي عمرو بن العلاء[1] والأصمعي[2] وابن الأعرابي[3] لإيثارهم كل قديم وتعصبهم له في وجه كل جديد؛ فقد دافعوا عن الشعر الجاهلي وجعلوه مقياسا للجودة، حتى إن ابن الأعرابي قال في شعر أبي تمّام: "إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل"[4]، فهو يضع شاعرا واحدا في موازنة مع الشعر العربي القديم كله ليزري على شعره، ويرده جملة وتفصيلا.

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري، ظهرت بوادر التسوية بين الشعراء القدماء والمحدثين في الإجادة على يد أبي عمرو الجاحظ المتوفى سنة 255هـ، والذي شكّك في

---

[1]- هو أبو عمرو زبان بن العلاء المازني المتوفى سنة 154هـ، أحد القراء السبعة، وكان له شغف بالرواية وجمع علوم العرب وأشعارهم، وعنه أخذ أكثر نحاة ذلك العصر فضلا عن رواته وأدبائه.

[2]- هو عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة 216هـ من أهل البصرة، كان كثير الحفظ للشعر، له"الأصمعيات"، وكتب أخرى في موضوعات مختلفة.

[3]- هو أبو عبد الله بن زياد بن الأعرابي من علماء الكوفة المشهورين، توفي سنة 231هـ، له "النوادر" و"الأنوار".

[4]- المرزباني: الموشّح، تحقيق محمد علي البجاوي، .دار نهضة مصر،ط 1965، ص465.

مقدرة هؤلاء اللغويين والنحاة على تذوق الشعر الجيد في أي زمن صدر، حيث قال[1]: "طلبت علم الشعر عند الأصمعيّ فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش[2] فوجدته لا يتقن إلاّ إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة[3] فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار، وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب[4] ومحمد بن عبد الملك الزّيّات"[5]. فالجاحظ – كأديب متفتح مقبل على كل جديد– يتهم هؤلاء العلماء بعجزهم عن مسايرة العصر عصر البديع الذي صار من مميزات الشعر الجديد، ومثارا للجدل بين النقاد حول أدب القدماء والمحدثين، أما هو فقد قرأ أشعار جملة من رواد البديع، واستحسنه، بل عدّه من خصائص العربية، فهذا الفن عنده " مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره، وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار"[6]. فعلى الرغم من بروز عصبية الجاحظ للغة العرب في هذا القول، إلا أننا نلمس تفتح شخصيته على كل شعر جديد ما دام جيدا في معانيه وفي صياغته.

وفي المسلك نفسه مسلك إنصاف المحدثين، وفي الفترة الزمنية عينها، يمضي ابن قتيبة المتوفى سنة 276هـ في كتابه" الشعر والشعراء" موضحا أنه نظر بعين العدل في ما اختاره من أشعار لقناعة استقرت لديه مفادها أنه" لم يقصر الله العلم بالشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"[7].

وحيث إنّ العلم بالشعر والبلاغة ليس مقصورا على اليونان، وأن اختراع الاسم لا يعني اختراع المسمّى[8]، فقد أراد ابن المعتز المتوفّى سنة 296هـ أن يثبت أن البديع الذي

---

[1]- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت (لبنان) ط5، 1981، ج2، ص105.
[2]- أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، من أشهر نحويي البصرة، أصله من خوارزم، توفي سنة 215هـ، من كتبه "المقاييس في النحو" و"تفسير معاني القرآن".
[3]- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي من أهل فارس، كان له علم الإسلام والجاهلية، توفي سنة 210هـ من كتبه: "مجاز القرآن" و"غريب القرآن".
[4]- الحسن بن وهب: كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات، وقد ولي ديوان الرسائل وكان شاعرا بليغا، ومترسلا فصيحا، وهو أحد ظرفاء الكتاب، وله كتاب: ديوان رسائله.
[5]- محمد بن عبد الملك الزيات: كان شاعرا بليغا ، وزر لثلاثة خلفاء، المعتصم والواثق والمتوكل، وبعد أربعين يوما من وزارته للمتوكل نكبه وقتله في النكبة، توفي سنة 233هـ، وله كتاب رسائل.
[6]- الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي بالقاهرة (مصر)، ط3، ج4، ص55-56.
[7]- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، در إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1986، ص23.
[8]- الراجح أن مسلم بن الوليد أول من أطلق على تلك الأساليب التي احتفل بها المحدثون في أشعارهم اسم البديع أو اللطيف.

شغف به المحدثون، عرفته العرب في جاهليتها وإسلامها معرفة ممارسة فنية، وإن لم تعرفه معرفة علمية اصطلاحية. وبعد استقراء دقيق للتراث العربي منظومِه ومنثورِه، خرج ابن المعتز على أهل زمانه-سنة 274هـ- بأوّل مؤلَّف اختص بالحديث عن هذا الفن القديم الجديد، وسماهُ"البديع"، وقد أبان في صدر مقدمته عن غايته من كتابه، فقال:" قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشّارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيّلهم[1]، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه."[2]

والقارئ لكتاب "البديع" يلمس كثرة شواهد مؤلّفه من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم، وكلام الأعراب وغيرهم وأشعار المتقدّمين والمحدثين لأبواب البديع الخمسة بخاصّة مما حسن منها وما عيب، وهي: الاستعارة، والتّجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي وهو " الباب الخامس من البديع وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ"[3]. ثم أضاف إليها ثلاثة عشر لونا بديعيا عدّها من محاسن الكلام والشعر، وهي:" 1- الالتفات- 2-اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتمّمه في بيت واحد -3-الرجوع -4-حسن الخروج من معنى إلى معنى -5-تأكيد المدح بما يشبه الذم -6-تجاهل العارف -7-هزل يراد به الجد.-8-حسن التّضمين -9-التعريض والكناية -10-الإفراط في الصفة" المبالغة" -11-حسن التشبيه -12-إعنات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له، وهو ما عرفه البلاغيّون المتأخّرون بلزوم ما لا يلزم من القوافي -13-حسن الابتداءات."[4]

---

[1]- تقيلهم: حاول التشبه بهم، حاكاهم.

[2]- ابن المعتز: البديع، تحقيق إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بغداد (العراق) 1979، ص1.

[3]- المصدر نفسه : 53

[4]- عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص14.

فهذه الألوان البديعية الثمانية عشر كانت تأتي في أشعار القدماء عفو الخاطر وقليلة، في البيت أو البيتين من القصيدة الواحدة أو في مجموعة من القصائد، فتحظى بالاستحسان، حتى جاء الشعراء المحدثون من أمثال بشار بن برد المتوفى سنة 167هـ وأبي نواس المتوفى سنة 198هـ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة 208هـ، فاستلطفوا هذا الفن وأكثروا منه، فعُرِفُوا به وعُرِفَ بهم، "ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرّع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف. وإنّما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادرا، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل"[1].

ولعلّ غاية ابن المعتز الأسمى من كتابه لم تكن فقط إثبات أن المحدثين لم يخترعوا البديع الذي احتفلوا به، وكان مسلم بن الوليد أوّل من اقترح له هذا الاسم، وإنّما "أراد أن يثبت أن البلاغة في صورها وفنونها عربية الأصل، حيث نجد هذه الصور منبثة في تراثنا الشعري والنثري"[2]. وهو بهذا الموقف ينحاز إلى المحافظين من اللغويين باضطلاعه بمهمة الدفاع عن أصالة البلاغة العربية إزاء المتأثرين بفلسفة اليونان وبلاغتهم، ولكنه عند استشهاده بكلام القدماء والمحدثين يقف موقفا وسطا شبيها بموقف الجاحظ، إذ يسوّي بينهم في الإجادة، وينتقد في الوقت نفسه ما عيب من منظومهم ومنثورهم جميعا.

وإن كان لابن المعتز السبق في جمع فنون البديع في مؤلف واحد، وبيان أنواعها وحدودها بشواهده الموفقة عما حسن منها وما عيب، حتى صار إماما لمن جاء بعده من البلاغيين[3]، فممّا لاشكّ فيه أنّ أغلب المصطلحات الثمانية عشر[4] قد جمعها من كتابات اللغويين السابقين أمثال الخليل بن أحمد والأصمعي والجاحظ. فقد ذكر ابن المعتز الأصمعي المتوفى سنة 216هـ في الباب الثاني من البديع، في بداية حديثه عن التجنيس،

---

[1]- البديع: ص1 .

[2]- رجاء عيد: في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، أسيوط (مصر)، ص14.

[3]- ما جمعه ابن المعتز في تلك الفترة من فنون البديع شمل جملة من مباحث البلاغة بعناها الأعم قبل أن تعرف بأقسامها : المعاني والبيان والبديع في القرون اللاحقة؛ فذكر من علم البيان الاستعارة والكناية والتشبيه.

[4]- سبق ابن المعتز إلى خمسة ألوان بديعية هي: ردّ العجز على الصدر، تجاهل العارف، تأكيد المدح بما يشبه الذم، هزل يراد به الجد، إعنات الشاعر نفسه (لزوم ما لا يلزم)، (ينظر: البلاغة العربية في فنونها، محمد علي سلطاني، ص11).

قال: "وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألّف الأصمعي كتاب الأجناس عليها"[1]. كما رد تسمية الباب الخامس إلى الجاحظ، فقال: "وهو مذهب سمّاه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي. وهذا باب ما أعلم أني وجدت في القرآن منه شيئا، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا"[2]، ثم اكتفى بذكر شواهد شعرية ونثرية لهذا المذهب دون أن يحدده، "وأكبر الظن أنه هو والجاحظ جميعا يريدان به طريقة المتكلمين العقلية في الاحتجاج والجدل والاحتيال للعلل والمعاذير"[3].

وفي الباب الثالث من البديع، أسند المؤلف تعريف المطابقة–وهو موضوع بحثنا هذا–إلى الخليل بن أحمد[4] وإلى أبي سعيد الأصمعي من بعده، قال :" قال الخليل رحمه الله، يقال: طابقتُ بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد. وكذلك قال أبو سعيد: فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا في ضيق الضمان؛ قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب"[5].

وكأنه اطمأن إلى هذين التعريفين للمطابقة، فراح يوضّحهما بشواهد كثيرة ومتنوعة لما استحسنه من المنثور والمنظوم للقدماء والمحدثين، وختم هذا الباب بشواهد قليلة شعرية في أغلبها للمعيب من المطابقة، ولكنه لم يقسمها أقساما ولم يضع مصطلحات، وإنّما ترك المجال مفتوحا لمن جاء بعده أن يضيف إلى ما ذكره إن رأى غير رأيه[6].

وما دمنا قد وقفنا على مصطلح "المطابقة" ضمن أوّل مؤلّف سبق إلى جمع فنون البديع، يجدر بنا أن نؤسس لهذا المصطلح نظريا عبر المستويات المعجمية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية.

---

[1]- البديع: 25.
[2]- المصدر نفسه: 53.
[3]- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، ط2، ص57.
[4]- هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، اكتشف علم العروض، توفي في البصرة سنة 170هـ، له كتاب "العين" وهو أول قاموس عربي رتبه حسب مخارج الحروف.
[5]- البديع: 36
[6]- المصدر نفسه: 58.

1- المستوى المعجميّ:

التّضادّ:" الضّدّ كلّ شيء ضادّ شيئا ليغلبه، والسواد ضدّ البياض والموت ضد الحياة، والليل ضد النهار، إذا جاء هذا ذهب ذلك... وضدّ الشيء خلافه... وقد ضادّهُ وهما متضادان... يقال ضادّني فلان إذا خالفك، فأردت طولا وأراد قصرا، وأردت ظلمة وأراد نورا، فهو ضِدُّكَ وضَدِيدُكَ."[1] والتّضادّ هو المطابقة والطباق والتطبيق والتكافؤ، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام[2]. وقد سمّاه ابن المعتز "المطابقة" استنادا إلى تعريفَيْ الخليل والأصمعي السّالفي الذكر. وزاد ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ رأي الأصمعي وضوحا بقوله:"وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرِّجْلِ في موضع اليد في مشي ذوات الأربع، وأنشد لنابغة بني جعدة:

وخَيْلٍ يُطَابِقْنَ بالدَّارعِينَ ... طِبَاقَ الكِلابِ يَطَأْنَ الهَرَاسَا[3]

ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير في ذلك :

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ، إذَا ... مَا اللَّيْثُ كَذَّبَ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

حكى ذلك ابن دريد[4] عن أبي حاتم[5] عنه."[6]

أما ثعلب المتوفى سنة 291هـ فتكلّم عن المطابقة تحت اسم" مجاورة الأضداد" وعرّفها بقوله:" هي ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده."[7]

ولما جاء قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ -وهو من المعاصرين لابن المعتز- طرح في كتابه " نقد الشعر" مصطلح " التكافؤ" متأثرا بفلسفة اليونان ومنطقهم ودراساتهم البلاغية في التقنين والتحديد والتقسيم والتفريع، فيما جعل المطابق من نعوت جودة ائتلاف

---

[1]- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر ودار بيروت (لبنان)، 1968، ج3، مادة "ضدد" ص263-264.
[2]- ابن حمزة العلوي: الطراز، مكتبة المعارف الرياض، (المملكة السعودية)، 1980، ج2، ص377.
[3]- الدارع: الفارس المرتدي قميصا من حديد. والهراس: حطام الشوك، شوك كأنه حسك.
[4]-هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من كبار اللغويين توفي سنة 321هـ، له الجمهرة في اللغة، والاشتقاق.
[5]-أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني: من كبار أئمة اللغة، يدعى كتابه في الأضداد "المقلوب لفظه في كلام العرب، والمزال عن جهته والأضداد، توفي سنة 248هـ.
[6]- العمدة 2: ص6.
[7]- ثعلب: قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة (مصر) ، 1965، ص53.

اللفظ والمعنى، وعرّفه بقوله:" هو ما اشترك في لفظة واحدة بعينها"[1]، وقد أراد به الجناس التام أخذا عن ثعلب الذي سمّى الجناس" المطابق" من قبل[2]، كما في قول الأفوه الأودي:

وأقطـــعُ الهَـوْجَـــلَ مُسْتَـأْنِسـًـا بِهَـوْجَـلٍ عَيْرَانَـــةٍ عَنْتَرِيـــسْ[3]

فلفظة "الهوجل" في هذا البيت واحدة قد اشتركت في معنيين: فالأولى بمعنى الأرض البعيدة الأطراف، والثانية بمعنى الناقة الصّلبة.

ويبدو لنا أن خروج قدامة بمصطلحه الجديد لم يكن لمجرد المخالفة لابن المعتز، وإنما لكون المعنى اللغوي للمطابقة يثير هذا الخلاف، فهي تعني: الموافقة، والتطابق الاتفاق[4]، ولذلك سماها تكافؤا، وقال:" ومن نعوت المعاني التكافؤ، وهو أن يصف الشاعر شيئا أو يذمّه، أو يتكلم فيه بمعنى ما أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين. والذي أريد بقولي"متكافئين" في هذا الموضع: متقاومان، إما من جهة المضادة، أو السلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل، مثل قول أبي الشغب العبسي:

حُلْوُ الشَّمَائِـلِ، وَهوَ مُـرٌّ بَـاسِـلٌ يَحْمِي الذِّمَـارَ صَبِيحَـةَ الإرْهَـاقِ[5]

وفي القرن الرابع الهجري دائما، حيث تتوالى الدراسات النقدية التي تبحث في معاني الشعراء وفي صورهم البلاغية، وتمتزج مباحث النقد بالبلاغة، يدلي الآمدي المتوفى سنة 371هـ–في سياق موازنته بين شعر أبي تمام و البحتري–برأيه، محاولا إيجاد مخرج لهذا الخلاف حول مصطلح"المطابقة"، فيعرفها في البدء بقوله:" هو مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد، وإنما قيل مطابق لمساواة أحد القسمين صاحبه وإن تضادا أو اختلفا في المعنى"[6]، ثم يضيف معاتبا قدامة على خروجه على من سبقوه، فيقول:"وهذا باب، أعني المطابقة، لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتابه المؤلف في "نقد الشعر": المتكافئ، وسمى ضربا من المتجانس المطابق، وهو أن نأتي بالكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها واتفاق حروفها، ويكون معناهما مختلفا... وما علمت أن أحدا فعل

---

[1]-قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص162.
[2]- قواعد الشعر: ص56.
[3]- عيرانة: مسرعة، علنريس: صلبة.
[4]- الرازي: مختار الصحاح، ضبط وتعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، ط4، 1990، مادة "طبق"، ص253
[5]- نقد الشعر: ص147-148.
[6]- الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، 1965، ج1، ص271.

هذا غير أبي الفرج، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الألقاب غير محظورة، فإني لم أكن أحب أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التلقيب وكفوه المؤونة. وقد رأيت قوما من البغداديين يسمّون هذا النوع المجانس " المماثل" ويلحقون به الكلمة إذا ترددت وتكررت"[1].

ويأتي بعد ذلك ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ ليرفض مصطلح قدامة قائلا:"المطابقة عند جميع الناس: جمعك بين الضدّين في الكلام أو بيت شعر إلا قدامة ومن اتبعه... ولم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النّحّاس[2] من جميع من علمته"[3].

ونعود إلى القرن الرابع الهجري مرة أخرى لنلتقي بعلي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة 396هـ آملين أن يخرج بنا من هذا الخلاف غير المجدي حول المصطلح، لنتلمس معه بعض أسرار الطباق، فنراه يقول في مقدمة حديثه عنه:" وأما المطابقة فلها شعب خفية، وفيها مكامن تغمض، وربّما التبست بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف"[4]، وقسّمها إلى قسمين ، جعل قول دعبل الخزاعي (المتوفى سنة 220هـ) مثالا لأحد الجنسين:

لا تَعْجَبِـــي يَـــا سَلْـــمُ مِن رَجُـــــلٍ ضَحِـكَ الْمَشِيـبُ بِرَأْسِـهِ فَبَكَـى

وجعل قول البحتري المتوفى سنة 284هـ دالا على الجنس الآخر، وهو ما تكون المطابقة فيه بالنفي:

تُفَيِّـضُ لِي مِن حَيثُ لا أَعْلَمُ النَّـــوَى ويَسْرِي إِلَيَّ الشَّوقُ مِن حَيْثُ أَعْلَمُ

ثم يقف الجرجاني مستغربا مستلطفا للطباق الذي في بيت أبي تمام المتوفى سنة 231هـ:

مَهَـا الْوَحْـشِ إلا أنّ هَاتَـا أَوَانِـــسٌ قَنَـا الْخَـــطِّ إلا أنَّ تِلْكَ ذَوَابِـــلُ

---

[1]- المصدر السابق: ص274-275.

[2]- هو أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس: كان صاحب فضل كثير وعلم واسع، له مؤلفات في اللغة والأدب والقرآن، منها "شرح المعلقات السبع" و"إعراب القرآن"، توفي سنة 338هـ.

[3]- العمدة 2: ص5.

[4]- القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي (مصر)، ط4، 1966، ص44.

فطابق " هاتا وتلك"، وأحدهما للحاضر (أو للقريب) والآخر للغائب (أو للبعيد)، وكانا نقيضين في المعنى وبمنزلة الضدّين[1].

ونترك القاضي الجرجاني دون أن يوضح لنا ما للمطابقة من شعب خفية، وما فيها من مكامن غامضة لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف، لنلتقي بابن رشيق الذي ينقل لنا تعريف الرماني المتوفى سنة 386هـ لها بأنها "مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان"[2]، ويعلق على هذا التعريف في احتفاء ظاهر قائلا:" هذا أحسن قول سَمِعتُهُ في المطابقة من غيره، وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقدامة جميعا"[3].

وفي رأينا أن تعريف الرماني للطباق لا يضيف جديدا إلى ما عرفه به الآمدي قبله[4]، وإنما جديد الرماني الذي يهمنا هو حديثه عن العلاقات التفاعلية والتناسقية بين الألوان، والتي ترد أحيانا في الشعر، حيث قال:" السّواد والبياض ضدّان، وسائر الألوان يضاد كل واحد منها صاحبه، إلا أن البياض هو ضد السواد على الحقيقة؛ إذ كان كل واحد منهما كلما قوي زاد بعدا من صاحبه، وما بينهما من الألوان كلما قوي زاد قربا من السواد، فإن ضعف زاد قربا من البياض، وأيضا فلأن البياض منصبغ لا يصبغ، والسواد صابغ لا منصبغ، وليس سائر الألوان كذلك، لأنها كلها تصبغ وتنصبغ"[5].

ونمضي بعد ذلك باحثين عن آراء جديدة في دراسة الطباق والكشف عن أسراره تخرجنا من تعريفاته المتوارثة وشواهده التي تكاد تكون مكررة، فلا نظفر بالجديد الذي نبتغيه لا عند أبي هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ، ولا عند ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ على الرغم من فضله على المؤلفين في البلاغة بعده بما سماه " باب ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة"[6]. ولا جديد عند ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة 466هـ، ولا عند عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ، ولا عند الزمخشري المتوفى سنة 538هـ، ولا

---

[1]- المصدر السابق ص44-45.
[2]- العمدة: 2: ص6.
[3]- المصدر نفسه: ص7.
[4]- ينظر تعريف الآمدي للطباق: ص08 من هذا البحث.
[5]- المصدر نفسه: ص11.
[6]- المصدر نفسه: ص12-15.

أسامة بن منقذ المتوفى سنة 584هـ، ولا فخر الدين الرّازي[1] المتوفى سنة 606هـ، ولا عند أبي يعقوب السّكّاكيّ المتوفى سنة 626هـ سوى ترتيبه مباحث البلاغة-بعد أن اتّضحت معالمها في كتابات من سبقه-في القسم الثالث من كتابه" مفتاح العلوم"، وقسّمها إلى ثلاثة أقسام: الأول سمّاه علم المعاني، والثاني علم البيان[2]، وسمّى القسم الثالث محسنات ولم يسمها بديعا، وجعلها متضافرة مع العلمين السابقين في الوصول بالكلام إلى أعلى مراتب التحسين، وقسمها بدورها إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، وجعل المطابقة والمقابلة من المحسنات المعنوية[3]؛ فكان صنيعه إيذانا بانفصال مباحث البلاغة.

ثم لا جديد أيضا عند ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة 637هـ، ولا عند ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة 654هـ، حتى إذا التقينا بحازم القرطاجي المتوفى سنة 684هـ، رأيناه يلح على تفاعل النفس مع الكلام إذا تقارنت فيه المتضادات تقارن المتماثلات والمتشابهات، يقول: "فإنّ للنّفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناصر الحسن في المُستحسَنَيْن المُتماثِلَيْن والمُتَشابِهَيْن أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أمْلَكَ لِلنَّفس وأمْكَنَ منها فهو أشَدّ تحريكا لها. وكذلك أيضا مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليا عن الآخر لتبين حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا"[4]. ويفسح حازم السبيل أمام الشعراء في مجال المطابقة، إذ يمكن أن تتحقق "بأن يوضع أحد المعنيَيْن المتضادّيْن أو المتخالفَيْن من الآخر وضعا متلائما"[5]، ولذلك فهو يقسّمها إلى محضة وغير محضة. فإذا كانت العادة تقتضي أن يكون الطباق محضا، فإنه يجوز خرق هذه العادة بأن يجري " تخالف وضع الألفاظ لتخالف في وضع المعاني،

---

[1]- قدم فخر الدين الرازي أول تلخيص لكتابيْ عبد القاهر الجرجاني "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" مع إفادته مما كتبه الرماني والزمخشري في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" (ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص275).

[2]- السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص70.

[3]- المصدر السابق: ص179.

[4]- حازم القرطاجنّي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1981، ص44-45

[5]- المصدر نفسه: ص48.

ولنسبة بعضها من بعض، فيقع بذلك بين جزءين من أجزاء الكلام نسبتان متخالفتان، فيجري ذلك مجرى المطابقة في الألفاظ المفردة كقول بعضهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَصْلَحْتَهُ فَإِذَا أَنْفَقْتَهُ فَالْمَالُ لَكْ[1]

وبعد هذه الاستفاقة للبلاغة العربية على يد هذا العَلَم، تمضي في سبات عميق من التعقيد والجمود تحت ركام من الشّروح والتّلخيصات لكتاب " مفتاح العلوم" للسكاكي، أشهرها" تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني المتوفى سنة 739هـ، لخّص فيه القِسْمَ الثالث منه، وتأثر في تلخيصه بالكتب السابقة له، وهو أول من جعل ألوان البديع علما مستقلا عن أخويه: علم المعاني وعلم البيان[2]، وعرفه بقوله:" وهو: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الكلام ووضوح الدلالة"[3]، وكأنه لاحظ ما اكتنف تلخيصه من غموض، فعمد إلى تجليته وشرحه في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة"، وأكثر فيه من الشواهد والأمثلة؛ وقد حصل كتاباه على حظ وافر من الشهرة والرواج بعده[4].

وما نظفر به حقا من جهود هؤلاء الأعلام الذين ذكرناهم ابتداء من أبي هلال العسكري-وهم يكادون يجمعون عليه في الغالب -أن التضاد أو الطباق محسن معنوي يؤتى به بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد، فهو تابع ولاحق لما عرف بالمعاني والبيان.

2- المستوى النحوي:

يقول الزمخشري المتوفى سنة 538هـ :" الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم والفعل والحرف"[5].

وعلى أساس هذه الأنواع الثلاثة للكلمة، كان الجمع بين المتضادين في الكلام باسمين أو فعلين أو حرفين، أو بضم الاسم إلى الفعل أو الفعل إلى الاسم.

---

[1]- المصدر السابق ص51.
[2]- أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة (مصر)، 1969، ص303-304.
[3]- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط6، 1985، ج2، ص477
[4]- المرجع السابق: ص307.
[5]- ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ج1، ص18.

فمن الجمع بين اسمين قوله تعالى :" أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"[1]. ومنه قول الفرزدق[2]:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ في السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

ومن الجمع بين فعلين قوله عز وجل:" إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"[3].

ومنه قول أبي صخر الهذلي:

أَمَا والّذِي أَبْكَى وأَضْحَكَ والّذي أَمَاتَ وأَحْيَا والذي أمْرُهُ الأمْرُ[4]

ومن الجمع بين حرفين قوله تعالى:" لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلاّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ"[5].ومنه قول الشاعر:

عَلَى أَنَّنِي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الهَوَى وأَخْلُصَ مِنْهُ لا عَلَيَّ ولا لِيَا[6]

ومن شواهد ضم الاسم إلى الفعل قوله تعالى :" أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ"[7]، أي أنه كان ضالاّ فهديناه، فالموت والإحياء معناهما مجازيان وهما الضلال والهدى.

ومن أمثلة ضم الفعل إلى الاسم قول التّهاميّ:

لَقَدْ أَحْيَا الْمَكَارِمَ بَعدَ مَوْتٍ وشَادَ بِنَاءَهَا ما بَعْدَ أَنْهَدَامِ[8]

فالإحياء والموت، والشّيد والانهدام معان مجازية، إذ المراد: أنه أعطى بعد أن امتنع الناس كلهم عن العطاء.

فإذا تخطّينا الكلمة المفردة إلى الجملة أي الكلام المركب الذي يعرفه النحاة بأنه[9]:"اللفظ المركب المفيد بالوضع"[10]، رأينا التضاد يأتي على شكل صيغتين من فعل واحد، تكون الأولى نهيا والثانية أمرا كقوله عز وجل: " إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ

---

[1]- لقمان: 60.
[2]- الفرزدق: شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت (لبنان)، ط1، 1983، ج1، ص600.
[3]- آل عمران: 160.
[4]- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (العراق)، 1983، ج2، ص256.
[5]- البقرة: 286.
[6]- المرجع السابق: ص256.
[7]- الأنعام: 122.
[8]- المرجع السابق: ص257.
[9]- تمام حسان: الأصول، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1981، ص292
[10]- معني "بالوضع " أي أنّ التواضع لم يقع على الألفاظ المفردة فقط، بل وقع أيضا على التراكيب. (ينظر: هامش مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، المجلد الثاني، العدد1، 1972، ص53-54).

وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ"[1]، وشبيه بذلك أن تجيء الجملة مثبتة مرة ومنفية مرة أخرى، كقول البحتري[2]:

تُقَيِّضُ لِـــي مِنْ حَيْثُ لا أَعْلَمُ ٱلنَّـــوَى ويَسْـــرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

فقوله : (لا أعلم) كقوله: أجهل، فهي مطابقة لقوله: أعلم.

وقد سمّى البلاغيون ما جاء من الطباق بنفي أو نهي طباق السلب، وما جاء بغير ذلك–كما في الشواهد السابقة–فهو طباق الإيجاب.

3- المستوى البلاغي:

لقد نبّه ولع الشّعراء المحدثين ببعض الأساليب البلاغية كالطباق والجناس والاستعارة وغيرها البلاغيين العرب في العصر العباسي الأول إلى ضرورة العودة إلى الشعر العربي القديم –ابتداء من الشعر الجاهلي– لاستقرائه، والوقوف على هذه الأساليب،والتفرقة بينها، وإدراك مدى العمق والجمال اللذين تضفيهما على صور الشعر ومعانيه، ثم وضع مصطلحات لكل نوع منها مصحوبا بشواهد من المنظوم والمنثور، فكان أول مؤلف اختص بجمع فنون البديع هو كتاب" البديع" لابن المعتز المتوفى سنة 296هـ، جمع فيه ثمانية عشر لونا بديعيا، فجاء معاصره قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ فذكر في كتابه" نقد الشعر" عشرين لونا، ثم أوصلها أبو هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ في كتابه" الصناعتين" إلى خمسة وثلاثين لونا. فإذا انتقلنا إلى أواخر القرن السادس الهجري، ألفينا أسامة بن منقذ المتوفى سنة 584هـ يجمع من ألوان البديع في كتابه " البديع في نقد الشعر" خمسة وتسعين لونا. وفي القرن السابع الهجري، يخطو ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة 654هـ بالبديع خطوات واسعة، فيجمع في كتابه "تحرير التحبير" مائة لون واثنين وعشرين، ويبلغ بالبديع الوارد في القرآن الكريم مائة لون وثمانية ذكرها في كتابه " بديع القرآن"، وبذلك فتح الباب على مصراعيه لرجال البديعيات أن يصلوا بالبديع إلى أكثر من هذا العدد. فقد ضمن صفيّ الدّين الحلّيّ المتوفّى سنة

---

[1]- آل عمران: 175.

[2]- البحتري: ديوان البحتري، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ط2، 1973، ج3، ص1928.

750هـ بديعيته في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وخمسين لونا بديعيا، وهي قصيدة ميمية من بحر البسيط على غرار بردة البوصيريّ المتوفى سنة 596هـ، وسمّاها "الكافية البديعية في المدائح النبوية"، وألف عليها شرحا سماه " النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية"[1].

وممّا لاشكّ فيه أنّ هذا العدد الهائل لفنون البديع يدلّ دلالة واضحة على انصراف البلاغيين العرب عن اكتناه جوهر هذه الأساليب البلاغية إلى مزيد من التقسيم والتفريع أوقعهم في كثير من التكرار والإسراف.

والجناية على التضاد أظهر وأبين، ذلك أن البلاغيين انشغلوا باستخراج الطباق وبيان نوعه، عن محاولة الكشف عن دوره في السياق: في تشكيل الصورة الفنية وفي أداء المعنى. وكل إضافة جديدة كانت تنحصر في مزيد من المصطلحات لا غير، كمصطلح "المقابلة"، وطباق " المخالف أو التدبيج"، وطباق" العكس أو التبديل"، وطباق " السلب والإيجاب"[2]، و" إيهام التضاد"؛ وقد اختار ابن سنان المتوفى سنة 466هـ إطلاق الطباق على جميع أنواعه[3]، واتّبعه في ذلك الخطيب القزويني المتوفى سنة 739هـ[4].

أمّا المعاصرون فقد ضاقوا ذرعا بكثرة المصطلحات ما دامت لا تكشف عن كنه التضاد، يقول الدكتور منير سلطان:" أعتقد أنه لا داعي لكثرة المصطلحات، ويكفينا من "الطباق" المصطلح فقط... ويكون الطباق: هو التّضادّ القائم بين معنيين، إمّا تضادا حقيقيّا أو مجازيّا، أحسّ به الفنان، بغضّ النظر عن أنّه طباق بين مفرد ومفرد، أو بين هيئة وهيئة...على ألاّ ننزع الطباق من السّياق"[5]. وفي الاتجاه نفسه، يقول الدكتور رجاء عيد: "إنّ الإحساس بوجهَيْ الأشياء-مهما تكن الطريقة-كفيل بإثراء الأسلوب إذا توافر لدى الشاعر ما يهيّء لعمله النجاح، ولا يُجدي صلب العين على الطباق وأنواعه وتفريعاته المختلفة"[6]، فهو ينعى على البلاغيين القدامى إنفاق جهودهم في استخراج ما في البيت من

---

[1] - البلاغة تطور وتاريخ: ص358-360.
[2] - تنظر شواهد طباق الإيجاب وطباق السلب في الصفحتين (13-14) من هذا البحث.
[3] - ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصّعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده (مصر)، 1969، ص192.
[4] - الإيضاح في علوم البلاغة 2 : ص477.
[5] - منير سلطان: البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالإسكندرية (مصر)، 1986، ص118.
[6] - في البلاغة العربية: ص271.

طباق أو غيره من ألوان البديع، ثم بيان أنواعه وتفريعاته المختلفة مهملين القيمة الفنية لأسلوب الطّباق.

ولقد كنّا أفضنا في الحديث عن مصطلح التضاد أو الطباق عبر المستوى المعجمي[1]، ولا بأس أن نقف عند ما أضافه البلاغيون من خلال مصطلحاته الأخرى.

عرّف قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ في كتابه "نقد الشعر" المقابلة عند حديثه عن صحة المقابلات بقوله:" أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشرط شروطا ويعدّد أحوالا في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده وفي ما يخالف بضد ذلك، كما قال بعضهم:

وإذا حَدِيثٌ سَاءَنِي لَمْ أَكْتَئِبْ وإذا حَدِيثٌ سَرَّنِي لَمْ أَشِرِ[2]

فجعل بإزاء سرني ساءني، وبإزاء الاكتئاب الأشر (أي المرح)، وحاذى عبارَتَيْ المعنيين المتقابلين على الترتيب، وذلك أحسن في الكلام، وقبل قدامة ما لم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين، وأنشد للطّرمّاح بن حكيم:

أَسَرْنَاهُمْ وأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمْ التُّرَابَا

فَمَا صَبَرُوا لِبَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ ولا أَدَّوْا لِحُسْنِ يَدٍ ثَوَابَا[3]

فقابل ما في صدر البيت الأول وهو الإنعام على المأسورين بما في عجز الثاني وهو ذكر الثواب على حسن اليد، وما في عجز البيت الأول وهو ذكر القتل بما في صدر البيت الثاني وهو الصبر عند بأس الحرب.

ويرى حازم القرطاجني أن "أنواع المقابلات تتشعب. وقل من تجده يفطن لمواقع كثير منها في الكلام. كما أن كثيرا من الناس يعد من المقابلة ما ليس منها. وأكثر ما يشعر به منها مقابلة التضاد والتخالف"[4]. ثم تمثل لفساد المقابلة بقول أبي عديّ:

يَا ابْنَ خَيْرِ الأَخْيَارِ مِن عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ زَيْنُ الدُّنْيَا وغَيْثُ الجُودِ

---

[1] - ينظر: المستوى المعجمي، ص وما بعدها من هذا البحث.
[2]- نقد الشعر: ص141.
[3]- المصدر نفسه: ص142.
[4]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص52.

لأن غيث الجود ليس مقابلا لزين الدنيا من طريق المقاربة ولا التضاد[1].

والمقابلة في معناها العام هي المناسبة بالتضاد أو بغيره، غير أن أكثر ما تكون بالأضداد التي تتجاوز ضدّين، وتحمل في طواياها التقسيم ، ولذلك جعل ابن رشيق "المقابلة بين التقسيم والطباق"[2]، وحينئذ يكون الكلام في أعلى رتبة من البلاغة وأعظم موقعا في النفوس.

ومن أنواع الطّباق العكس والتبديل، وقد عرفه أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" بقوله:" هو أن تعكس الكلام فتجعل في القسم الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول"[3]، ومنه قوله تعالى :" تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ وتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ الحَيِّ"[4]، ومنه قول الحسن البصري:"إنَّ مَنْ خَوَّفَكَ حَتَّى تَلْقَى ٱلْأَمْنَ خَيْرٌ مِمَّنْ أَمَّنَكَ حَتَّى تَلْقَى الخَوْفَ"[5].

وهناك المخالف أو التدبيج–وعدّه حازم القرطاجنّي من المطابقة غير المحضة–وهو " مقارنة الشيء بما يقرب من مضاده، كقول عمرو بن كلثوم:

بِأَنَّـــا نُـــوردُ الرَّايَـــاتِ بِيضـــــًا ونُصْدِرُهُـــنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَـــــا[6]

فهذا النوع يعتمد على إحكام الألوان ومعرفة ما بينها من فروق، فقد ذكر البياض والحمرة، والبياض كناية عن السلم قبل الحرب، والحمرة كناية عن دوران رحى المعركة على الأعداء إلى حد انصباغ الرايات بدمائهم؛ وهو باب في الكلام طريف.

ويُلحَقُ بالطباق إيهام التضاد:" وهو أن يوهم لفظ الضد أنه ضد مع أنه ليس بضد، كقول الشاعر:

يُبْـــدِي وِشَاحـــًا أَبْيَضًا مِن سَيْبِـــهِ والجَوُّ قَد لَبِسَ الوِشَـــاحَ الأَغْبَـــرَا

فإن الأغبر ليس بضد الأبيض، وإنما يوهم بلفظه أنه ضد"[7].

---

[1]- المصدر السابق: ص55.
[2]- العمدة: 2، ص15.
[3]- الصّبغ البديعي: ص168.
[4]- آل عمران: 27.
[5]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص51.
[6]- المصدر نفسه: ص49.
[7]- علم البديع: ص70-71.

وواضح من الشواهد التي سقناها لهذه الأنواع التي تندرج تحت الطباق أنها لا تزيد عن كونها أسماء لمسمى مشترك تبين عن وضعيات مختلفة للتضاد في السياق لدلالات خاصة مقصودة.

ثمّ إنّ الطباق-كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري-ضربان: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة كقوله تعالى:" وتَحْسَبُهُم أيْقَاظًا وهُم رُقُودٌ"[1]، وضرب يأتي بألفاظ المجاز. فما كان بلفظ الحقيقة سمي طباقا، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤا، ومثاله قول أبي الشغب العبسي:

حُلْـوٌ ٱلشَّمَـائِـلِ وهُوَ مُرٌّ بَـاسِـلٌ يَحْمِـي الذِّمَارَ صَبِيحَةَ الإِرْهَـاقِ[2]

فقوله : حلو ومر، يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان ولا شمائله ما يذاق بحاسة الذوق"[3].

وكل ما ذكر سابقا من شواهد يدخل في باب الطباق اللفظي، أما الطباق المعنوي فهو " مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دون لفظه"[4]، كقوله تعالى : "فَمَن يُـرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ومَن يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ"[5]، فقوله: يهديه ويضله من الطباق اللفظي، وقوله: يشرح صدره، مع قوله: يجعل صدره ضيقا حرجا، من الطباق المعنوي، لأن معنى " يشرح صدره" يوسعه بالإيمان ويفسحه بالنور، فهو يطابق قوله: ضيقا حرجا. ومنه قول المقنع الكندي من أبيات الحماسة:

لَهُمْ جُلُّ مَالِـي إِنْ تَتَابَـعَ لِي غِنًـى وَإِنْ قَلَّ مَالِـي لَمْ أُكَلِّفْهُم رِفْـدَا[6]

فهذا من الطباق المعنوي، لأنّ قوله: إن تتابع لي غنى، معناه: إن كثر مالي، والكثرة ضد القلة.

وتنقسم المطابقة عند حازم القرطاجني إلى محضة وغير محضة، " فالمحضة مفاجأة اللفظ بما يضادّه من جهة المعنى كقول جرير:

---

[1]- الكهف: 18.
[2]- أورد قدامة بن جعفر هذا البيت شاهدا على التكافؤ الذي يعني عنده الطباق بألفاظ الحقيقة أو بألفاظ المجاز على السواء.
[3]- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 2 : ص255.
[4]- الطراز 2 : ص383.
[5]- الأنعام: 125.
[6]- المصدر السابق: ص384.

وبَـــاسِـــطُ خَيْـــرٍ فِيكُـــمُ بِيَمِينِـــهِ وقَـــابِـــضُ شَرٍّ عَنْكُمُ بِشِمَالِيَـــا

فقوله: باسط وقابض، وخير وشر من المطابقات المحضة"[1].

و"غير المحضة تنقسم إلى مقابلة الشيء بما يتنزل منه منزلة الضد، وإلى مقابلة الشيء بما يخالفه. فأما ما تنزل منزلة الضد فمثل قول الشريف:

أَبْكِـــي ويَبْسِـمُ والدُّجَـى ما بَيْنَنَـــا حَتَّى أَضَـــاءَ بِثَغْرِهِ، ودُمُوعِـــي

فتنزّل التبسم منزلة الضحك في المطابقة.

وأمّا المخالف فهو مقارنة الشّيء بما يقرب من مضادّه، كقول عمرو بن كلثوم:

بِأَنَّـــا نُـــورِدُ الرَّايَـــاتِ بِيضـــًا وَنُصْدِرُهُـــنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَـــا[2]

وقد تجتمع المطابقة المحضة وغير المحضة في بيت واحد، حيث ضوعفت المطابقة وجاءت العبارة الدالة عليها في احسن ترتيب وأبدع تركيب، كما في قول أبي الطيب المتنبي:

أَزُورُهُـــمْ وَسَوَادُ اللَّيْـــلِ يَشْفَعُ لِـــي وأَنْثَنِي وبَيَـــاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي[3]

وهذا البيت تناوله أحد المعاصرين وهو عبد الرحمن البرقوقي شارح ديوان المتنبي في حماس بالغ، وعده" من معجزات المتنبي"[4] لأنه جاء بخمسة طباقات: فطابق بين: أزورهم وأنثني، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبي.

أمّا ابن حجّة الحمويّ المتوفّى سنة 837هـ، فنراه يهوّن من أمر التضاد المجرد في الكلام، إذ لا تأثير له ولا جمال إلا إذا أتى مرشحا بنوع من البديع وبخاصة التورية، يقول:" والذي أقوله إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد وهو شيء سهل، اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع وتشاركه في البهجة والرونق"[5]، ثم يسوق أمثلة كثيرة من القرآن الكريم ومن الشعر تجمع بين الطباق وغيره كالتكميل والتشبيه والمجاز واللف والنشر والجناس ولاسيما التورية. ومن شواهده المتوارثة بعده قوله تعالى: "تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ

---

[1]- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص48-49.
[2]- المصدر نفسه: ص49.
[3]- المصدر نفسه: ص49-50.
[4]- عبد الرحمان البرقوقي: شرح ديوان المتنبي، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، 1980، ج1، ص290.
[5]- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 2: ص259.

وتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ[1]"، ويمضي معلقا على هذه الآية الكريمة بقوله:" ففي العطف بقوله تعالى :" وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ " دلالة على أن من قدر على الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده. وهذه مبالغة التكميل المشْحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى. فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته"[2].

وكأنّ الغرور ملأ نفس ابن حجّة، فراح يعلي من شأن التّورية طلبة الشّعراء والأدباء في عصره وغايتهم القصوى، وينتقد في الوقت نفسه الشاعر صفي الدين الحلي المتوفى سنة 750هـ، قائلا :" إن الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سننهم، لم يرضوا بالمطابقة المجردة ولم ينظموها إلا في سلك التورية، وأما صفي الدين فلم يأت بها إلا مجردة وكذلك العميان"[3].

وليس لنا من رد على نزعة ابن حجة الحموي ومن سلك مسلكه من المتأخرين في ضرورة ترشيح الطباق بنوع من أنواع البديع، إلا أن نسوق الأمثلة من الشعر القديم والمحدث نبين فيها ما للمطابقة المجردة- كما نعتها-من دلالات خاصة وجمال فني في السياق.

4- المستوى الدلالي:

إذا كانت الأضداد بمفهومها القديم، وهو اللفظ المستعمل في معنيين متضادين، قد حظيت باهتمام اللغويين العرب، وأفردوا لها مؤلفات خاصة منذ بداية القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع، أي منذ ظهور أضداد أبي علي قطرب المتوفى سنة 206هـ حتى أضداد الحسن بن محمد الصّغاني[4] المتوفى سنة 650هـ، فإن التضاد الذي يعني عند علماء اللغة المحدثين وجود لفظين يختلفان نطقا ويتضادان معنى، كالقصير في مقابل

---

[1]- آل عمران: 27.
[2]- المرجع السابق: ص259.
[3]- الصبغ البديعي: ص408.
[4]- هو أبو الفضائل الحسن بن محمد الصّغاني: له كتاب "الأضداد".

الطويل والجميل في مقابل القبيح، لم يخص هذا التضاد بتأليف مستقل من اللغويين العرب القدامى عدا بعض كتب الأدب التي عقدت له فصولا مثلما فعل الهمذاني في كتابه "الألفاظ الكتابية"[1].

وفي المقابل، كان اهتمام اللغويين المحدثين بظاهرة الأضداد ضئيلا، لم يستغرق سوى إشارات في مؤلفاتهم اللغوية، من ذلك ما ذكره أولمان ULLMANN في كتابه "دور الكلمة في اللغة" أثناء حديثه عن تعدد المعنى: "من المعروف أن المعاني المتضادة للكلمة الواحدة قد تعيش جنبا إلى جنب لقرون طويلة بدون إحداث أي إزعاج أو مضايقة"[2]. فكأنّ اللغويين المحدثين حين يهملون ظاهرة الأضداد التي هي جزء من المشترك اللفظي[3]، يردون الاعتبار لقضية التضاد.

ولا نريد أن نخوض في ما خاض فيه اللغويون العرب القدامى وبعض اللغويين العرب المعاصرين من وجود هذه الأضداد أو إنكار وجودها، أو الاختلاف حول كثرتها أو قلتها، فمما لا شك أن هذه الأضداد التي هي جزء من المشترك اللفظي موجودة في اللغة العربية[4]، إنما الذي يهمنا أكثر هو ذلك التضاد الذي عرفه الخليل والأصمعي باسم المطابقة، وحظي باهتمام البلاغيين بعدهما، فعملوا على استقصائه من الشعر القديم والمحدث، وإبراز شواهده من المنظوم والمنثور، ووضع مصطلحات لأنواعه وأقسامه وتفريعاته، وإن لم يتجاوزوا ذلك إلى الكشف عن كنهه ودوره في السياق.

وهذا النّهج في اجتناب الجدل حول مسألة الأضداد سبق إليه ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ، حين تناول ظاهرة استخدام اللفظ الواحد في معنيين متضادين في باب " ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة"، يقول:" من ذلك أن يقع في الكلام شيء مما يستعمل للضدّين: كقولهم" جلل" بمعنى صغير، و" جلل" بمعنى عظيم؛ فإن باطنه مطابقة، وإن كان ظاهره تجنيسا، وكذلك " الجَوْنُ" الأبيض، و" الجون" الأسود، وما أشبه ذلك"[5].

---

[1]- ينظر: الألفاظ الكتابية: عبد الله بن عيسى الهمذاني، الدار العربية للكتاب، 1980، ص296.-297.

[2]- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1982، ص191.

[3]- المشترك اللفظي هو أن يدل اللفظ على أكثر من معنى. فكلمة "العين" تدل على العين الباصرة، وعلى الجاسوس، وعلى الذات، وعلىمنبع الماء، وعلى أشياء أخرى. (ينظر: الوجيز في فقه اللغة: محمد الأنطاكي، ص388).

[4]- ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص09.

- [5]-العمدة 2: ص12.

فلعلّ ابن رشيق يكون قد اطلع على بعض الكتب التي صنفها اللغويون قبله في الأضداد أمثال قطرب[1] المتوفى سنة 206هـ والأصمعي المتوفى سنة 216هـ وابن السكيت[2] المتوفى سنة 244هـ، وأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة 248هـ، وأبي بكر ابن الأنباري[3] المتوفى سنة 328هـ ، وأبي الطيب اللغوي[4] المتوفى سنة 351هـ ،ولمس الخلاف بين المؤيّدين لوجود الأضداد-وهم الكثرة الغالبة من اللّغويين-والمنكرين لوجودها- وهم قلة قليلة وعلى رأسهم ابن درستويه المتوفى سنة 347هـ-، فأبى ابن رشيق إلاّ أن يتناول هذه القضية كبلاغي يؤيد وجود هذه الظاهرة، ولكنه يعطيها صبغة بلاغية بإدخاله اللفظين اللذين تمثل بهما-جلل والجون-في باب ما ظاهره التجنيس لفظا وباطنه الطباق معنى.

وبناء على هذه النظرة، قد يهمنا من هذه الأضداد ما ينشأ عن أسباب اجتماعية لدلالاتها الخاصة كالتفاؤل والتشاؤم والتهكم والتّأدّب، ومن قبيل التفاؤل إطلاق المفازة على الصحراء، والقافلة على الجماعة المسافرة، والسليم على الملدوغ. ومن التشاؤم من النطق بلفظ الأسود تسمية الأسود أبيض، وتكنية الأسود بأبي البيضاء. ومما يقال للتهكم والسخرية قولهم عن المتعثر في نطقه " فصيح"، وقولهم للجاهل استهزاء: يا عاقل. ومن أمثلة التأدب في الحديث إطلاق لفظ " بصير" على الأعمى، ولفظ" مولى" الذي هو بمعنى السيد على العبد[5].

وقد تهمّنا أيضا بعض ألفاظ الأضداد التي تنشأ نتيجة التعبير عن الشيء باسم ضده زيادة في تقوية التعبيرية، وإثارة لاهتمام السامع، يقول محمد الأنطاكي:" ألا ترانا إذا أعجبنا بشخص قلنا عنه: ابن كلب- شيطان-ملعون-قرد أشمط...؟ وإذا استحسنا شيئا قلنا عنه: إنه فظيع؟ وقد حدثنا التاريخ أن أحد خلفاء العرب في الأندلس سمى إحدى جواريه (قبيحة) لشدّة حسنها وجمالها"[6].

---

[1]- هو أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب: ولد في البصرة، اشتهر بعلم النحو، وهو أول من وضع كتابا بيّن فيه اختلاف معنى اللفظ بشكل حركاته، وله في ذلك "المثلث" وله كتاب "الأضداد".

[2]- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت: من نحاة الكوفة، ولد في بغداد، له "إصلاح المنطق" و"الأضداد".

[3]- محمد بن القاسم المعروف بأبي بكر بن الأنباري: نحوي مشهور، من أعلم أهل زمانه بالعربية، له "الأضداد" و"الزاهر".

[4]- هو أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي: له "الأضداد في كلام العرب".

[5]- علم الدلالة: ص205-206..

[6]- محمد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللغة، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط3، ص396.

وإذا كانت هذه الأضداد تبدو منافية للإبانة عن المعاني، فلا يدري المخاطب أي المعنيين المتضادين أراد المخاطب باللفظة الواحدة كما زعم الشعوبية الذين أزروا على العرب، وعدوا ذلك دليلا على نقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم، فإن أبا بكر بن الأنباري المتوفى سنة 328هـ يردهم -في خطبة كتابه عن الأضداد-إلى سياق الكلام، فهو الفيصل في تحديد معنى الكلمة، يقول في إحدى أجوبته: "أحدهنّ أن كلام العرب يصحّح بعضه بعضا، ويرتبط أوله بآخره، ولا يُعرَفُ معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه؛ فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، فلا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد"[1]، ثم واصل ردّه فعلّل للأضداد بتداخل اللهجات كما فعل أبو علي الفارسي[2]، وأضاف علة أخرى لنشأتها في اللغة مفادها أن الأصل لمعنى واحد، ثم تداخل المعنيان على جهة الاتساع، يقول:" وقال آخرون: إذا وقع الحرف (اللفظ) على معنيين متضادين فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع. فمن ذلك الصّريم، يقال لليل صريم، وللنهار صريم، لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع"[3].

وتأكيدا منا على صواب فكرة ابن الأنباري في الرجوع إلى استفتاء سياق الكلام من أوله إلى آخره، واستيفائه، واستكمال جميع حروفه لتحديد أي المعنيين يقصده المتكلم باللفظة الواحدة، نورد هاتين اللفظتين " جَلَل والجون"،ونوضح دور السياق في بيان دلالتيهما. فمن أضداد أبي حاتم السّجستاني المتوفى سنة 255هـ:

"جلل: قال أبو عبيدة أمر جلل أي جليل، وأمر جلل أي هين يسير صغير"[4].

وقال امرؤ القيس[5] :

أَنَـــانِـــــي حَدِيـــثٌ فَكَذَّبْـــتُـــهُ بِأَمْـــــرٍ تَزعْـــزَعُ مِنْهُ القُـلَـــلُ

---

[1]- ابن الأنباري: كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت(لبنان)، ط.1998، ص02.

[2]- أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي: ولد في فاسا من أم عربية، وتوفي في بغداد سنة 377هـ، من نحويي البصرة، له كتاب "الإيضاح في النحو".

[3]- المصدر نفسه: ص08.

[4]- أبو حاتم السجستاني: كتاب الأضداد، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1991، ص145.

[5]- امرؤ القيس : شرح ديوان امرئ القيس للأعلم الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص470-471..

لِقَتْـــــــلِ بَنِي أَسَـــــــدٍ رَبَّـــــــهُـــمْ أَلاَ كُـــــــلُّ شَيْءٍ سِـــــوَاهُ جَـــلَلْ

أي هيّن، لأن قتل بني أسد ملكهم أبا الشاعر أمر عظيم شبيه بالزلزال الذي تتزعزع منه القلل (جمع قُلّة) أي أعالي الجبال، لذا فما عداه من أمور يعدّ في نظر امرئ القيس أمرا هيّنا صغيرا؛ فمن البيّن أن سياق البيت الذي وردت فيه لفظة (جلل) والبيت الذي قبله يحددان المقصود بدقة، وأما قول لبيد[1]:

وَأَرَى أَرْبَـــــدَ قَـــدْ فَـــارَقَـــنِـــي وَمِنَ الأَرْزَاءِ رُزْءٌ ذُو جَـــــلَـــلْ

أي ذو عظم، فموت أخيه أربد الذي أعرض عن الإسلام، فأهلكه الله تعالى بالصاعقة، لاشك رزء عظيم أصيب به الشاعر، لا يدانيه أي رزء آخر.

ومن الأضداد "جون"، و"يقال الجون للأسود ويقال للأبيض، والأكثر الأسود"[2]، كقول أبي ذؤيب الهذلي[3]:

وَٱلدَّهْـــــرُ لاَ يُبْقِي عَلَى حَدَثَـــانِـــهِ جَـــوْنَ السَّـــــرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَـــعُ

يعني حمارا وحشيا أسود الظهر، والجدائد الواحدة جدود: الأتن لا ألبان لها. فلئن هلك بنوه وتواترت عليه المصائب بعدهم، فهذا من الدهر غير عجيب لأنه لا يُبْقِي على حدثانه شيئا.

وقال الفرزدق يصف قصرا أبيض[4]:

وجَـــــوْنٍ عَلَيْهِ الجَـــصُّ فِيـــهِ مَرِيضَةٌ تَطَلَّعُ مِنْهَا النَّفْسُ والمَوْتُ حَاضِرُهْ[5]

فقد أراد بالجون القصر الأبيض، وفيه امرأة منعّمة قد أضرّ بها النّعيم وثقل جسمها وكسّلها، فمن أجلها تخرج الروح والموت مقيم بكنفها.

وكما هو واضح من خلال هذين الشاهدين للفظة " الجون" أن المعنى المقصود قد يُعَمَّى عنّا-نحن أبناء هذا العصر-إذا كانت الألفاظ المجاورة لها في السياق تضطرنا إلى الاستنجاد بالشروح الشعرية القديمة أو المعاجم اللغوية لفهم دلالاتها.

وهذا الإشكال الذي يطرح دوما مع الأضداد التي تعني وجود لفظ واحد يستعمل في معنيين متضادين، يقل مع التضاد الذي يعني به علماء اللغة المحدثون وجود لفظين يختلفان

---

[1]- لبيد بن ربيع: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت (لبنان)، 1966، ص148.
[2]- الأضداد: ص158.
[3]- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، دار بيروت، بيروت (لبنان)، 1980، ص242.
[4]- الفرزدق: شرح ديوان الفرزدق:، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومدرستو الحياة، بيروت (لبنان)، ط.1، 1983، ج1، ص356.
[5]- الجون: القصر. والجص: الكلس. المريضة: المريضة الطّرْف في رنوّها.

نطقا ويتضادان معنى، لتلازمهما في الذهن عبر ما يسمى بتداعي المعاني والألفاظ، واقترانهما في الكلام متقاربين أو متباعدَيْن قليلا[1].

ولقد ألقت المناهج اللغوية الحديثة التي اهتمت بدراسة المعنى الموضوع الأساس لعلم الدلالة مزيداً من الأضواء لفهم طبيعة المعنى، سواء منه المعنى المعجمي أي معنى الكلمة المفردة أو معاني الجمل والتراكيب. وقد بلغت هذه الجهود اللغوية من الطموح إلى حد استخدام اللغويين وعلماء النفس صورا من قياس المعنى لتحقيق عدة أغراض، نقتصر منها على الغرض الذي يتعلق بالتضاد، وهو " قياس المعنى الأساسي للكلمات المتضادة، وذلك بوضع معيار متدرج لتحديد درجات الكلمات التي تقع في التضاد المتدرج بين طرفين متضادين. وعلى هذا المقياس يجري توزيع سلسلة الكلمات المتضادة"[2]. وتبدو أهمية هذا المقياس إذا " أردنا-مثلا-أن نعلل للحكم بالتضاد على الفعلين: يهمس ويصيح، ونفي التضاد عن الفعلين: يصيح ويقول... ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بعمل مقياس متدرج توزع عليه كلمات التسلسل كما يلي: يهمس-يوشوش-يتمتم-يتنهد-يغمغم-يحف-يطن-يتذمر-يصيح-يتكلم-يصرخ-ينادي-يبكي-ينهئه... فلكي يكون اللفظان متضادّين يجب أن يختلفا فقط في ملمح "العلو"، وتكون أي كلمة من كلمات العلو مضادة لأي كلمة من كلمات الانخفاض"[3].

وقد أفادت نظرية الحقول الدلالية من طرق قياس المعنى لتحقيق هدفها وهو " جمع كل الكلمات التي تخص حقلا معينا، والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام"[4]. ونعني بالحقل الدلالي CHAMP SEMANTIQUE أو الحقل المعجمي CHAMP LEXICAL "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية، فهي تقع تحت المصطلح العام" لون"، وتضم ألفاظا مثل: أحمر-أزرق-أصفر-أخضر-أبيض..."[5].

---

[1]- ينظر: بيتا الطرمّاح بن حكيم كشاهد على ما لم تتحادّ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين، (ص16من هذا البحث).
[2]- علم الدلالة: ص42.
[3]- المرجع نفسه: ص43.
[4]- المرجع نفسه: ص80.
[5]- المرجع نفسه ص79.

ويرى أصحاب هذه النظرية، وعلى رأسهم ليونزLYONS ، أن معنى الكلمة ما هي إلا "مُحصّلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمي"[1]، ولذا فمن الضروري عندهم بيان أنواع العلاقات داخل كل حقل معجمي. ولا تخرج هذه العلاقات في أي حقل معجمي عما يأتي: الترادف–الاشتمال أو التضمن–علاقة الجزء بالكل–التضاد–التنافر[2].

وتهمّنا من بين هذه العلاقات علاقة التضاد التي تشمل أنواعا متعددة من التقابل:

أ–فهناك ما يسمى بالتضاد الحاد أو التضاد غير المتدرج، وهو قريب من النقيض عند المناطقة، ويتفق مع قولهم إن النقيضين لا يمكن أن يصدقا معا أو يكذبا معا، مثل: ميت، حي–متزوج، أعزب–ذكر،أنثى.ونفي أحد عضوي التقابل يعني الاعتراف بالآخر، فقولنا إن فلانا غير متزوج،فهذا يعني الاعتراف بأنه أعزب.وفي مثل هذه المتضادات لا يمكن الاعتراف بدرجات أقل أو أكثر، مثل:" جدا" أو " قليلا" أو " إلى حدّ ما"[3].

ب– وهناك ما يسمى بالتضاد المتدرج، ويقع بين نهايتين لمعيار متدرج أو بين أزواج من المتضادات الداخلية، ويحمل عند المناطقة اسم " التضاد"، ويصفونه بأن الحدين فيه قد يكذبان معا، بمعنى أن شيئا قد لا ينطبق عليه أحدهما، إذ بينهما وسط. وإنكار أحد عضوي التقابل لا يعني الاعتراف بالعضو الآخر، فقولنا: الحساء ليس ساخنا لا يعني الاعتراف بأنه بارد. وهذا النوع من التضاد نسبيّ، فقولنا: " الحساء ساخن" يختلف عن قولنا:" الماء ساخن". ويمكن مثلا بالنسبة إلى درجات الحرارة وضع مقياس متدرج على النحو الآتي:

غال–ساخن–حار–دافئ–معتدل– مائل للبرودة–بارد–قارس–متجمد. فالتضاد الخارجي أو المتطرف بين: غال و متجمد، وهناك تضادات داخلية بين: حارّ وقارس، وبين دافئ وبارد، وبين معتدل ومائل للبرودة[4].

ج– وهناك نوع اسمه العكس، ويسمّى عند المناطقة التّضايف، والمتضايفان هما اللذان لا يتصوّر أحدهما، ولا يوجد بدون الآخر، وهو علاقة بين أزواج من الكلمات مثل: باع،

---

[1]- المرجع السابق: ص98.

[2]- الترادف ("أم" و"والدة") –الاشتمال (معنى "فرس" يتضمن معنى "حيوان")- علاقة الجزء بالكل (علاقة اليد بالجسم)- التنافر (مثل علاقة الرتبة، فالقول: محمد رائد يعني أنه ليس مقدما ولا لواء...) (ينظر: المرجع السابق: ص98-106).

[3]- المرجع السابق: ص102.

[4]- المرجع السابق: ص102-103.

اشترى– زوج، زوجة– والد، ولد. فلو قلنا: محمد باع منزلا لعلي، فهذا يعني أنّ عليّا اشترى منزلا من محمد. ولو قلنا: محمد زوج فاطمة، فهذا يعني أن فاطمة زوجة محمّد[1].

د– وذكر ليونز LYONS نوعا من التضاد سماه " التضاد الاتجاهي"، ويتمثل في علاقة بين كلمات تجمعها حركة في أحد اتجاهين متضادين بالنسبة إلى مكان ما، مثال ذلك:

" أعلى، أسفل" يمثل حركة في اتجاه رأسي، و" يصل، يغادر" و"يأتي، يذهب" : يمثلان حركة في اتجاه أفقي[2].

هـ– كما ميّز ليونز بين ما سماه التضادات العمودية مثل الشمال بالنسبة إلى الشرق والغرب حيث يقع عموديا عليهما، والتضادات التقابلية أو الامتدادية مثل الشمال بالنسبة إلى الجنوب، والشرق بالنسبة إلى الغرب[3].

والمتأمّل لهذه الأنواع المحددة من التقابل، يستخلص أنها بنيت على علاقات منطقية تمنحها أكبر قدر من الدقة والمصداقية، مما يفسح المجال أكثر أمام اتساع دائرة الحكم بالتضاد وضيق دائرة نفي التضاد.

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق ذكره أن "أكثر الأضداد الموجودة في كثير من اللغات غير مرتبطة اشتقاقيا مثل: حسن، سيّء – وجميل، قبيح– وعال، منخفض. ولكن كذلك يوجد المرتبط اشتقاقيا مثل: والد، ولد–وزوج، زوجة–وأخ، أخت... ومن الممكن أن يجتمع النوعان كما في مثل: "متزوج" التي ضدها: أعزب أو غير متزوج"[4].

والتضادّ يأتي في الكلام بألفاظ الحقيقة أو بألفاظ المجاز، ويكون بين مفرد ومفرد كالجمع بين اسمين، أو فعلين، أو حرفين، أو بضم الاسم إلى الفعل، أو الفعل إلى الاسم. ويكون التضاد بين جملة وجملة : بين جملة مثبتة وأخرى منفية، أو جملة تحوي نهيا وأخرى أمرا؛ وقد سمى البلاغيون العرب ما جاء من التضاد بنفي أو نهي طباق السلب، وما جاء بغير ذلك فهو طباق الإيجاب.

---

[1]- المرجع السابق: ص103.
[2]- المرجع السابق: ص103-104.
[3]- المرجع السابق: ص104.
[4]- المرجع السابق: ص104-105.

ويبدو لنا أن التضاد لا يحيا ولا ينتج دلالاته الثرية إلا داخل السياق الذي تتآزر فيه الألفاظ والتراكيب لتشكيل الصورة الشعرية ورسم ملامح المعنى. وعلى هذا الأساس ، فإذا كان استخراج التضاد من الكلام خطوة هامة في عمل الباحث، فإن الأهم هو الكشف عن دلالاته الخاصة التي يولدها السياق.

ولعلّ عبد القاهر الجرجانيّ المتوفّى سنة 471هـ كان متجاوزا لعصره بكثير حين تحدث عن معنى المعنى، فقال: " أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"[1]، ولذلك فالكلام-في رأيه-على ضربين: ضرب يعطيك معناه من ظاهر اللفظ وحده مثل قولك:خرج زيد، فأنت تخبر عنه بالخروج على الحقيقة. وضرب آخر يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تنتقل من ذلك المعنى إلى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، فأنت تستدل من المعنى الظاهر لقولك: " هو كثير رماد القدر" معنى ثانيا هو غرضك، فتعرف أنه مضياف؛ ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل[2]. ثم أضاف مثالا آخر: " وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنّك تقدّم رجلا وتؤخّر أخرى: أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه"[3].

وما لم يقله عبد القاهر الجرجاني في هذا المثال أن هذا " التردد " الذي نعته بأنه معنى المعنى، إنّما حققه التضاد الذي جسّد ذلك الصراع الداخلي في نفس هذا الشخص بين الإقدام والإحجام في أمر البيعة، حتى إن إحدى رجليه -والكلام وارد على سبيل المجاز- كانت في اتجاه معاكس للأخرى.

وما نطمح إلى تحقيقه في هذا البحث هو ما أراده عبد القاهر من مصطلح "معنى المعنى"، ونصبو إلى تجاوزه للكشف عما يعتمل في نفسية الشاعر من مشاعر وأحاسيس متناقضة، وبيان موقفه من الحياة، ونظرته إلى الكون من خلال دلالات التضاد الكامنة في ثنايا أشعاره.

---

[1]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص251.
[2]- المصدر نفسه: ص250.
[3]- المصدر نفسه: ص251.

الفصل الثاني:
التضاد
في
شعر ما قبل الدعوة الإسلامية
(المعلقات العشر)

إنّ طبيعة بحثنا تقتضي أن نبدأ رحلتنا من العصر الجاهلي باحثين عن التضاد في حنايا حياة الشاعر العربي في هذا العصر المضطرب الذي يكتنفه كثير من التيه والسير نحو المجهول، لذا كثر في الشعر الجاهلي الشكوى من الزمان وتقلبات الأيام خلال حياة يرصدها الموت، صفو قليل وكدر كثير. فقد عاش الإنسان العربي في صحرائه الشاسعة حياة قلقة، يصارع ظروف بيئته القاسية من أجل البقاء، ويتربص به الموت في كل لحظة؛ فهو إن لم يمت جوعا وعطشا من الجدب والقحط، مات قتلا بضربة سيف أو طعنة رمح، أو رمية سهم سديد في غارة له أو غارة عليه، أو في ثأر له أو ثأر منه أو من قومه.

ولقد كان الشعر الجاهلي سجلا صادقا ودقيقا وواقعيا لأيام العرب وأخبارهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، وصراعهم الدائم مع الموت. و" أجمع أهل الأدب على أنّ أبلغ شعر قيل في زمن الجاهلية القصائد الطوال المسمّاة بالمعلقات. وقد اختلفوا في وجه تسميتها بذلك، فذهب جمهورهم إلى أنّها سمّيت بالمعلّقات لأن العرب علقوها بأستار الكعبة إعجابا بها وإكبارا لشأنها [1] ". ومثلما اختلفوا في أصل تسمية المعلقات، اختلفوا في عددها، فجعلها بعضهم سبعا، ورأى بعضهم أنها ثمانية، وبلغ بها إلى العشرة[2]؛ وإلى هذا العدد الأخير نركن، لأنه يمنحنا فسحة أكبر للبحث عما نبتغيه.

ونستهل هذه المعلقات بمعلّقة امرئ القيس بن حجر الكندي المتوفى سنة 560م، المقدم–عند الرواة والنقاد العرب القدماء – على شعراء الجاهلية بما ابتدعه من أشياء استحسنها العرب، واتبعته فيها الشعراء، كاستيقاف صحبه، والبكاء على الأطلال، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وجودة التشبيه[3]. فقد بلغ من براعته الشعرية أنه وقف على الأطلال واستوقف صحبه، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد من مطلع معلقته، فقال:[4]

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْـرَى حَبِيبٍ ومَنْـــزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ[5]

---

[1]-الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط2، 1987، ص5 .
[2]-المصدر نفسه: ص7 .
[3]-محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة (المملكة السعودية)، (دون تاريخ)، ج1، ص55.
[4]-شرح ديوان امرئ القيس: ص60.
[5]-السقط: منقطع الرمل، واللوى حيث يلتوي ويرق، وذلك أثبت لأوتاد الأبنية-الدخول وحومل: موضعان.

فإذا جرت العادة أن يُقدَّم لنا امرؤ القيس على أنه ابن ملك مترفا، لاهيا، مغتنما للذات أينما وجدها، يتنقل من منزل إلى منزل مع صحبه، يقضي أيامه سعيدا في لهو وشرب وصيد، قد عرف-عدا ابنة عمه فاطمة التي عشقها-نساء كثيرات كأمّ الحويرث وأمّ الرّباب معرفة طويلة أو عابرة، فإنه يبدو غريبا أن تهيّج فيه الأطلال كل تلك الذكريات الخوالي حلوها ومرها؛ لأن هذا التعجب يتبدد حين نعلم أن الليل والنهار باتا عنده سواء، فهو يقضيهما في مزيد من المعاناة لذكرى الأحبة، ومقاساة لوعة الفراق، وطوفان من الهموم ينوء تحته في ليله الطويل، يقول:[1]

وَلَيْـــلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَـــهُ عَلَيَّ بِأَنْـــــوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِـــي[2]
فَقُلْتُ لَـــهُ لَمَّا تَمَطَّـــــــى بِجَوْزِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَـــازاً ونَـــــاءَ بِكَلْكَلِ[3]
أَلاَ أَيُّهَـــــا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلاَ انْجَـــلِ بِصُبْحٍ ومَا الْإِصْبَـــاحُ فِيكَ بِأَمْثَلِ[4]
فَيَـــا لَكَ مِنْ لَيْـــلٍ كَأَنَّ نُجُومَـــــهُ بِكُلِّ مُغَـــــارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ[5]

فكأنما نجوم ليله الطويل الذي تباعد ما بين أوائله وأواخره، لا تزول من أماكنها، لتزداد همومه وأحزانه، ويوضع صبره وجلده تحت المحك. فهو يود أن ينجلي الظلام بضياء من الصبح، ولو أن الليل والنهار -في حياته- ليسا ضدين، بل هما سواء في معاناة الهموم والأحزان، فقدَرُه ألا تدوم له سعادة، وألا يقر له قرار في منزل. لكن امرأ القيس لا يستسلم للأقدار، عُدّته في ذلك فرسه النجيب، يغتدي على صهرته لاغتنام لذّة أخرى حبيبة إلى نفسه لذّةِ الصيد، يقول:[6]

وَقَدْ أَغْتَـــــدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَاتِهَـــا بِمُنْجَرِدٍ قَيْـــدِ الْأَوَابِـــــدِ هَيْكَلِ[7]
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِـــلٍ مُدْبِـــرٍ مَعـــــاً كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ ٱلسَّيْلُ مِنْ عَلِ[8]
لَهُ أَيْطَـــــلاَ ظَبْيٍ وسَاقَـــا نَعَامَـــةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَـــــانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

---

[1] المصدر السابق ص 80- 81.
[2] سدوله: ستوره-ليبتلي: ليختبر ما عنده من الصبر والجزع.
[3] تمطى: امتد بجوزه يروي بصلبه: وهو عظم الظهر من لدن الكاهل إلى العجز-وأردف: أعاد-وأعجاز جمع عجز ، وهو ما بعد الظهر منه، أي أعاد علي أواخره-وناء بكلكل: أي نهض بصدره.
[4] ألا انجل: أي انكشف- فيك يروى منك.
[5] المغار: شديد الفتل- ويذبل اسم جبل.
[6] المصدر السابق: ص 82- 86.
[7] وكناتها: الواحدة وكنة، وهو العش- المنجرد: الفرس القصير الشعر-الأوابد: الوحوش النافرة-والهيكل: الضخم من كل شيء
[8] مكر مفر : سريع الكر والفر-والجلمود: الصخرة الملساء التي ليست بكبيرة-

إنّه يبكّر للصيد على فرس أصيل مدرّب على الكرّ والفرّ، وعلى الإقبال والإدبار، وهي حركات-على تضادها-تدل على إحسانه المناورة لإدراك صيده، وتقييد حركاته في قوة وسرعة الصخر الصلب يدفعه السيل من مكان عال. وهذه السرعة العجيبة في حصانه ناجمة من صفاته الجسمية الفريدة، فقد أخذ من الغزال ضمور خاصرتيه، ومن النعامة طول ساقيها وصلابتهما، ومن الذئب سرعة جريه وسهولته، ومن ولد الثعلب حسن تقريبه، على سبيل تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء.

ولعل امرأ القيس حين يصف قوة فرسه وتناسق أعضائه وقيده للأوابد، إنما يعبر عن قدرته هو على أسر قلوب النساء اللائي عرفهن، واستمتاعه بهن على الرغم من الحرس والرقباء؛ فقوة الفرس ومضاء السيف امتداد لمهارة الفارس وفروسيته عند العرب.

وقد يخطئ من يتصور امرأ القيس ذا شخصية سلبية منفصلة عن الواقع، لا همّ لها إلا إشباع نهمها إلى الخمر والنساء والصيد، وإلا كيف نفسر نهوضه بقية حياته للأخذ بثأر أبيه وهو أصغر إخوته[1] ؟

إنّ لامرئ القيس فلسفته الخاصة في الحياة، يعرضها علينا في هذه الأبيات من قصيدة له، يقول:[2]

قَلَـــوْ أَنَّ ما أَسْعَـــى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، ولَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ المَالِ[3]

ولَكِنَّمَـــا أَسْعَـــى لِمَجْـدٍ مُؤَثَّـــلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ المَجْـدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالِـــي[4]

ومَـــا المَرْءُ مَا دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ بِمُدْرِكِ أَطْرَافِ الْخُطُوبِ ولا آلِـــي[5]

فمن طبع شاعرنا وشخصيته أن يصل بكل أمر إلى الغاية التي ما بعدها غاية، يبذل في ذلك أقصى ما يستطيع غير مقصّر ولا مُتَوَانٍ؛ فهو يصل بصوره الشعرية ومعانيه إلى الحد الذي يكون به إماما لمن جاء بعده من الشعراء، ويبلغ به الشغف بالحسان إلى حد

---

[1] مصطفى الغلاييني: رجال المعلقات العشر، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط.1990، ص 70.

[2] المصدر السابق: ص 122- 123

ومطلع قصيدته:

أَلاَ عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي وهَلْ يَعِمَّنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الخَالِي؟

[3] ولم أطلب الملك.

[4] المؤثل: المثمر الذي له أصل، وهو الكثير أيضا.

[5] حشاشة النفس: بقيّتها وحياتها، يقول: الإنسان ما دام حيا، فإنه لا يدرك أواخر الأمور، ولا ينال غايات الآمال، ولا يتأتى له كل ما يريد، وهون مع ذلك لا يألو أي لا يترك جهده في الطلب .

اقتحام قبائلهن غير مبال بالحرس ولا بالزوج الغيور من أجل إشباع لذته. ثم إنه يطلب ثأر أبيه الملك القتيل، فلا يكفيه من قتل من بني أسد بمساعدة قومه من العرب، بل يقصد قيصر الروم علّه يعينه على استئصال شأفة أعدائه[1].

ونمضي إلى الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي المتوفى سنة 555م، معاصر امرئ القيس ونديم أبيه الملك حجر بن الحارث الكندي،[2] ثم غريمه بعد مقتله. وقد قيل إن عبيدا كان من المعمرين، وعاش أكثر من مائتي سنة،[3] وحلب أشطر الدهر، وشهد من الحوادث العظام ما يشيب له الولدان، لذا يلاحظ القارئ لمعلقته بروز الروح التعليمية فيها بما تخللها من حكمة وموعظة منذ مطلعها الطللي، يقول:[4]

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبُ ... فالقُطَّبِيَّاتُ فالذَّنُوبُ[5]

إِنْ بُدِّلَتْ أَهْلُهَا وُحُوشًا ... وغَيَّرَتْ حَالَهَا الخُطُوبُ

أَرْضٌ تَوَارَثَهَا شَعُوبُ ... وكُلُّ مَنْ حَلَّهَا مَحْرُوبُ[6]

إِمَّا قَتِيلاً، وإِمَّا هَالِكًا ... والشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ[7]

يذكر الشاعر كثيرا من الأمكنة كانت عامرة مأنوسة بأهلها، واليوم صارت قفرا منهم لما انتابها من حوادث الدهر، فأضحت مرتعا للوحوش تجوب أرجاءها. وليس ذلك عجيبا في أرض ملكها الموت وتوارثها، فلا أمن فيها للإنسان على ماله ولا على حياته؛ فهو إما أن يُقتَلَ أو يهلك، أو يُعَمَّرَ فيبلغ أرذل العمر، فيعيش عالة على غيره في بيئة قاسية لا مكان فيها للضعيف. لذا، لا يملك الشاعر الشيخ إلا دموعه يُعزّي بها شبابا ولى، فهو يتوق إليه، ولكن هيهات أن يعود بعدما ران عليه الشيب! يقول:[8]

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبُ ... كَأَنَّ شَأْنَيْهِمَا شَعِيبُ[9]

---

[1] الشعر والشعراء: ص 61- 62.
[2] رجال المعلقات العشر: ص 305.
[3] المرجع نفسه: ص 303.
[4] عبيد بن الأبرص: شرح ديوان عبيد بن الأبرص، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط.1979،ص 23- 24
[5] ملحوب: اسم ماء لبني أسد- القطبيات: جبل- الذنوب: موضع في ديار بني أسد.
[6] شعوب: المنية- المحروب: مفعول من حربه سلبه ماله ولم يترك له شيئا.
[7] والشيب شين: أي أنه يجمل بالرجل أن يقتل أو يهلك قبل أن يشيب لأن الشيب عيب في نظرهم.
[8] المصدر السابق: ص 24- 26

[9] سروب: فعول من سرب الماء إذا جرى-الشأنان: عرقان في الرأس يجري منهما الدمع إلى العين-الشعيب: القربة الخلقة.

تَصْبُـــو، فَأَنَّـــى لكَ التَّصَـــابِـــي ... أَنَّـــى، وقَدْ رَاعَـــكَ المَشِيـــبُ[1]

وَكُـــلُّ ذِي غَيْبَـــةٍ يَـــؤُوبُ ... وغَـــائِبُ المَـــوْتِ لا يَـــؤُوبُ[2]

أَعَـــاقِـــرٌ مِثْلَ ذَاتِ رِحْـــمٍ؟ ... أَوْ غَـــانِـــمٌ مِثْلَ مَنْ يَخِيـــبُ؟ [3]

لقد توارى شباب الشاعر إلى غير رجعة، أماتته شيخوخة طويلة مضاعفة فصار سرابا. إن عبيدا يبكي شبابا بعيدا عنه الآن، يوم كان خصبا، قويا، قادرا على الكسب والعطاء. لكن ما فائدة الكد والسعي للعاقل اللبيب أمام عبثية الحياة وغدر الزمان؟! يقول:[4]

أَقْلِحْ بِمَـــا شِئْتَ، فَقَدْ يُبْلَـــغُ بِالْـــ ... ـــضَّعْـــفِ، وقد يُخْدَعُ الأَرِيـــبُ[5]

إِلاَّ سَجِيَّـــاتِ ما القُلُـــوبِ ... وكَمْ يَصِيـــرَنَّ شَانِئًـــا حَبِيـــبُ[6]

سَاعِـــدٌ بِأَرْضٍ إذا كُنْتَ بِـــهَـــا ... ولا تَقُـــلْ: إِنَّنِـــي غَرِيـــبُ

قَدْ يُوصَـــلُ النَّـــازِحُ النَّائِـــي وَقَدْ ... يُقْطَـــعُ ذو السُّهْمَـــةِ القَرِيـــبُ[7]

فما أشد تناقضات الحياة! وما أكثر تقلبات نفوس البشر، وتعايشها مع الأضداد! فقد ينال فيهم الضعيف بضعفه مالا يناله القوي بقوته. وقد تتقلب عواطفهم، فيصير الحبيب مبغضا، والمبغض حبيبا، ويبيت الغريب المخالط لهم موصولا مقربا، والقريب النسب معقوقا مهجورا؛ لذا فاللبيب هو من لا يتعب نفسه، ولا يحرص على شيء في هذه الحياة، بل يأخذها كما جاءت، حتى يحياها مطمئن البال بعيدا عن القلق والهمّ.

وننتقل من الشاعر الشيخ إلى الشاعر الشاب طرفة بن العبد البكري المتوفى سنة 565م، الذي بلغ في الست والعشرين سنة التي عاشها طولا وعرضا، قبل أن يقتله مَهجُوُّهُ عمرو بن هند ملك الحيرة، ما لم يبلغه غيره في طول أعمارهم. ولقد ذاق طرفة-وهو صغير-مرارة اليتم وجور أعمامه على حق أمه وردة وأبنائها في مال أبيهم.[8] ومعلقته

---

[1]-تصبو: تميل إلى الصبوة، وهي جملة الفتوة-أنى لك هذا بعدما قد صرت شيخا؟ راعك: أفزعك.

[2]-يؤوب: يرجع.

[3]-أراد بالعاقر: المرأة التي لا تلد-وبذات الرحم: الولود.

[4]-المصدر السابق: ص 26.

[5]-أفلح بما شئت: أي عش به-الأريب: العاقل.

[6]-السجيات: الواحدة سجية: الطبيعة والخلق-الشانئ: المبغض.

[7]-النازح والنائي: واحد، وهو البعيد النسب والدار-يقطع: يعق-السهمة: القسمة، النصيب.

[8]-الشعر والشعراء: ص 109.

صورة واضحة لشخصيته ومسلكه في الحياة، فهو ميال إلى اللهو وإتلاف ماله في الاستمتاع بالخمر والنساء، وبذل نفسه في سبيل قبيلته. وقد بدأ طرفة معلقته بداية تقليدية غزلية بالوقوف على الأطلال وهيجان ذكرى محبوبته خولة التي درست آثار ديارها، قال:[1]

لِخَوْلَـــةَ أَطْـــلالٌ بِبُـــرْقَةِ ثَهْمَـــدِ تَلُوحُ كَبَاقِـــي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ[2]

وُقُوفـًا بِهـــا صَحْبِـــي عَلَيَّ مَطِيَّهُـــمْ يَقُولُونَ: لا تَهْلِكْ أَسًـــــى وتَجَلَّدِ[3]

ثم انتقل إلى وصف ناقته النشيطة عُدّته في السفر إذا ألمّ به الهمّ، قال:[4]

وَإِنِّـــي لأُمْضِي الهَمَّ، عِندَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَـــاءَ مِرْقَـــالٍ تَرُوحُ وتَغْتَدِي[5]

إنها ناقة قوية سريعة تصل سير الليل بسير النهار لتسلّيه عن همومه، ففي الأسفار سلوى وتجدّد، لكن طرفة وفي لقبيلته، يغادرها طوعا أو كرها، ثم يعود إليها ليكون في خدمتها والمبادر إلى الدفاع عنها، يقول:[6]

إذا الْقَوْمُ قَالُـــوا مَنْ فَتًى؟ خِلْتُ أَنَّنِي عُنِيتُ، فَلَمْ أَكْسَـــلْ ولَمْ أَتَبَلَّـــدِ

فَإِنْ تَبْغِنِـــي في حَلْقَةِ القَـــوْمِ تَلْقَنِـــي وَإِنْ تَقْتَنِصْنِي في الحَوَانِيتِ تَصْطَدِ[7]

إنّ في بيته الأخير دلالة فريدة على قوّة شعور العربيّ بالانتماء إلى القبيلة. فمتى نادى المنادي، قال له: لبّيك! غير متثاقل ولا متماطل، في السّلم وفي الحرب، في جدّه وفي هزله. فشاعرنا الشّاب لا يرى تناقضا في حياته، فهو لا يجد صعوبة في التّوفيق بين مجلس الجدّ والوقار في حلقة القوم، ومجلس الهزل والعبث في حوانيت الخمر، ينفق ماله على صحبه في شرب الخمر غير مُبْقٍ على مال حديث مكتسب ولا مال قديم موروث، حتّى حكمت عليه قبيلته بالعزلة متّهمة إيّاه بالفساد والتّبذير، فتجنّبه قومه تجنّب البعيـــــر

---

[1] طرفة بن العبد: ديوان طرفة بن العبد، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979، ص 19.

[2] خولة : اسم امرأة كلبية-الطلل: ما شخص من رسوم الدار، والجمع أطلال وطلول-البرقة والأبرق والبرقاء: مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى، والجمع الأبارق والبراق والبرق-ثهمد: موضع -تلوح: تلمع-الوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بإبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج.

[3] وقوفا: أي في حال وقف أصحابي مطيهم علي-التجلد: تكلف الجلادة وهو التصبر.

[4] المصدر نفسه: ص 22.

[5] الاحتضار: الحضور-العوجاء: الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها-المرقال: مبالغة مرقل من الإرقال: وهو بين السير والعدو.

[6] المصدر نفسه: ص29- 30.

[7] البغاء: الطلب، والفعل بغى يبغي- الحانوت: بيت الخمّار- الاصطياد: الاقتناص.

الأجرب المطليّ بالقطران، يقول[1]:

ومَـــازَالَ تَشْرَابِـــي الخُمُورَ ولَذَّتِـــي ... وبَيْعِـــي وإِنْفَاقِـــي طَرِيفِي ومُتْلَـــدِي[2]

إلى أَنْ تَحَامَتْنِـــي العَشِيـــرَةُ كُلُّهَـــا ... وأُفْرِدْتُ إِفْـــرَادَ البَعِيـــرِ المُعَبَّدِ[3]

رَأَيْتُ بَنِـــي الغَبْـــرَاءِ لا يُنْكِرُونَنِـــي ... ولا أَهْـــلُ هَـــذَاكَ الطِّـــرَافِ المُمَدَّدِ[4]

فإن هجره قومه الأقارب فقد وجد عزاء في صلة الأباعد من أهل الأرض فقرائهم وأغنيائهم، فهؤلاء لا ينكرون إحسانه إليهم، وأولئك يستمتعون بصحبته ومنادمته. لذا، فهو مقتنع بالقيم التي اعتنقها في حياته مادام الموت غاية كلّ حيّ، ولا مطمع في الخلود؛ فهو يحيا في وفاق مع نفسه، لأنه قادر على الجمع بين السّماحة في بذل نفسه في الحرب وبين السّماحة في بذل ماله في شرب الخمر، غير مُبَالٍ بكثرة اللائمين، يقول[5]:

أَلاَ أَيُّهَـــذَا اللاَّئِمِـــي أَحْضُرَ الوَغَى ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ، هل أَنْتَ مُخْلِـدِي ؟[6]

فإِنْ كُنْتَ لا تَسْطِيـــــعُ دَفْـــعَ مَنِيَّتِـــي ... فَدَعْنِـــي أُبَادِرْهَـــا بما مَلَّكَتْ يَـــدِي[7]

فمادام الخلود مستحيلا، والموت محتوما، فلا معنى لحرمان النّفس من التّمتّع باللذّات بخلا بالمال. فغاية كلّ كريم أن يشبع من الحياة حتّى الارتواء بإنفاق كلّ ما يملكه، قبـــل أن يفجأه الموت، يقول[8]:

كَرِيـــــمٌ يُرَوِّي نَفْسَـــهُ في حَيَـــاتِـــهِ ... سَتَعْلَمُ، إِنْ مُتْنَـــا غَدًا، أَيُّنَا الصَّـــدِي[9]

أَرَى قَبْـــرَ نَحَّـــامٍ بَخِيـــلٍ بمَالِـــــهِ ... كَقَبْـــرِ غَـــوِيٍّ فـــي البِطَالَـــةِ مُفْسِـــدِ[10]

تَرَى جُثْـــوَتَيْـــنِ مِن تُـــرَابٍ عَلَيْهِمَـــا ... صَفَائِـــحُ صُمٌّ مِن صَفِيـــحٍ مُنَضَّدِ[11]

أَرَى المَوْتَ يَعْتَـــامُ الكِـــرَامَ ويَصْطَفِـــي ... عَقِيلَـــةَ مَـــالِ الفَـــاحِـــشِ المُتَشَدِّدِ[12]

---

[1] - المصدر السابق: ص31.
[2] - التشراب: الشّرب- الطّريف والطّارف: المال الحديث- التّليد والتّلاد والمتلد: المال القديم الموروث.
[3] - التحامي: التّجنّب والاعتزال- البعير المعبّد: المذلّل المطليّ بالقطران، والبعير يستلذّ ذلك فيذلّ له.
[4] - الغبراء: صفة الأرض جعلت كالاسم لها- الطّراف: البيت من الأدم، والجمع الطّروف، وكنّى بتمديده على عظمه.
[5] - المصدر السابق: ص32.
[6] - الوغى: أصله صوت الأبطال، ثمّ جعل اسما للحرب- الخلود: البقاء، والفعل خلد يخلد، والإخلاد والتّخليد: الإبقاء.
[7] - اسطاع يسطيع: لغة في استطاع.
[8] - المصدر السابق: ص33-34.
[9] - الصّدي: العطشان.
[10] - النّحّام: الحريص على الجمع والمنع- الغويّ: الغاوي الضّالّ، والغيّ والغواية: الضّلالة، وقد غوى يغوي.
[11] - الجثوة: الكومة من التراب وغيره، والجمع الجثى- التّنضيد: مبالغة التّضد.
[12] - الاعتيام: الاختيار- العقائل: كرائم المال والنساء، الواحدة عقيلة- الفاحش: البخيل.

أَرى العَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ ... وما تَنْقُصِ الأَيَّامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ[1]

لَعَمْرُكَ إنّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بِاليَدِ[2]

إنّ طرفة ينطلق من عقيدته عن الموت ليستهين بمال وحياة يوقرهما الحرص والجبن. لذا، فهو يعرض في مقابلة ساخرة- ولكنّها سخرية مريرة- تعامل الموت مع رجلين – الجواد والبخيل- أرادا أن يكونا في الحياة نقيضين، إلا أنّ مصيرهما واحد: قبر وسط قبور، تُهال عليهما فيه كومتان من تراب، فوقهما حجارة عراض منضّدة؛ يستوي في ذلك قبر بخيل حريص بقبر مبذّر متلاف، لأنّ الموت يختار من الكرام ومن البخلاء دون تمييز. والحياة كنز ينفد بالنّقصان كلّما نقصت الأيّام، فإن مدّ في عمر المرء، فما أخطأه الموت، وإنّما أرخى له حبل الحياة ليقبضه أنّى شاء، لذا اختار طرفة أن يموت رَيَّانَ مُتعة لا ظمآنَ.

وهذا الأسلوب في الحياة تصاحبه أخلاق سمحة، فشاعرنا لا يحمل الحقد لأحد، حتّى أعمامه الذين لم يرحموا يتمه، فأكلوا حقه وحقوق أمّه وإخوته في مال أبيهم، ثمّ نبذوه شاباً بدعوى عبثه وتبذيره. فهاهو يستنجد بابن عمّه مالك لعلّه يعينه على استرداد إبل أخيه معبد التي ضاعت منه، فلا يحظى منه إلا باللوم والتقريع، يقول[3]:

فَمَالِي أَرَانِي وابنُ عَمِّيَ مَالِكًا ... مَتَى أَدْنُ مِنْهُ يَنْأَ عَنِّي ويَبْعُدِ؟[4]

يَلُومُ وما أَدْرِي عَلامَ يَلُومُنِي ... كَمَا لامَنِي في الحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبَدِ

وأَيْأَسَنِي مِن كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ ... كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إلى رَمْسِ مُلْحِدِ[5]

على غَيْرِ ذَنْبٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي ... نَشَدْتُ- فلم أُغْفَلْ- حَمُولَةَ مَعْبَدِ[6]

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً ... على المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[7]

---

[1] - النّفاد والنّفود: الفناء، والفعل نفد ينفد، والإنفاد والإفناء.

[2] - الطّول: الحبل الذي يطول للدّابّة فترعى فيه- الإرخاء: الإرسال- الثّني : الطّرف، والجمع الأثناء.

[3] - المصدر السابق: ص34-36.

[4] - النّأي والبعد واحد، فجمع بينهما للتّأكيد وإثبات القافية.

[5] - الرّمس: القبر وأصله الدّفن- ألحدت الرّجل: جعلت له لحدا.

[6] - النّشدان: طلب المفقود- الإغفال: التّرك - الحمولة: الإبل التي تطيق أن يحمل عليها- معبد: أخوه.

[7] - مضتّي الأمر وأمضتّي: بلغ من قلبي، وأثر في نفسي تهييج الحزن والغضب- الحسام المهنّد: السّيف القاطع المحدّد أو المطبوع بالهند- الحسام:فعال من الحسم وهو القطع.

إنّ أخلاق طرفة تمنعه من أن يتحوّل إلى خليع[1] أو صعلوك[2] يجمع شذّاذ الآفاق لينتقم من أعمامه الذين أكلوا حقه، ومن قومه الذين نبذوه، وإنّما يريد أن يكون فردا من القبيلة ينصرها وتنصره في السّرّاء والضّرّاء، لذا فقد آلمه أن يلين جانبه لابن عمّه مالك، فيتقرّب منه، فلا يزداد قريبه هذا إلا بعدا عنه، ولوما له على غير ذنب اقترفه، فكأنّه يسأل ميّتا خيرا. فصرخ شاعرنا صرخته المريرة التي تناقلتها الأجيال، متبرّما من ظلم الأقرباء الذي هو أمضّ من ضربة بسيف بتّار. ولكنّ طرفة يأبى لنفسه الهوان، وإن كان من أقربائه أو من بني قومه، مادام يملك ذهنا متوقدا، وهمّة عالية، ولسانا حادّا، وسيفا قاطعا، فيمضي مفتخرا بنفسه، مذكّرا بمناقبه، يقول[3]:

أَنَـــا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الّذي تَعْرِفُونَـــهُ ... خَشَـــاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّـــةِ المُتَوَقِّدِ[4]

فَآلَيْـتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحِـــي بِطَـانَـــةً ... لِعَضْبٍ رَقِيـــقِ الشَّفْرَتَيْـــنِ مُهَنَّدِ[5]

حُسَـــامٍ، إذَا قُمْتُ مُنْتَصِـــرًا بِـــهِ ... كَفَـــى العَوْدَ مِنْهُ البَدْءُ، لَيْسَ بِمِعْضَدِ[6]

لَعَمْـــرُكَ، مـــا أَمْرِي عَلَـــيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَـــارِي، ولا لَيْـــلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[7]

سَتُبْـــدِي لَكَ الأَيَّـــامُ ما كُنْتَ جَاهِلاً ... وَيَأْتِيـــكَ بِالأَخْبَـــارِ مَنْ لَمْ تُـــزَوِّدِ

فحين لم تنفع الملاينة مع ابن عمّه غيّر من لهجته، وبدا حازما ماضي العزيمة، سريعا إلى اقتحام الأمور، وهو متمنطق بسيف قاطع من ضربته الأولى، ادّخره لأعدائه. وهذه العزيمة الفولاذيّة إعانته على تجلية همومه، حتّى لا ترين عليه بياض نهاره وسواد ليله؛ فهو لا يتشكّى- مثل امرئ القيس- من طول ليله ومشابهته لنهاره. وإنّ الأيّام لكفيلة بالكشف عن شمائله، وإعادة الاعتبار له حتّى يحوز مكانته اللائقة في قومه.

وقد يبدو لنا، من خلال البيت السّابق الذي صار حكمة سائرة على كلّ لسان، أنّ طرفة كان يثق بإنصاف الأيّام له، ولكنّ هاجس الموت ظلّ يلاحقه باستمرار، ويتربّص به

---

[1] - الخليع: الرّجل يجني الجنايات يؤخذ بها أولياؤه، فيتبرّاون منه ومن جنايته، ويقولون: إنّا خلعنا فلانا، فلا نأخذ أحدا بجناية تجنى عليه، ولا نؤاخذ بجناياته التي يجنيها. (ينظر لسان العرب 8: ص77).

[2] - الصّعلوك: الفقير الذي لا مال له، ولا اعتماد...والتصعلك: الفقر. وصعاليك العرب: ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمّى: عروة الصّعاليك لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة، فيرزقهم ممّا يغنمه. (ينظر لسان العرب 10: ص456).

[3] - المصدر السابق: ص37-41.

[4] - الضّرب: الرّجل الخفيف اللّحم- خشاش: دخّال في الأمور بخفّة وسرعة.

[5] - لا ينفكّ: لا يزال- البطانة: نقيض الظّهارة- العضب: السّيف القاطع- شفرتا السّيف: حدّاه، والجمع الشّفرات والشّفار.

[6] - الانتصار: الانتقام- المعضد: سيف يقطع به الشّجر، والعضد قطع الشّجر والفعل عضد يعضد.

[7] - الغمّة والغمّ واحد، وأصل الغمّ التّغطية، والفعل غمّ يغمّ- ليل سرمد: ليل دائم.

الدّوائر، وبخاصّة حين اتّصل بملك الحيرة عمرو بن هند طالبا المجد عنده، فنادمه زمنا، ثم هجاه، فأمر عامله على البحرين بقتله[1]، وبذلك صدقت نبوءة شاعرنا بموته في ثنايا معلّقته، حين أوصى ابنة أخيه معبد بأن تنعاه بما هو أهل له من فضل ومكانة، وتشقّ جيبها هلعا وحزنا على فقده، في قوله[2]:

فَإِنْ مُتُّ فَانْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ ... وشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدِ[3]

وقد رثته أخته الخرنق الشّاعرة بقولها[4]:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا[5]

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حِينٍ، لا وَلِيداً ولا قَحْمَا[6]

ومن شاعر قبيلة بكر بن وائل طرفة بن العبد إلى شاعر أختها وغريمتها قبيلة تغلب ابن وائل، وفارسها وسيّدها عمرو بن كلثوم المتوفّى سنة 600م، الذي ولد في بيت عزّ وشرف؛ فأمّه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة الشّاعر، وعمّها كليب وائل أعزّ العرب، وأبوه كلثوم بن مالك فارس العرب[7]، وقبيلته تغلب كانت من أشدّ النّاس في الجاهلية حتّى قيل: إنّه لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب النّاس[8]. وقد ساد عمرو بن كلثوم قومه وهو ابن خمسة عشر عاما، وعمّر طويلا حتّى مات وعمره خمسون ومائة سنة[9]، لذا فلا عجب أن يكون معتدّا بنفسه، شديد الفخر بمناقب قومه، ليس لجرأته حدّ. وهي جرأة بدأت فنّيّة بخروج شاعرنا عن التّقاليد المألوفة في بدء قصائد الشّعر الجاهلي بالوقوف على الأطلال وتذكّر الأحبّة، فاستعاض عن تلك الذّكرى بتذكّر أيّام شربه وأماكنها بالشّام في مطلع معلّقته، قال[10]:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِينَا ... ولاَ تُبْقِي خُمُورَ الأَنْدَرِينَا[11]

---

[1] - الشّعر والشّعراء: ص111.
[2] - المصدر السّابق: ص39.
[3] - النّعي: إشاعة خبر الموت، والفعل نعى ينعى- أهله: مستحقه.
[4] - المصدر السّابق: ص10.
[5] - الحجّة: السّنة، جمعها حجج- توقاها: أتمّها- ضخما: عظيما.
[6] - فجعنا به: فقدناه- القحم: الطّاعن في السّنّ، وأرادت إيابه من البحرين لا صغيرا ولا مسنا كبيرا.
[7] - الشّعر والشّعراء: ص141.
[8] - رجال المعلّقات العشر: ص195.
[9] - المرجع نفسه: ص191.
[10] - عمرو بن كلثوم: شرح ديوان عمرو بن كلثوم، عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربيّ، حلب- سورية، ط1، 1999، ص77.
[11] - هبّي: انهضي وقومي- الصّحن: القدح العظيم- اصبَحينا: اسقينا خمرة الصّباح وهي الصّبوح، ويقابلها الغبوق وهي خمرة المساء- الأندرين: قرية في جنوبي حلب.

تَجُـــورُ بِـذِي اللُّبَـــانَةِ عَنْ هَـــوَاهُ إِذا مـــا ذَاقَهَـــا حَتَّى يَلِينَـــا[1]

تَرَى اللَّحِـــزَ الشَّحِيـــحَ إذا أُمِرَّتْ عَلَيْـــهِ لِمَالِـــهِ فِيهَـــا مُهِينَـــا[2]

وإِنَّـــا سوْفَ تُدْرِكُنَـــا المَنَـــايَا مُقَدَّرَةً لَنَـــا ومُقَدِّرِينَـــا[3]

إنّها دعوة صريحة إلى شرب خمرة شامية مخصوصة من قرية الأندرين، تسلّي المهموم عن همومه وتُنسي المحتاج حوائجه، بل تستبيح مال البخيل الحريص، فلا يقاوم سلطانها. ولمَ البخل بالمال وحرمان النّفس من اغتنام اللّذّات، مادمنا على لقاء محتوم مع الموت، فهو يطلبنا ونحن نطلبه؟.

فكأنّ عمر بن كلثوم حين اختار تلك المقدّمة الخمريّة، كان يبحث عن حالة من الهذيان لا توفّرها له إلا تلك الخمرة الشّامية ليقول ما يشاء؛ فلا يتورّع عن وصف مفاتن تلك المرأة التي ذكرها في قصيدته، ولا يتوانى في قذف حممه في وجه ذلك الملك الجبّار عمرو بن هند دفاعا عن قضية قبيلته تغلب في خلافها الجديد مع غريمتها بكر بن وائل بعد انتهاء حرب البسوس[4]، وذلك بسبب هلاك جماعة من التغلبيين، واتّهام البكريّين بالإيقاع بهم[5]، يقول[6]:

أَبَـــا هِنْـــدٍ، فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْنَـــا وأَنْظِرْنَـــا نُخَبِّـــرْكَ اليَقِينَـــا[7]

بِأَنَّـــا نُـــورِدُ الرَّايَـــاتِ بِيضًا ونُصْدِرُهُـــنَّ حُمْـــرًا قَدْ رَوِينَـــا[8]

وأَيَّـــامٍ لَنَـــا غُـــرٍّ طِـــوَالٍ عَصَيْنَـــا المَلْكَ فِيهَـــا أَنْ نَدِينَـــا[9]

---

[1] - ذو اللبانة: ذو الرغبة أو الحاجة- هواه: مقصده.

[2] - اللّحز: شديد البخل.- أمرّت عليه: قدّمت له.

[3] - المنايا: جمع منيّة وهي الموت- مقدّرة لنا: تصيبنا في وقتها.

[4] - حرب البسوس: جرت بين بكر وتغلب ابني وائل إثر مقتل كليب بن وائل بن ربيعة على يد جسّاس أخي زوجته جليلة، وكان كليب قد بلغ مرتبة الملوك، واستبدّ بالناس حتى جعل معظم الأرض من حماه، وقد قتل ناقة اسمها سراب لرجل نزل ضيفا على البسوس خالة جسّاس الذي رأى في قتل كليب محوا للعار. وقد قاد هذه الحرب التي استمرّت أربعين سنة الفارس الشّاعر مهلهل عديّ بن ربيعة. وقيل إنّ المنذر والد عمرو بن هند هو الذي أصلح بين الفريقين. (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام لسعد زغلول عبد الحميد: ص314-315)

[5] - بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار نظير عبّود، بيروت (لبنان)، ط. 1989، ج1، ص152.

[6] - ديوانه: ص78-79.

[7] - أبو هند: عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو عمرو بن المنذر الأكبر بن النّعمان الأكبر بن امرئ القيس ويلقب بالمحرّق.

[8] - نورد الرايات نهجم بالأعلام- نصدرهنّ: نرندّ بهنّ- روين: اكتفين من الارتواء بالدم.

[9] - وأيّام: ربّ أيّام وما أكثرها- غرّ: بيضاء ماجدة مشهورة، والمراد هنا أيّام الوقائع والحروب- أن ندين: أن نخضع ونستذلّ.

تَرَكْنَـــــا الخَيْـــلَ عَـــاكِفَةً عَلَيْهِ مُقَلَّـدَةً أَعِنَّتَـهَـــا صُفُـــونَـــا[1]

يِفِئْيَـــانٍ يَرَوْنَ القَتْـــلَ مَجْـــدًا وشِيبٍ فِي الحُـــرُوبِ مُجَرَّبِيـنَـــا[2]

فيا لها من جرأة على ملك طاغية كعمرو بن هند! إن الشاعر الفارس السيد يُلمح إلى أنه لا يعترف بسلطان ملك الحيرة على قومه؛ فليس من عادتهم أن ينصاعوا للملوك. وهاهي أيّامهم الشهيرة تشهد على قتلهم ملكا وُلّي عليهم، ووقوف خيلهم اختيالا عند رأسه؛ فهذا دَيْدَنُهُم منذ القدم، يخرجون إلى الحروب برايات بيض ناصعة، ويرجعون بها حمرا قد ارتوت من دماء الأعداء.

إن الحرب في قبيلة تغلب باتت أسلوب حياة من أجل تحقيق البقاء، وسُلّما إلى المجد. فهي عقيدة يعتنقها أفرادها صغارا وكبارا، وهم ينتصرون على أعدائهم بعزيمة شبابهم وخبرة شيوخهم. وهذه القوة المتجذّرة المتجددة لا يعاديها إلا جاهل يسرع إلى حتفه، يقول محذرا:[3]

أَلاَ لا يَجْهَلَـــــنْ أَحَـــدٌ عَلَيْنَـــا فَنَجْهَـــلَ فوْقَ جَهْـلِ الجَاهِلِينَـــا[4]

بِأَيِّ مَشِيئَـــةٍ عَمْـــرُو بْنَ هِنْـــدٍ تُطِيعُ بِنَـــا الوُشَاةَ وتَزْدَرِينَـــا؟[5]

تَهَدَّدْنَـــا وأَوعِدْنَـــا، رُوَيْـدًا متى كُنَّـــا لأُمِّكَ مَقْتَوِيـنَـــا؟[6]

فَإِنَّ قَنَاتَنَـــا، يـــا عَمْـرُو، أَعْيَتْ على الأَعْـــدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَـــا[7]

وَرِثْنَـــا مَجْدَ عَلْقَمَـــةَ بْـــنِ سَيْفٍ أَبَـــاحَ لَنَـــا حُصُونَ المَجْدِ دِينَا[8]

إنهم يمثّلون الجاهلية الجهلاء أصدق تمثيل، فلا مكان للعفو والصفح الجميـــل، بل يردّون الجهل بجهل أجهل منه، والظلم بظلم أمرّ منه، فكيف جرؤ عمرو بن هند على احتقارهم والطمع فيهم إرضاء للوشاة؟ إنهم لم يكونوا يوما خدما له أو لأمه، ولا كانوا لقمة

---

[1] - عاكفة عليه: ملازمة له بهجومها- مقلدة أعنتها: تطوّقها أعنتها- صفون: جمع صافن وصافنة، وهي الفرس تقوم على ثلاث قوائم، وتثني الرابعة وقت الهجوم.

[2] - الشّيب: الشّيوخ ذوو الشّيب في رؤوسهم.

[3] - المصدر السّابق: 79- 80.

[4] - لا يجهلن: لا: هنا، ناهية- يجهل: يسفه ويعتدي.

[5] - الوشاة: جمع الواشي وهو الساعي بالشر- تزدرينا: تحتقرنا.

[6] - أوعد: تهدد بسوء العاقبة- رويدا: مهلا، أراد بها التهديد بلقاء جزاء سيء - المقتوي: الخادم .

[7] - القناة: العصا، وأراد بها السلاح والقوة بيد صاحبها- أعيت: أعجزت وامتنعت- أعيت القناة أن تلين: كناية عن التماسك والقوة التي لا تجرب

[8] - علقمة بن سيف: من أجداد بني تغلب، قادهم حتى خلص بهم الجزيرة التي أضحت موطنهم- دينا: دائنة بالطاعة.

سائغة للأعداء، منذ سلفهم الأمجد علقمة بن سيف الذي أورثهم مجدا تمتد جذوره عبر الزمن، وتُطاول هامته عنان السماء. إن شاعرنا ينحدر من سلالة أماجد، لذا فقد ترسخت فيهم تقاليد المجد والكرم والشرف، مما تعلمه القبائل من أحلافهم ومن أعدائهم، وقومه يحسنُون تجاوز التناقض في سلوكهم مع هؤلاء وأولئك، حفاظا على تلك التقاليد الموروثة أبًا عن جدّ، يقول:[1]

وقَدْ عَلِمَ القَبَائِلُ مِنْ مَعَدٍّ ... إذا قُبَبٌ بِأَبْطَحِهَا بُنِينَا[2]

بِأَنَّا المُطْعِمُونَ إذا قَدَرْنَا ... وأَنَّا المُهْلِكُونَ إذا ابْتُلِينَا[3]

وأَنَّا التَّارِكُونَ إذا سَخِطْنَا ... وأَنَّا الآخِذُونَ إذا رَضِينَا[4]

وأَنَّا العَاصِمُونَ إذا أُطِعْنَا ... وأَنَّا العَازِمُونَ إذا عُصِينَا[5]

ونَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْوًا ... ويَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدَرًا وطِينَا[6]

فهذه الأنا المتفاخرة المتضخّمة التي تقرع آذاننا في تأكيد وإلحاح، تملك القدرة على التوفيق بين إكرام الضيفان وإحيائهم وبين قتال الأعداء وإهلاكهم، وتملك-أيضا-الحرية كاملة في ترك ما يغضبها وفعل ما يرضيها، فلا معارض لمشيئتها؛ فمن أطاعها سلم وغنم، ومن عصاها كُلِمَ وندم. فلا غرو أن تحظى قبيلة تغلب-إذا حلّ السلام- من العيش بأفضله وأصفاه، فلمالك القوة والجبروت امتيازات، منها الاستقلال بمورد الماء قبل الآخرين، وشرب الماء صفوا، وتركه مكدرا للضعفاء والمسحوقين الذين تعوّدوا الخضوع للملوك، وسفح ماء وجوههم عند أعتابهم، يقول:[7]

إذا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ... أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا[8]

مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا ... ونَحْنُ البَحْرُ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا

إِذا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا وَلِيدٌ ... تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِينَا[9]

---

[1] المصدر السابق: ص 82.
[2] من معدّ: المنسوبون إلى معد بن عدنان- القبب: أراد بها البيوت ذوات العمد .
[3] المهلكون: القاتلون- ابتلينا: جربنا من قبل أعدائنا.
[4] سخطنا: كرهنا.
[5] العاصمون: الحامون- العازمون: الأشداء.
[6] صفوا: صافيا، خاليا من الكدر.
[7] المصدر السابق: ص 82.
[8] سام الناس: بدأهم وأرادهم- خسفا: ظلما ومهانة.
[9] وليد: صبي- تخر: تهوي على الأذقان.

يضعنا عمرو بن كلثوم أمام جملة من الأضداد المتصارعة: (الملك، الناس)، و(تغلب، الناس) و (العزّة، الذلّة)، ثم (تغلب، الملك)، ليخلص إلى أن عزة تغلب وإباءها الضيم يكمنان في كثرة عددها وفي اعتناقها عقيدة القوة والحرب، مما جعلها تسمو على الناس، وترجح كفتها على الملوك، فتذل كبرياءهم ليس أمام كبرائها فقط، بل حتى أمام صبيانها.

وقد بلغ عمرو بن كلثوم الغاية في الفخر بقبيلته وتمجيدها، وتحقير خصومها، وتحدي الملك عمرو بن هند والزراية به، فانبرى له شاعر قبيلة بكر بن وائل الحارث بن حلّزة اليشكري المتوفى سنة 580م، يرد مقالته في هدوء وروية ودهاء، إذ كـــــان عليه أن يقلب الموقف رأسا على عقب لصالح البكريين، ويوغر صدر الملك على التغلبيين بعد أن لمس ميله إلى الحكم لهم في شكواهم، ويحملهم وحدهم تبعة الحرب. وإذا أخذنا بزعم الأصمعي" أن الحارث قال قصيدته وهو يومئذ قد أتت عليه من السنين خمس وثلاثون ومائة سنة[1] "، فإنه يسهل علينا الحكم أن مقدمته الغزلية كانت تقليدية ومصطنعة، جارى فيها من سبقه من شعراء الجاهلية، حيث قال:[2]

آذَنَتْنَـــا بِبَيْنِهَـــا أَسْمَـــاءُ ... رُبَّ ثَـــاوٍ يُمَـــلُّ مِنْـــهُ الثَّوَاءُ[3]

بَعْـــدَ عَهْـــدٍ لَنَـــا بِبُرْقَةِ شَمَّـــا ... ءَ فَأَدْنَـــى دِيَـــارَهَـــا الخَلْصَـــاءُ[4]

لا أَرَى مَنْ عَهِـدْتُ فِيهَـــا فَأَبْكِي الـــ ... ـيَـــوْمَ دَلْهَـــاً وما يُحِيـــرُ الْبُكَاءُ[5]

فهو يذكر امرأة اسمها "أسماء" كان يلقاها في أماكن معلومة من ديارها الأقرب إلى دياره، حتى جاء يوم فأعلمته بعزمها على فراقه. فاليوم، حين يقف بتلك الأماكن يقف ذاهلا، غزير الدمع، يائسا من اللقاء. وفيما هو يسترجع ذكرياته الخوالي يفيق من شروده ذاك على أمر عظيم انقبض له صدره، وأورثه الهمّ، ألا وهو معاودة إخوانهم التغلبيين

---

[1] شرح القصائد العشر: ص 291.
[2] الزوزني: شرح المعلقات السبع، تقديم ظافر كوجان، دار اليقظة العربية، بيروت (لبنان)، ط.1969 ص 305- 306.
[3] الإيذان: الإعلام- البين: الفراق- التاوي: المقيم، والثواء الإقامة.
[4] العهد: اللقاء- برقة شماء والخلصاء: موضعان.
[5] عهدت: لقيت- دلها: ذاهل العقل، ودله بمعنى تحير ودهش- يحير: يرجع ويرد.

الاستعداد للعدوان عليهم بعد حرب ضروس بينهم دامت أربعين سنة، يقول:[1]

وأَتَـــانَـــا مِنَ الحَـــوَادِثِ والأَنْبَـــا ... ءِ خَطْبٌ نُعْنَـــى بِهِ ونُسَـــاءُ[2]

إِنَّ إِخْوَانَنَـــا الأَرَاقِـمَ يَغْلُـــو ... نَ عَلَيْنَـــا في قِيلِـــهم إِحْفَـاءُ[3]

يَخْلِطُـــونَ البَرِيءَ مِنَّـا بِذِي الذَّنْـ ... ـــبِ ولا يَنْفَـــعُ الخَلِـــيَّ الخَلاءُ[4]

أَجْمَعُـــوا أَمْرَهُم عِشَـــاءً فَلَمَّـــا ... أَصْبَحُـــوا أَصْبَحَتْ لَـــهُمْ ضَوْضَاءُ[5]

أَيُّهَـــا النَّـــاطِـقُ المُرَقِّـــشُ عَنَّـا ... عِنْـــدَ عَمْرٍو وهَـــلْ لِذَاكَ بَقَـــاءُ؟[6]

إن إخوانهم التغلبيين- بتعاليهم المعهود على الناس-يبالغون في التعدي عليهم إلى حد أنهم فقدوا التمييز بين البريء والمذنب، بل لا أمل للبريء في الدفاع عن نفسه، فقد فصلوا في عزمهم على الحرب ليلا، ووصلوه بالتجمع والتأهب نهارا، بل زادوا الطين بلة حين سبقوا بالشكوى إلى الملك عمرو بن هند ليخوفوهم به، وليُوغروا صدره عليهم، ولكن هيهات أن يفلحوا وهو الملك العادل، بل أفضل من يمشي على الأرض! يقول:[7]

مَلِكٌ مُقْسِـطٌ وأَفْضَـــلُ مَـــنْ يَمْـ ... ـــشِي ومِـــن دُونِ مـــا لَدَيْـــهِ الثَّنَـــاءُ[8]

أَيُّمَـــا خُطَّـــةٍ أَرَدْتُـــمْ فَـــأَدُّو ... هَـــا إِلَيْنَـــا، تُشْفَى بِهَـــا الأَمْلاءُ[9]

إِنْ نَبَشْـــتُمْ مـــا بَيْـــنَ مِلْحَةَ فَالصَّا ... قِـــبِ، فِيـــهِ الأَمْـــوَاتُ والأَحْيَـــاءُ[10]

أَوْ نَقَشْتُـــمْ فَالنَّقْـــشُ يَجْشَمُهُ النَّـــا ... سُ وفيه الإِسقَـــامُ والإِبْـــرَاءُ[11]

أَوْ سَكَتُّمْ عَنَّـــا فَكُنَّـــا كَمَنْ أَغْـــ ... ـــمَضَ عَيْنًـــا في جَفْنِهَا الأَقْذَاءُ[12]

أَوْ مَنَعْتُمْ مـــا تُسأَلُـــونَ فَمَنْ حُـــ ... ـــدَّ تُمُـــوهُ لَـــه علينـــا العَلاءُ؟[13]

---

[1] المصدر السابق: ص 309- 311.

[2] الخطب : الأمر ، صغيرا كان أو كبيرا، وهو هنا الأمر العظيم- نعنى به: نشغل به عن غيره.

[3] الأراقم: بطون من تغلب، سموا بها لأن امرأة شبهت عيون آبائهم بعيون الأراقم- الغلو: مجاوزة الحد- الإحفاء: الإلحاح.

[4] الخلي: أي البريء من الذنب- الخلاء: البراءة.

[5] الضوضاء: الجلبة والصياح، وهي اختلاط الأصوات- إجماع الأمر: عقد القلب وتوطين النفس عليه.

[6] الناطق: يريد به عمرو بن كلثوم حين إنشاده قصيدته- المرقش: المزين كلامه ليجعل الباطل حقا والحق باطلا- وهل لذاك بقاء: أي ليس لقولك بقاء وثبات لأنه باطل، والباطل زاهق.

[7] المصدر السابق: ص 314- 317.

[8] مقسط : عادل، من أقسط، أما القاسط فمعناه الجائر الظالم، من قسط؛ فالهمزة للإزالة والسلب.

[9] الخطة: الأمر والطريقة- أدوها: أي فوضوها- الأملاء: الجماعات من الأشراف، الواحد ملأ، لأنهم يملأون القلوب والعيون جلالة وجمالا.

[10] ملحة والصاقب: موضعان- نبشتم: بحثتم.

[11] النقش: الاستقصاء-

[12] الأقذاء: جمع القذي، والقذي جمع قذاة.

[13] أي إن منعتم ما سألناكم من المهادنة والموادعة- له علينا العلاء: أي له علينا العز والعلو والفضل.

هَلْ عَلِمتُـــمْ أَيَّـــــامَ يُتَّهَبُ النّـــــا سُ غِـــوَارًا لِكُـــلِّ حَيٍّ عُـــوَاءُ؟[1]

لا يُقِيـــمُ العزيـــزُ بالبَلَـدِ السَّهْـــ ـــلِ ولا يَنْفَـعُ الذَّلِيـــلَ النَّجَـاءُ[2]

إن الحارث بن حلّزة -بدهائه- يريد أن يكسب الملك إلى صفّه، لذا لا يستنكف عن مدحه، وجعله فوق الناس، ما دام غريمه عمرو بن كلثوم قد وضع قومه فوق الناس وفوق الملك. فإذا اطمأن شاعرنا إلى نيل مراده، التفت إلى التغلبيين ليفخر عليهم، وليبين عدم اكتراث قومه لجبروتهم؛ فسيان عندهم الحرب والسلم معهم، لذا فبحثهم في ماضي الحروب بينهم ليس في صالحهم، فالفضل كلّه لبكر في الأموات الذين لم يُثأر بهم أو في الأحياء الذين ثُئرَ بهم، والبراءة في مسؤولية الحرب لهم، والذنب على عدوهم. فإذا أعرض التغلبيون عن ذلك كله أعرض البكريون أيضا إيثارا للسلم، وليس ضعفا أو صغارا؛ فما زالوا يملكون القوة اللازمة والحقد الكافي لمواجهتهم. ولكنّ الحرب نار مشتعلة يمتد لهيبها إلى كل شيء، فلا ينفع العزيز تحصّنه في الجبال، ولا ينفع الذليل تعويله على الفرار.

وقد نجح شاعر بكر في محاماته عن قضية قومه، لأنه كان يثير نقاط الالتقاء والتقارب مع الملك، ويتجاهل -في مكر ودهاء- نقاط الاختلاف والتناقض بين القبيلتين المتعاديتين، فلم يكد يُنهي قصيدته إلا وقد حاز رضا عمرو بن هند، فحَكم له ضد تغلب نكاية فيها وفي شاعرها عمرو بن كلثوم الذي تعالى عليه في معلقته السالفة الذكر.

ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك، ويقتل عمرو بن كلثوم ملك الحيرة عمرو بن هند في قصره، حين اتفق هو وأمه هند على إهانة أم عمرو ليلى بنت مهلهل أخي كليب أعزّ العرب وهي في ضيافتهما. ثم يخرج المنذر بن النعمان أخو الملك القتيل بجيشه للثأر له، فتهزمهم تغلب، ويقتل مرّة بن كلثوم أخو عمرو المنذرَ[3]. ومن هنا، نستخلص أن فخر عمرو بن كلثوم بقومه تغلب إلى حدّ المغالاة، لم يكن من فراغ، وإنّما كان مستندا إلى مجد مؤثّل قوامه عزة العربي وإباؤه الضيم، وجرأته حتى على الملوك، ومنعته في صحرائه الشاسعة القاسية.

---

[1] الغوار: المغاورة- العواء: صوت الذئب ونحوه، وهو ههنا مستعار للضجيج والصياح.
[2] النجاء: الإسراع في السير، الهرب.

[3] - أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص153-155.

ومن الفخر الجمعي مع شاعر تغلب عمرو بن كلثوم وغريمه شاعر بكر الحارث بن حلّزة، ننتقل إلى الفخر الفرديّ مع عنترة بن شدّاد العبسيّ المتوفّى سنة 615 م، الّذي أرادت له القيم العربيّة الجاهلية أن يبقى فردا مختلفا أو متخلّفا عن الآخرين السّادة العرب. ولقد عاش عنترة طوالْ حياته في صراع دائم في ظلّ ثنائية (البياض، السّواد)، فهو وليد قهر البياض للسّواد، قهر أبيه شدّاد الفارس العربيّ الأبيض لأمّه زبيبة السّبيّة الحبشيّة السّوداء، وقد آثر القدر أن ينشأ عنترة ويشبّ مقهورا ومصبوغا بلون أخواله من السّودان وفق قانون الوراثة، وأن يصنّف ضمن أغربة العرب[1]، فلا يستطيع من لونه ولا من نسبه هذا فكاكا. ثمّ إنّ القدر ذاته وضعه في طريق الخلود، حين حببّ إلى نفسه الفضائل الإنسانيّة الخالدة أبد الدّهر، فكان فارسا مغوارا، وشاعرا مُجيدا، وجامعا لمكارم الأخلاق كالشّجاعة والعفّة والعزّة والحلم والكرم، حتّى قال فيه النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم لمّا أنشد قوله :[2]

وَلَقَدْ أَبِيتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظَلُّهُ ... حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

قال عليه الصّلاة والسّلام : "ما وُصفَ لي أعرابيٌّ قطّ فأحببتُ أن أراه إلاّ عنترة"[3]

وكان أعظم شيء حدث لعنترة في شبابه أن أحبّ ابنة عمّه عبلة، ومن شأن الحبّ أن يرهف نفس العاشق ويعذّبها بالهجر والحرمان؛ وهكذا فقد زاد إحساسه بسواد لونه وبعبوديته حين مُنع من الزّواج منها. فتاق شاعرنا إلى حرّيته، ووطّن نفسه على طلب المعالي بسيفه، وحين وجد قومه بني عبس في ضيق تحت وطأة المغيرين عليهم، تكاسل عن نصرتهم حتّى استنجد به أبوه شدّاد وقال له : كُرَّ وأنت حرّ، فكرّ وانتصر على الأعداء [4]؛ فظفر بالحرّية وبالنّسب الصّريح وبلقب "فارس بني عبس"، يردّ عنهم الغارة، ويقودهم في الإغارة على القبائل، حتّى صاروا لا غَناء لهم بدونه، ممّا أشعره بأهمّيته في حياة قبيلته، وارتباط عزّها أو ذلّها، مجدها أو خمولها بقوّة ساعده ومضاء سيفه قال :[5]

1- أغربة العرب : سودانهم، شبّهوا بالأغربة في لونهم. والأغربة في الجاهلية : عنترة، وخُفافُ بن نُدبة السُّلميّ، وأبو عُمير بن الحُباب السُّلميّ أيضا، وسُلَيك بن السُّلكة. (ينظر : لسان العرب 1 ص 646).

2- عنترة بن شدّاد : شرح ديوان عنترة بن شدّاد، عبد المنعم عبد الرّؤوف شلبي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط1، 1980، ص 119.

3- رجال المعلقات العشر : ص 213.

4- الشّعر والشّعراء : ص 153.

5- المصدر السابق: ص 154.

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَـــــا قِيلُ الْفَوَارِسِ : وَيْـكَ عَنْتَرَ أَقْـــدِمِ[1]

وقد اعتقد عنترة أنّ بياض فِعاله سيغطّي سواد لونه، ويشفع له عند عمّه مالك، فيُنيله مراده من عبلة، لكنّ عمّه ظلّ يماطله ويعلّله بالأماني، فإذا لم يجد مفرّا من إلحاحه عليه تسلّل تحت جنح الظّلام فارّا بأهله إلى حيث لا يعلم أحد.

وتبدأ مأساة العاشق الطّويلة والمليئة بالمعاناة وخوض الأهوال لتخليص الحبيبة –في كلّ مرّة– من الأعداء، أو لجلب مهرها المحفوف بالمخاطر بغية الظّفر بها وشفاء النّفس بلقائها، ولكن : هيهات! كان عليه أن يترسّم آثار عبلة كلّما ظعنت، وأن يقف على الأطلال يسألها كما دأب الشّعراء قبله على تسآل الدّيار الدّارسة وتذكّر أهلها.

لقد اختار عنترة أن يتعايش مع التّقاليد الاجتماعيّة العربيّة، ويفرض نفسه على مجتمعه من خلال القيم العربيّة ذاتها من دون التّمرّد عليها، ولذا فلا عجب أن يقرّ الشّعراء قبله على تقاليدهم الشّعريّة في ابتداءات قصائدهم وفي موضوعاتها، ويحاول أن يتميّز منهم من خلال تجربته الذّاتية، يظهر ذلك جليّا منذ مطلع معلّقته، يقول :[2]

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ؟[3]

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي[4]

حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَيَّ طِلَابُكِ ابْنَةَ مَخْرَمِ[5]

عَلِقَتْهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ قَوْمَهَا زَعْمًا لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ[6]

تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّـــةٍ وَأَبِيتُ فَوْقَ سَـــرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَـمِ[7]

لقد فرض رحيل عبلة المتكرّر – بعيدا عن ديار بني عبس – على شاعرنـــــا أن يتسقّط أخبارها، ويلاحقها أينما نزلت، ويقف على أطلال الدّيار الّتي تركتها، فيحيّيها ويستفسرها عن أخبار أهلها الرّاحلين، حتّى إذا نزلت بأرض أعدائه صعّبت عليه أمر القرب منها، ولكن هل يتركها لهم وقد شغف قلبه بها من أوّل نظرة، وتمنّى وصالها على

---

[1] ويك : ويلك.
[2] المصدر السّابق : ص 142-145.
[3] المتردّم : الموضع الذي يسترقع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي- التوهّم : التفرّس.
[4] الجواء : مكان بنجد.
[5] الزّائرين : الأعداء، كأنّهم يزأرون كما يزأر الأسد.
[6] علقتها : أحببتها - عرضا : أي فجأة من غير قصد له - زعما : طمعا والمزعم المطمع.
[7] الحشيّة : الفراش المحشو، والجمع الحشايا - السّراة : أعلى الظّهر.

الرّغم ممّا بينه وبين أهلها من عداوة وقتال ؟ هكذا حال الفرسان العاشقين: هجر، وحرمان، وسهر، وركوب دائم للأهوال على صهوة جواد أصيل قويّ، فيما تتنعّم الحبيبة ليلا ونهارا بالرّاحة وهدوء البال على فراش وثير، فكأنّها لا تبالي بما يعانيه من أجلها زهدا فيه أو تجاهلا لفروسيته وشدّة بأسه، يقول:[1]

إِنْ تُغْدِفِـــي دُونِـــي الْقِنَاعَ فَإِنَّنِـــي ... طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَـــارِسِ الْمُسْتَلْئِـــمِ[2]

أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي ... سَمْحٌ مُخَالَطَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ[3]

فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ[4]

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا ... رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ[5]

فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ[6]

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَـــدًى ... وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِـــي[7]

إنّه لا يجوز لعبلة أن تستتر عنه وهي تعلم شجاعته وبأسه وغلبته للفرسان. فلعلّها تشهد له بطيب أخلاقه وعدم تهوّره في تقدير الأمور، وحسن تصرّفه في المواقف المتضادّة والتّمييز بينها بما أوتي من رجاحة عقل وجلَد، والعيش في وفاق مع الآخرين ما لم يبخسوه حقه، ولم يبدأوه بظلم، أمّا إذا ظلم وانتهكت حرمته كان ردّه أشدّ إيلاما ومرارة على المعتدي. ومثلما كان شاعرنا سمحا بنفسه في مجالدة الأبطال، فهو سمح ببذل ماله في الإنفاق على شرب الخمر متى سكر الحرّ، ولكنّه في شربه لا يفقد اتّزانه؛ فهو جواد بماله غير مفرّط في عرضه، فلا يتهتّك ولا يتبذّل، فإذا صحا من سكره، داوم على سخائه بماله وإسباغ مكارمه على بني قومه.

---

[1] المصدر السّابق: ص 148 - 149.
[2] تغد في: ترخي وترسلي - القناع: ما تغطي به المرأة وجهها - طبّ: حاذق خبير - المستلئم: الذي لبس اللامة وهي الدّرع.
[3] سمح: سهل ليّن.
[4] باسل: كريه - العلقم: الحنظل.
[5] المدامة: الخمر - ركد:سكن - الهواجر: جمع الهاجرة وهي أشدّ الأوقات حرّا - المشوف المعلم: الدّينار المجلو الذي له علامة.
[6] العرض: موضع المدح والذّم من الرّجل، وما يجب عليه الدّفاع عنه - وافر: تامّ - لم يكلم: لم ينله أحد بذم، لم يجرح.
[7] صحوت: أفقت - النّدى: السّخاء - الشّمائل: الأخلاق، ومفردها شمال.

ومع كثرة المكرمات وعدد من قتل عنترة من الأبطال والفرسان، لم يسلم مـــن أن يقابَل بزمرة من الجاحدين والثّائرين المتوعّدين، يقول:[1]

نُبِّئْتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرِ نِعْمَتِي ... وَالْكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ[2]

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ ... لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنَيْ ضَمْضَمِ[3]

الشَّاتِمَيْ عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمْهُمَا ... وَالنَّـــــاذِرَيْنِ إِذَا لَقِيتُـــــهُمَا دَمِي[4]

إِنْ يَفْعَلاَ فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَـــاهُمَـــــا ... جَزَرَ السِّبَـــاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَـــمِ[5]

هكذا كان حال شاعرنا مع حبيبته عبلة ومع قومه من بني عبس ومع أعدائه الكثيرين: سموّ في الأخلاق، وبسالة في الحروب رَغِمَت لها أنوف الإخوة والأعداء، وشوق مبرّح إلى معشوقه بالغ أهلها في إبعادها عنه طعنا في نسبه واحتقارا له لسواد لونه، لكنّه قابل ذلك كلّه بأياد بيضاء، كان يقبضها حين يجد الجحود، ويبسطها – بدون حدود – حين يلقى الشّكر والعرفان. كما أعدّ سيفا بتّارا لأعدائه المتوعّدين له الشّاتمين عرضه في غيابه وحضوره، إلاّ أنّه كان يترفّع عن الرّد على شتائمهم بالمثل، بل كان يردّ عليهم بلغة السّيف لغةِ عصره؛ مثلما فعل بضمضم المرّيّ في حرب داحس والغبراء[6]، وترك ابنيه حُصينا وهرما يبكيانه، ولا يملكان غير الوعيد وبذيء الكلام للأخذ بثأره.

لقد استطاع عنترة بن شدّاد بمثاليته في حبّه، ومثاليته في حربه، أن يفرض نفسه على قيم القبيلة العربيّة الجاهلية من داخلها، ثمّ يترفّع عنها كفرد متميّز بأخلاقه المثالية، وبذلك انتزع الاعتراف ببطولته من أهل عصره، وحاز حبّ وتقدير الأجيال العربيّة القريبة واللاّحقة ذاكرة بياض فعاله، ناسية سواد لونه، بما جدّ في حياتها من تعاليم تُزري بهذه العنصريّة المقيتة.

---

[1] ـ المصدر السّابق: ص 152 - 154.

[2] ـ مخبثة: مفسدة.

[3] ـ الدّائرة: اسم للحادثة تدور من خير إلى شرّ ومن شرّ إلى خير، ثمّ استعلمت في المكروهة دون المحبوبة ـ ابنا ضمضم: هما حصين وهرم ابنا ضمضم المرّي، وكان عنترة قد قتل أباهما في حرب داحس والغبراء يوم المريقب، فبلغه أنّهما يشتمانه ويتوعّدانه.

[4] ـ النّاذرين: أي الموجبان على نفسيهما سفك دمي.

[5] ـ جزر السّباع: مقتولا تأكله السّباع ـ القشعم: المسنّ من النّسور.

[6] ـ حرب داحس والغبراء: داحس فحل لقيس بن زهير سيّد عبس والغبراء حجرة لحمل بن بدر سيّد فزارة من ذبيان، تسابقا، فأكمن حمل بن بدر فتيانا ليردّوا داحسا إن كان سابقا، فكان له ما أراد، وبعد أن علم قيس بن زهير بما جرى لفرسه، نشبت الحرب بين عبس وذبيان، واستمرّت أربعين سنة، حتى تمّ الصّلح على يدي الحارث بن عوف وهرم بن سنان بما بذلاه من مالهما، (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص 315 - 316.)

ومن الحاضرين حرب داحس والغبراء الشّاعر زهير بن أبي سُلمى المزني المتوفى سنة 631 هـ ، وهو إن لم يكن من أبطالها، فقد كان شاهد عيان على ويلاتها، ومندّدا بخسائر القبيلتين من الدّماء على مرّ الأيّام والسّنين.

كان زهير يكره الموت لأنّه أخذ أباه، فوسمه باليتم صغيرا، واختطف أولاده من أمّ أوفى المرأة الوحيدة التي أحبّها، وقد اضطرّته إلى طلاقها بعد أن تزوّج عليها كبشة التي ولدت له كعبا وبجير الشّاعرين[1]. ثمّ إنّ شاعرنا مقت الحرب لأنّها تزرع الموت أينما اشتعلت نيرانها، وتغذّيه، ولا تضع أوزارها حتّى يكون قد حصد الآلاف من غير تمييز بين كبير أو صغير، وبين ذكر أو أنثى.

ولعلّ كراهية زهير الموت ومقته الحرب ينسجم وطبيعة أسرته التي تملك تقاليد في الشّعر تبعد أفرادها على أن يحرصوا على إتقان فنون الحرب لتحقيق بقائهم في مجتمعهم المضطرب، إذ كان أبوه ربيعة بن رباح شاعرا، وكان كافلُه خالُه بشامة بن الغدير شاعرا، كما كان راوية للشّاعر أوس بن حجر زوج أمّه، وكانت أختاه سُلمى والخنساء (المزنيّة) شاعرتين، وابناه كعب وبجير شاعرين، وحفيده المضرّب بن كعب شاعرا.[2] إذن، كان شاعرنا من بيت توارث أفراده الشّاعرية، فاتّخذ الشّعر حرفة، تفرّغ لها، وأعطاها من طبعه وحسن منطقة وأناته ما كان ينشد من إتقان؛ فكان يطيل النّظر في شعره، ينقّحه، ويدقّق في صوره ومعانيه حولا كاملا قبل أن يعرضه على النّاس، حتّى سميّت قصائده بالحوليات[3]. فكان شعره صورة مجسّدة لمدرسته الشّعرية ولأخلاقه الفاضلة ولخبرته الطّويلة في الحياة، ممّا جعل عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يقدّمه على شعراء عصره لأنّه:[4] "كان لا يعاظل بين الكلام، ولا يتّبع وحشيه، ولا يمدح الرّجل إلاّ بما فيه".[5]

إذن، لم يأنف زهير من التّكسب بشعره، ولكنّه كان يقصر مدحه على سادات بني ذبيان: فمن بني مرّة: سنان بن أبي حارثة، وولده هرم،والحارث بن عوف، ومن بني بدر:

---

[1]ـ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص 129 - 130.
[2]ـ المرجع نفسه: ص 129.
[3]ـ الشّعر والشّعراء: ص 77.
[4]ـ طبقات فحول الشّعراء 1: ص 63.
[5]ـ المعاظلة: أن يعقد الكلام، ويوالي بعضه فوق بعض حتّى يتداخل ويغمض - وحشي الكلام: حوشيه وغريبه.

حصن بن حذيفة[1]؛ يمدحهم بخصالهم الحميدة وحسن فعالهم، متجنّبا الكذب والمغالاة. وقد أنشأ شاعرنا معلّقته للتّنويه بنجاح سيّديْ بني مرّة هرم بن سنان والحارث بن عوف في وقف حرب داحس والغبراء بعقد الصّلح بين عبس وذبيان، وتحمّل ديات قتلى القبيلتين من مالهما على الرّغم من أنّهما لم يقترفا في هذه الحرب المنكَرة أيّ ذنب أو جريرة.

وقد ارتأى زهير أن يبدأ مسيرة السّلام – منذ مطلع معلّقته – بمحاولة التّصالح مع طليقته وحبيبته الوحيدة أمّ أوفى بعد عشرين سنة من فراقهما، قال:[2]

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ[3]

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[4]

تَبَصَّرْ خَلِيلِي! هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمِ[5]

يقف زهير سائلا رسوم ديار حبيبته الوحيدة أمّ أوفى الّتي ما نسيها قطّ بعد عشرين سنة من الفراق، فلا يتعرّف عليها إلاّ بعد جهد ومشقة، بل لقد برّح به الشّوق حتّى طمع في رؤية هوادجها لحظة ارتحالها، على بعد الزّمن الّذي مضى من تصارمهما. ثمّ يخرج شاعرنا من حالة الوله والخيبة في سلامه الشخصي الذي عفّى عليه الزمن إلى حالة اليقظة والتّفاؤل على صيت السّلام الجمعيّ الّذي حققه السّيدان الكريمان هرم بن سنان والحارث ابن عوف، وهو السّلام ذاته الّذي ينشده، ويحبّ أن يحيا قومه في ظلاله، يقول:[6]

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ ... رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ[7]

يَمِينًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا ... عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ[8]

---

[1] أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص 134.

[2] زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير بن أبي سلمى، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط، 1979، ص74-76.

[3] الدّمنة: ما اسودّ من آثار الدّار بالبعر والرّماد وغيرهما، والجمع الدّمن - حومانة الدّرّاج والمتثلم، موضعان وقوله: أمن أمّ أوفى، أمن منازل الحبيبة المكتّاة بأمّ أوفى دمنة لا تجيب.

[4] الحجّة: السّنة، وجمع الحجج - اللأي: الجهد والمشقة.

[5] الظّعائن: جمع ظعينة، لأنّها تظعن مع زوجها من الظّعن، وهو الإرتحال - بالعلياء: بالأرض العلياء، أي المرتفعة - جرثم: ماء بعينه - والتّبصّر: التّظر - والتّحمّل: التّرحّل.

[6] المصدر السّابق: ص 78 - 80.

[7] البيت: الكعبة المشرّفة - جرهم: قبيلة قديمة تزوّج فيهم إسماعيل عليه السّلام، فغلبوا على الكعبة والحرم بعد وفاته عليه السّلام وضعف أولاده، ثمّ استولى عليها بعد جرهم خزاعة إلى أن عادت إلى قريش، وقريش إسم لولد النّضر بن كنانة.

[8] السّحيل: المفتول على قوّة واحدة - المبرم: المفتول على قوّتين أو أكثر، ثمّ يستعار السّحيل للضّعيف والمبرم للقوي.

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ[1]

وَقَدْ قُلْتُمَا : إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ[2]

فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمُ مِنْ تِلاَدِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ[3]

إنّه يريد أن ينفي صفة المداهنة عن مدحه لصانعيْ السّلام، فيقسم بالكعبة المشرّفة التي ورثها العرب عن أجدادهم من جُرهم وقريش، فقدّسوها وحجّوا إليها، بأنّه صادقٌ عاطفة ولهجة في تقدير هذين السيّدين العظيمين الخادمين لقومهما في السّراء والضّراء، واللّذين حقنا ما بقي من دماء عبس وذبيان بعد أن أشرفتا على الفناء، فبذلا من أعزّ ماليهما ديات لأهل المقتولين من القبيلتين حبّا في إفشاء السّلام. لذا، يخشى زهير أن تضيّع ذبيان هذه الفرصة السّانحة بتردّدها وتناقض موقفها إزاء عقد الصّلح، فلا تحسم أمرها، يقول:[4]

أَلاَ أَبْلِغِ الأَحْلاَفَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ: هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مُقْسَمِ[5]

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ[6]

يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ[7]

إنّه – بعقيدته الغامضة في إله الوجود – يذكّر ذبيان وحلفاءها بما عقدوا من أيْمان لتحقيق الصّلح، ويحذّرهم من خبث الطّويّة، لأنّ الله تعالى يعلم السّر وأخفى؛ فقد أعدّ للغادر النّاقض العهد عقابا مرقوما في كتاب، يعجّله له في الدّنيا أو يؤخّره له ليوم الحساب. ثمّ يواصل ابن أبي سلمى وعظه لقومه بذمّ الحرب والتّذكير بويلاتها، يقول:[8]

وَمَا الْحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ[9]

مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ[10]

---

[1] التدارك: التلافي ـ التفاني: التشارك في الفناء ـ منشم: قيل فيه إنّه إسم إمرأة عطارة إشترى قوم منها جفنة من العطر، وتعاقدوا وتحالفوا، وجعلوا آية الحلف غمسهم الأيدي في ذلك العطر، فقاتلوا العدوّ الذي تحالفوا على قتاله، فقتلوا عن آخرهم، فتطيّر العرب بعطر منشم وسير المثل به. وقيل بل كان عطّارا يشتري منه ما يحنط به الموتى فسار المثل بعطره.

[2] السّلم: الصّلح، يذكر ويؤنّث.

[3] التلاد والتليد: المال القديم الموروث ـ المغانم: جمع المغنم وهو الغنيمة ـ شتّى: أي متفرّقة ـ الإفال: جمع أفيل وهو الصّغير السنّ من الإبل ـ المزنم: المعلم بزنمة.

[4] المصدر السّابق: ص 81.

[5] الأحلاف والحلفاء: الجيران، جمع حليف على أحلاف ـ أقسم: أي حلف- وتقاسم القوم أي تحالفوا، والقسم الحلف والجمع الأقسام وكذلك القسيمة ـ هل أقسمتم: أي قد أقسمتم.

[6] فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم: أي لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد- يكتم الله: أي يكتم من الله.

[7] أي يؤخر عقابه ويرقم في كتاب، فيتخر ليوم الحساب، أو يعجّل العقاب في الدّنيا قبل المصير إلى الآخرة فينتقم من صاحبه.

[8] المصدر السّابق: ص 81 - 82.

[9] الذّوق: التجربة ـ الحديث المرجّم: الذي يرجم فيه بالظنون أي يحكم فيه بظنونها.

[10] الضّرى: شدّة الحرب واستعار نارها، وكذلك الضّراوة، والفعل ضري يضرى، والإضراء والتضرية الحمل على الضّراوة، ضرمت النّار تضرم ضرما واضطرمت وتضرّمت: إلتهبت، وأضرمتها وضرّمتها: ألهبتها.

فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَـــــى بِثِفَالِهَـــا وَتَلْقَحْ كِشَـــافًـــا ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِـــمِ[1]

وهو لا يألو جهدا في تقبيح الحرب والتّشنيع عليها، ووضعها بشؤم الطّالع على كلّ من يصطلي نارها ويؤجّجها، فهي تحصد الأرواح – بكلّ قسوة وفظاعة – حصد الرّحى لحَبّها، ولا تلقح إلاّ موتا زؤاما وشرّا مستطيرا مضاعفا.

ثمّ ينفد صبر شاعرنا، فيعلن تذمّره من طول البقاء، وضجره ممّا عايش خلال سنيه الطّويلة، فينفث سأمه ذاك حِكما بليغة في الزّمن وفي الحياة والموت، وفي القيم السّائدة وأخلاق النّاس، متكئا على فنّ التّضاد الّذي يكفل له تصوير ذلك الصّراع الدّائم والكائن على ساحة الخليقة منذ الأزل، يقول:[2]

سَئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلاً –لاَ أَبَا لَكَ– يَسْأَمِ[3]
وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ وَمَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْـــــرَمِ[4]
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ
وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجَاجِ فَإِنَّهُ يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلُّ لَهْذَمِ[5]
وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاَحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لاَ يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[6]
وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَمْ يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكَرَّمِ
وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ
وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَـــادَتُـــهُ أَوْ نَـــقْـــصُـــهُ فِـــي التَّكَلُّمِ

---

[1] ـ تفال الرّحى: خرقة أوجلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطّحين ـ اللقح واللقاح: حمل الولد ـ الكشاف: أن تلقح التعجة في السّنة مرّتين ـ أنتجت النّاقة إنتاجا: إذا ولدت عندي ـ الإتآم: أن تلد الأنثى توأمين، وامرأة متآم: إذا كان ذلك دأبها، والتوأم يجمع على التّوائم.

[2] ـ المصدر السّابق: ص 86 ـ 89.

[3] ـ سئمت الشّيء سآمة: مللته ـ التكاليف: المشاق والشّدائد ـ لا أبا لك: كلمة جافية لا يراد بها الجفاء، وإنّما يراد بها التّنبيه والإعلام.

[4] ـ الخبط: الضّرب باليد، والفعل خبط يخبط ـ العشواء تأنيث الأعشى وجمعها عشو، والعشواء: النّاقة التي لا تبصر ليلا، ويقال في المثل: هو خابط خبط عشواء أي قد ركب رأسه في الضّلالة كالنّاقة التي لا تبصر ليلا، فتخبط بيديها على عمى، فربّما تردّت في مهواة وربّما وطئت سبعا أو حيّة أو غير ذلك ـ التّعمير: تطويل العمر.

[5] ـ الزّجاج: جمع زجّ الرّمح وهو الحديد المركب في أسفله، وإذا قيل: زجّ الرّمح عنّي به ذلك الحديد والسّنان ـ اللّهذم: السّنان الطّويل ـ وعالية الرّمح سافلته والجمع العوالي، إذا التقت فئتان من العرب سدّدت كلّ واحدة منهما زجاج الرّماح نحو صاحبتها، وسعى السّاعون في الصّلح، فإنّ أبنا إلا التّمادي في القتال، قلبت كلّ واحدة منهما الرّماح، وإقتتلنا بالأسنّة.

[6] ـ الذّود: الكفّ والرّدع ـ استعار الحوض للحريم.

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ صُورَةُ اللَّحْمِ وَالدَّمِ[1]

وَإِنَّ سِقَاهَ الشَّيْخِ لاَ حِلْمَ بَعْدَهُ وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

سَأَلْنَـــا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَـــا فَعُدْتُمُ وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْـــــآلَ يَوْمًا سَيُحْرَمِ[2]

إنّ شاعرنا لا يعظ قومه من ذبيان بضرورة اعتناق شريعة السّلم ونبذ الحرب، إلاّ بعد أن وعظته الحوادث الجسام التّي عاشها خلال سنيه الثّمانين، وبخاصّة الأربعين الأخيرة منها، والّتي كان فيها شاهد عيان لحرب ضروس لا تُبقي ولا تذر. إنّه لا يتوق أن يعيش أكثر ممّا عاش، فقد ملّ حياة يترصّدها الموت في كلّ حين، فيما علم الإنسان بما يجري حوله يتأرجح بين الأمس واليوم فقط، فهو قاصر عن التنبّؤ بما يصير إليه غدا، ولذا فلا يمكنه تلافي الموت الّذي لا يميّز بين الصّغير والكبير؛ فقد يُهلك الإنسان في ربيع العمـــر أو يتركه حتّى يدركه الهرم، وأيّا كان حاله، فهو يختطف الأعزّاء، ويخلّف الحسرة في قلوب ذويهم. وما دام الموت كأسا لابدّ من شربه، فلْيَعش الإنسان في سلام، ولْيَملأ حياته وحياة الآخرين بالخير، ولكن لِيَجعل خيره في من يستحقه، ولْيَتّق شرّ الإحسان إلى اللّئام، ولْيُذعِن إلى داعي الصّلح بإرادته حتّى لا ترغمه مرارة الحرب على الذّل والهوان. وهذه الدّعوة إلى السّلام لا تتناقض مع الاستعداد الدّائم للحرب دفاعا عن الأرض والعرض، وردّا للعدوان؛ فتلك شريعة العرب في صحرائهم، فمن لم يستطع ردّ الظّلم عن نفسه بكلّ ما أوتي من قوّة، ظلمه أدنى النّاس وأقصاهم.

والمرء في علاقته بالآخرين – في وطنه أو في غربته – بين مدّ وجزر، لذا يجب عليه أن يتسلّح – عند الاختلاط بهم – بالحذر والكتمان والحكمة؛ فمن شأن الاغتـــراب أن يفضي إلى الثّقة بالعدّو إن لبس لبوس الصّديق، ومن شأن عدم التّرفع عن الدّنايـــا أن يجرّئ النّاس عليه، فتضيع هيبته في نفوسهم. والنّاس – منذ خلقوا – مجبولون على اهتمام بعضهم ببعض بالتّجسس والنّقد، فلا ينفع معهم التّطبّع والتّصنّع؛ فمهما بالغ الشّخص في إخفاء بعض نقائصه، فإنّهم – لابدّ – كاشفوها وفاضحوها. فقد تجد من يختفي وراء

---

[1] هذا كقول العرب: المرء بأصغريه لسانه وجنانه.
[2] التسآل: السؤال.

الصّمت، فيبالغ فيه حتّى إنّك لتحكم له- لأوّل وهلة - بالوقار والحكمة، فإذا تكلّم واسترسل في الحديث، انكشف مقداره من العقل، وحظّه من حسن الأدب والمنطق، ذلك أنّ المرء مخبوء تحت لسانه، والرّجولة صدق نيّة وقول فاصل وفعل حازم، وإلاّ فهي جسد فارغ فانٍ وذكورة مجرّدة عارية من الخلال الحميدة. والحياة مدرسة كبرى نتعلّم فيها من خلال معادلة الصّواب والخطأ، فليس صحيحا دائما أنّ من شبّ على شيء شاب عليه، فللشّاب فرصة ليست للشّيخ، إذ يمكنه أن يستقبل من أمره ما استدبر، فيستفيد من أخطائه السّالفة، فيثوب إلى رشده، ويترك غيّه ليسير على جادّة الصّواب. أمّا الشّيخ الفاسد فقد وصل إلى نهاية طريق الحياة، ورجوعه عمّا ألفه من سفاسفَ صعب بل مستحيل، ولا شفاء له ممّا هو فيه من غواية إلاّ بالموت والقبر.

هكذا استطاع زهير بعقله الرّاجح، وأخلاقه الفاضلة، وتحبيذه الوفاق على الصّدام، والسّلم على الحرب، أن يجد التّوازن الغائب بين تناقضات الحياة في عصره، فكان استخدامه للطّباق مناسبا فنيّا، وافيا بالحاجة إلى إبراز المتضادّات، ثمّ الحكم بتنحّي أحد طرفيْ التّضاد وسيادة الطّرف الآخر، بما يتوافق والقيم السّائدة ونواميس الوجود. وقد فهم شاعرنا المعادلة الاجتماعية الصّحيحة معادلة الأخذ والعطاء، فكلّ ميسّر لما خُلق له، يأخذ من الدّنيا بقدر كدّه فيها، ويُعطى بقدر ما ينبغي له أمّا من ألحف في الطّلب، وأذلّه الطّمع، عوقب بالحرمان في النّهاية.

ومن طبقة زهير الشّعرية، ومن ذبيان أصلا ومولدا النّابغة زياد بن معاوية بن ضباب المتوفّى سنة 604 م، الّذي اشتغل بالمدح مثله، ولكنّه قصر مدحه على الملوك فقط، وترفّع عن تمجيد من هم دونهم. وكان النّابغة يقصد بلاط المناذرة بالحيرة وبلاط الغساسنة بالشّام، على الرّغم من تنافر الملكين وتقاتلهما، واستطاع بحنكته السّياسيّة أن يحظى بمكانة مرموقة عندهما، وأن يقدّم على سائر الشّعراء، لأنّه عرف حاجة كلّ منهما إلى شعره، فأغدقا عليه من العطايا والهدايا حتّى صار يأكل في آنية من الذّهب والفضّة[1]، كما كان له حقّ الشّفاعة عند بني غسّان في فكّ أسرى قومه الّذين كانوا يغيرون على مراعيهم في أيّام

[1]- العمدة 1: ص80.

الجدب والقحط.[1] إذن، لم يكن تقرّب النّابغة من ملوك المناذرة والغساسنة ومدحه لهم لأجل تحقيق مصلحة شخصية فحسب،بل كان سفير قبيلته ذبيان في كلا البلاطين، يجلب لها من ملك الحيرة أبي قابوس الدّعم في حربها مع بني عبس وحلفائهم، ويفكّ أسرى قومه من قبضة الملك الغسّاني عمرو بن الحارث، ويحذّرهم من غاراته. غير أنّ علاقة الشّاعر بهؤلاء الملوك لم تخلُ من المودّة والإخلاص، نستشفّ ذلك من علاقته المتميّزة بملك الحيرة النّعمان بن المنذر أبي قابوس الّذي أغدق عليه من العطايا، وقدّمه على سائر الشّعراء في قصره حتّى كثر حسّاده، ثمّ حدثت بينهما جفوة طويلة عميقة بسبب قصيدته في زوجه المتجرّدة[2]، أو لسبب آخر[3]، فخاف شاعرنا على نفسه من بطش النّعمان بن المنذر، ولجأ إلى عمرو بن الحارث الغسّانيّ معزّزا مكرّما، فطفق يمدحه وينال عطاياه، دون أن ينسى حقّ ممدوحه السّابق في المدح والاعتذار إليه، والتّبرؤ من وشاية الحسّاد؛ نلمس ذلك جليّا من خلال قصيدته المشهورة في مدح عمرو بن الحارث وآبائه، حين هرب إلى الشّام ونزل به، قال:[4]

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ[5]

تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَهْدِي النُّجُومَ بِآيِبِ[6]

وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[7]

إذ يبدأ قصيدته بوصف ليله، على غير عادته ولا عادة شعراء عصره في البدء بالوقوف على الأطلال، فيصف ليلته النّابغيّة بطول الهمّ والتّسهيد، حتّى لكأنّها لا تريد أن تنقضي، فليست أحزان النّهار بأقلّ من معاناة اللّيل؛ وهذا الوصف يكاد يقترب من وصف امرئ القيس لليله، وإن اختلفت أسباب طوله عند الشّاعرين. وما كدّر حياة النّابغة، وما أقضّ مضجعه وزرعهُ بالأشواك إلاّ تغيُّرُ قلب ممدوحه الأثير له، فلم يتحرّج من مدحه

---

[1] أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص 196.

[2] الشّعر والشّعراء : ص 93 - 94. ومطلع قصيدته:

أمن آل مية رائح أو مغتد ؟ عجلان، ذا زاد، وغير مزوّد.

[3] محمّد زكي العشماوي: النّابغة الذبياني، دار النّهضة العربية، بيروت (لبنان) ط. 1980 ، ص 82 - 88.

[4] النّابغة الذبياني: ديوان النّابغة الذّبياني، تحقيق وشرح محمّد الطّاهر ابن عاشور، الشّركة التونسية للتوزيع والشّركة الوطنية للنّشر والتوزيع- الجزائر ط، 1976، ص 43 - 44.

[5] كليني: أتركيني - ناصب: أي ذي نصب، أي ذي تعب، أي متعب.

[6] يهدي النّجوم: النّجم المتقدّم من النّجوم لأنّه إذا غاب في ضوء الصّبح غابت بقيّة النّجوم بقرب غيابه - آيب: راجع أو ليس بغائب.

[7] أراح: أرجع إليه - عازب: بعيد - همّه: غمّه وحزنه - تضاعف: تكاثر.

والاعتذار إليه، حتّى وهو ينعم بالأمن والرّخاء في بلاط الغساسنة؛ من ذلك معلّقته الّتي استهلّها بالوقوف على الأطلال ذلك الوقوف المعتاد اليائس، يسألها -في ذات عشيّة- عن ديار حبيبته ميّة الّتي عفّى عليها الزّمن، من دون أن يظفر بجواب، فيقنع نفسه بالانصراف عمّا لا يجدي، وامتطاء ناقته الجسيمة القويّة السّريعة إلى مبتغى أمله، يقول :[1]

يَا دَارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الأَبَدِ[2]
وَقَفْتُ فِيهَا أُصَيْلاَنًا أُسَائِلُهَا عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ[3]
فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إِذْ لاَ ارْتِجَاعَ لَهُ وَانْمِ الْقُنُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجُدِ[4]
فَتِلْكَ تُبْلِغُنِي النُّعْمَـــــانَ إِنَّ لَـــــهُ فَضْلاً عَلَى النَّاسِ فِي الأَدْنَى وَفِي الْبُعُدِ[5]

فَلْيُدِرْ ظهره لأمل مضى وولّى، ولْيستقبلْ أملا قائما في نفسه، يؤرّقه ويُطيل لياليه، وينغّصُ عليه نهاره، ألاَ وهو أمل تجديد العهد بممدوحه النّعمان بن المنذر، وصفاء نفسه له بعد طول جفاء؛ وكيف يضيق صدره له وهو يَسَعُ بعطفه وحدبه القريب من النّاس والبعيد؟ فمثل النّعمان نادر الوجود في النّاس، ولا يساويه في الفضل إلاّ أبوه أو من نجم من صلبه. ومن بلغ هذه المكانة السّامقة كان محكّما في مصائر النّاس على تناقض أخلاقهم وتبدّل سلوكاتهم، يقول :[6]

وَلاَ أَرَى فَاعِلاً فِي النَّـــــاسِ يُشْبِهُهُ وَلاَ أُحَاشِـــــي مِنَ الأَقْوَامِ مِنْ أَحَـــدِ[7]
إِلاَّ لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبْقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ[8]
فَمَنْ أَطَاعَكَ فَانْفَعْهُ بِطَاعَتِهِ كَمَا أَطَاعَكَ وَادْلُلْـــهُ عَلَى الرَّشَدِ
وَمَنْ عَصَـــاكَ فَعَـــاقِبْهُ مُعَـــاقَبَـــةً تَنْهَى الظَّلُـــومَ وَلاَ تَقْعُدْ عَلَى ضَمَدِ[9]

فمن شأن الحاكم الحازم أن يُوفّق إلى تقويم هذا التضادّ في علاقة أفراد رعيّته به، وتأرجحهم بين الطّاعة والعصيان، وليس الطّائع كالعاصي، فلهذا الثّوابُ ولذاك العقابُ،

---

[1] المصدر السابق : ص 76-81.
[2] العلياء : رأس الجبل - والسّند : ما علا عن سفح الجبل - أقوت : أقفرت - السّالف : الماضي - الأبد : الدّهر، جمعه : آباد.
[3] الأصيلان : تصغير أصيل، وهو الموقت بعد العصر إلى المغرب، ويجمع على أصلان - عيّت : لم ترد جوابا - الرّبع : المنزل.
[4] عدّ عمّا ترى : أي أمسك عن رؤيته وتجاوزه إلى غيره - انم : ارفع - القنود : جمع قتد وهو عود من أعواد الرّحل - العيرانة : النّاقة التي تشبه العير، وهو حمار الوحش، في صلابة خلقها وسرعتها - الأجد : الموثّقة الخلق، القويّة.
[5] تلك : الإشارة إلى النّاقة - تبلغني : توصلني إليه - البُعد : جمع بعيد.
[6] المصدر السابق : ص 82.
[7] أرى : بمعنى أعلم - حاشى أحاشي : أستثني.
[8] إلاّ لمثلك : أي أبيك ومن خرج من صلبك - الجواد : الفرس - استولى : غلب - الأمد : الغاية المجعولة لخيل السّباق.
[9] الظلوم : كثير الظّلم - الضّمد : الغيظ والضّيم والحقد.

والطّائع يقدّم فروض الولاء بقدر ما يستطيع، وبخاصّة إذا كان كالنّابغة له علاقات حسنة بالغساسنة خصوم النّعمان الّذين يحسنون وفادته كلّما حلّ ببلاطهم، يقول فيهم :[1]

مُلُـــــوكٌ وَإِخْـــوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّـــمُ فِي أَمْوَالِـــــهِمْ وَأُقَرَّبُ[2]

فإن كان مدحه للملك الغسّاني خطيئة في عين أبي قابوس، فليَدُلّهُ على الصّواب، ولا يعاقبه من غير ذنب ولا جريرة. فأولى النّاس باللّوم من استفحل شرّه، واستشرى ظلمه، وتأكّدت معصيته، فوجبت له العقوبة الرّادعة الّتي تشفي غليل النّفس، وتُذهب ما بها من غيظ وحنق. لكنّ الشّاعر لا يذكر أنّه اقترف ذنبا في حقّ ممدوحه، ولا يملك دليلا على خيانته سوى براءته منها، يؤكّدها بما قرّ في نفسه من عقيدة جاهليّة، فيقسم بالله تعالى ربّ هذه الكعبة الّتي طاف بها ولمس حجرها الأسود، ويثنّي قسمه بما ذُبح من قرابين للأصنام الموضوعة فيها، أنّه ما خانه، ولا تآمر عليه، ولا تعدّى على حرماته، وإلاّ فهو يدعو على نفسه دعاء المؤمن السّاذج البريء بشلل يده ونزول عقاب ربّه به عقابا ترتاح له شماتة الوشاة الأعداء، ويطهّره من فِرية تنغّص عليه حياته، وتحرق كبده ليلا ونهارا، يقول :[3]

فَلاَ لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى الأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ[4]

مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ إِذًا فَلاَ رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي[5]

إِذًا فَعَاقَبَنِي رَبِّي مُعَاقَبَةً قَرَّتْ بِهَا عَيْنُ مَنْ يَأْتِيكَ بِالْفَنَدِ[6]

إِلاَّ مَقَـالَةَ أَقْـــوَامٍ شَقِيتُ بِـــــهِمْ كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًـــا عَلَى كَبِـدِي[7]

إنّه يريد أن يتطهّر من ذنب لم يقترفه، إنّه يبتغي تجديد العهد مع النّعمان، لذا فهو يكفّ عن الدّفاع عن نفسه، ويمضي إلى استعطافه، وإسباغ عظيم الصّفات عليه، بل يخاطبه بكنيته زيادة في استمالته، وينعت وعيده الّذي أقض مضجعه بزئير الأسد الّذي لا قِبَلَ له به، ويدعوه إلى التّأنّي في غضبه عليه، وألاّ يُشمِت به الأعداء؛ فالنّاس كلّهم وما

---

[1] ـ المصدر السابق : ص 55.
[2] ـ ملوك وإخوان : عنى ملوك آل جفنة الغساسنة.
[3] ـ المصدر السّابق : 85 - 86.
[4] ـ مسّحت كعبته : زرت وطفت - هريق : لغة في أريق - الأنصاب : حجارة الأصنام، وهي دماء القرابين التي ينحرونها على أصنامهم - الجسد والجساد : الزّعفران، وهو هنا الدّم.
[5] ـ السّوط : ما يضرب من جلد مضفور أو نحوه.
[6] ـ قرّت عين فلان : صارت مسرورة بنواله ما يشتهي - الفند : الكذب.
[7] ـ أي لكن مقالة أقوام كاذبة - القرع : الضّرب.

يملك من مال ومن ولد فداء لمن فاق الفرات بفيض كرمه، وعمومه القريب والبعيد بفضله، يقول:[1]

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعَدَنِي ... وَلاَ قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ[2]

مَهْلاً فِدَاءً لَكَ الأَقْوَامُ كُلُّهُمُ ... وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ[3]

لاَ تَقْذِفَنِّي بِرُكْنٍ لاَ كِفَاءَ لَهُ ... وَإِنْ تَأَثَّفَكَ الأَعْدَاءُ بِالرِّفَدِ[4]

فَمَا الْفُـــرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُـــهُ ... تَرْمِـــي أَوَاذِيُّـــهُ الْعِبْرَيْـــنِ بِالزَّبَـــدِ[5]

إنّ النّابغة، بعقليته الحضريّة وباحترافه للمديح وبإحسانه آداب مخاطبة الملوك، لا يرى غضاضة – عند الاعتذار – في أن يبالغ في رفع ممدوحه إلى أعلى عليّيـــــــــن، وأن يتضاءل أمامه، ويتهاون في حقّ نفسه لإرضاء كبره واستمالة قلبه. ويختم الشّاعر قصيدته بالتّأكيد على أنّ ثناءه على النّعمان خالص لا تشوبه شائبة من غرض أو مصلحة، وأنّ اعتذاره الدّائم إليه، إن لم يصادف هوى في نفسه هذه المرّة، فقد حكم على بقيّة حياته بالتّنغيص والتّكدير، يقول:[6]

هَذَا الثَّنَاءُ فَإِنْ تَسْمَعْ بِهِ حَسَنًا ... فَلَمْ أُعَرِّضْ -أَبَيْتُ اللَّعْنَ- بِالصَّفَدِ[7]

هَـــــا إِنَّ ذِي عِذْرَةٌ إِلاَّ تَكُنْ نَفَعَتْ ... فَإِنَّ صَاحِبَـــــهَا مُشَـــــارِكُ النَّكَدِ[8]

هذا جزاء من ضاقت به صحراؤه على سَعتها، ففرّط في حرّيته، وأنف من مدح من يستحقّ المدح من سادة العرب كفعل زهير بن أبي سلمى، وآثر صحبة الملوك وخصّهم بمدائحه، حتّى أكل في صحاف من الذّهب والفضّة، وأمّن مصلحته ومصالح قومه لدى البلاطين المتنافرين المتقاتلين، لكنّه لم يحسب حسابا لغضبات السّلطان، وتقلّبات مزاجه، وبطشه بأخصّ ندمائه لأدنى ريبة، ولا لدسائس الحسّاد ووشاياتهم؛ فجنى على نفسه

---

[1] المصدر السّابق: ص 87.

[2] أبو قابوس: كنية النّعمان بن المنذر - أنبئت: أخبرت - أوعدني: هدّدني.

[3] أثمّر: أجمع وأدّخر.

[4] لا تقذفني: لا ترميني، أراد لا تقطعني من جملتك - بركن: بجانب - لا كفاء له: لا مثيل له - تأثفك: أي أحاطوا بك إحاطة الأثافي بالنار - بالرّفد: جمع رفدة، وهي الإعانة، أي يعين بعضهم بعضا.

[5] الفرات: نهر معروف، مخرجه من أرمينية، ويصبّ ما يفضل منه في دجلة - جاشت: فارت وإرتفعت - غواربه: أعالي أمواجه - أواذيه: أمواجه، مفردها آذي - العبرين: مثنى عبر، ضفتا النهر وشطّاه.

[6] المصدر السّابق: ص 88 - 89.

[7] تسمعه: تقبله - أبيت اللّعن: تحيّة الملوك في الجاهلية - أعرّض، التّعريض: كلام يكنّى به عن شيء ممّا يستلزمه معناه - بالصّفد: بالعطاء، والمراد أردت رضاك فقط لا عطاءك.

[8] عذرة: العذر - مشارك: مخالط وملابس - النكد: قلة الخير.

بأن تبقى حياته معلّقة بكلمة عفو على جرم يزعم أنّه لم يأته، وقضى على شعره أن يظلّ موزّعا بين المدح والاعتذار، فيحظى بتقدير فنيّ كامل من أهل عصره، إذ كان حكم الشّعراء في سوق عكاظ[1]، وتقدير اجتماعي منقوص من لدنهم، لأنّه شقّ في الشّعر طريقا جديدا طريقَ الاعتذار الّذي يأباه العربيّ، لذا لم ينازعه زعامته شاعر بعده فيما نعلم.

وشاعر مدّاح آخر هو الأعشى ميمون بن قيس بن جندل البكريّ المتوفّى سنـــــة 629م، نشأ فقيرا في بلدته منفوحة من اليمامة، فهو ابن "قتيل الجوع"[2]، لذلك اتّخذ لنفسه طريقا ثالثا في المديح، حيث طوّف في شبه جزيرة العرب، ومدح الملوك والسّادة والسّوقة[3]، ما دام ذلك يوفّر له مالا ينفقه – بإسراف – على معشوقتيْه: الخمر والنّساء، وكان حرمانه منهما يزيده تعلّقا بهما؛ إذ كان فقره يحرمه – في بعض الأحيان – من معاقرة الخمرة الغالية إلاّ على الأغنياء الكرماء، وكان عَشاه وشيبه يزهّد الحِسان في صحبته.

ويبدو الأعشى – منذ مطلع معلّقته – عاشقا قد أذلّه عشق من لا تبالي به. إنّها هريرة، المرأة الوحيدة من بنات جنسها الّتي استطاعت أن توقد مشاعر الشّيخ من جديد، فيزداد بها تعلّقا، وتزداد منه تمنّعا، لذا فهو يخشى على قلبه لحظات الوداع، يقول:[4]

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟[5]

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجَى الْوَحِلُ[6]

صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا جَهْلاً بِأُمِّ خُلَيْدٍ حَبْلَ مَنْ تَصِلُ[7]

أَأَنْ رَأَتْ رَجُلاً أَعْشَـــى أَضَـــرَّ بِهِ رَيْبُ الْمَنُـــــون، وَدَهْـــرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ[8]

إنّه يعشق بياضها وغزارة شعرها وأسنانها، ومشيتها في دلالتها على هدوء طبعها وتنعّمها، ولكنّها تعرض عنه، وتتجاهل مشاعره، لأنّها لا ترى فيه إلاّ رجلا أعشى أنهكته

---

[1] ـ الشّعر والشّعراء: ص 95.

[2] ـ أبوه قيس بن جندل يدعى قتيل الجوع، لأنّه لجأ إلى غار في يوم شديد الحرارة، فوقعت صخرة كبيرة من الجبل، فسدّت مدخل ذلك الغار، فمات فيه جوعا (ينظر: الشّعر والشّعراء: ص 159).

[3] ـ كان المحلّق الكلابيّ رجلا فقيرا خامل الذّكر، فلمّا مدحه الأعشى رفعه، وتسابق الأشراف لخطبة بناته. (ينظر: العمدة 1: ص 48 - 49).

[4] ـ الأعشى ميمون: ديوان الأعشى، شرح عمر فاروق الطبّاع، دار القلم، بيروت (لبنان)، (د.ت)، ص 173 - 174.

[5] ـ هريرة: قينة كانت لبشر بن عمرو بن مرثد، وتكنّى بأمّ الخليد.

[6] ـ غرّاء: بيضاء - فرعاء: طويلة الشّعر - العوارض: ما يظهر من الأسنان عند التّبسم - الهوينا: السّير المتمهّل - الوجى: الذي حفي قدمه - الوحل: الغائص في الوحل.

[7] ـ صدّت عنّا: أعرضت - أمّ خليد: كنية هريرة.

[8] ـ ريب المنون: نوائب الدّهر - الدّهر المفند: المفسد - الخبل: فساد العقل.

الأيّام الغدّارة، ولو رأته في عنفوان شبابه وإقبال الدّنيا عليه لما توانت في وصله. لكن، لا كرامة في الحبّ، فشاعرنا مفتون بفتاته من غير إرادته، غير أنّها تحبّ رجلا آخر يحبّ امرأة أخرى، فيما تحبّه فتاة قد هام بها حبّا فتى من أهلها. ثمّ يعلمنا الشّاعر أنّ امرأة غير مناسبة له -كما يزعم - قد أحبّته. إذن، نحن أمام شبكة من العلاقات المهزوزة يغيب فيها العقل، ويحكمها الهوى؛ إذ يتعلّق الرّجل بمن تحبّ غيره، وتتعلّق المرأة بمن يحبّ غيرها، كلّهم مسلوب الإرادة، مستعذب لما هو فيه، قد انتفى في عينيه هذا التّناقض الفاضح، وتساوي القريب والبعيد، والصّيّد والصّيّاد، لذا يتجاهل الأعشى غيرته ويأسه، ويحاول أن يتقرّب من معشوقته من جديد، لكنّها تصدّه في جفاء وازدراء، فهي تخاف عليه وتخاف منه، يقول:[1]

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا، وَعَلِّقَتْ رَجُلاً ... غَيْرِي، وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ[2]

وَعُلِّقَتْهُ فَتَاةٌ مَا يُحَاوِلُهَا ... مِنْ أَهْلِهَا مَيِّتٌ يَهْذِي بِهَا وَهِلُ[3]

وَعُلِّقَتْنِي أُخَيْرَى مَا تُلاَئِمُنِي ... فَاجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ تَبِلُ[4]

فَكُلُّنَا مُغْرَمٌ يَهْذِي بِصَاحِبِهِ ... نَاءٍ وَدَانٍ، وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبِلُ[5]

قَالَتْ هُرَيْرَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا: ... وَيْلِي عَلَيْكَ، وَوَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ

إنّ شاعرنا يعجب لما يحدث له مع صاحبته بعد شباب حافل بمجالس اللّهو والطّرب والنّساء، فكأنّه لا يستسيغ هذا الإخفاق في الحبّ على الرّغم من طول أسفاره في البلاد وكثرة تجاربه في الحياة، فيعاوده الحنين إلى مجالس أنسه يغرق فيها إخفاقاته، يقول: [6]

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَانُوتِ يَتْبَعُنِي ... شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ [7]

فِي فِتْيَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا ... أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحِيَلُ

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئًا ... وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ[8]

---

[1] المصدر السّابق: ص 175.
[2] العلاقة: الحبّ - عرضا: من عرض له كذا، أتاه على غير قصد.
[3] الوهل: ذهاب العقل.
[4] التبل، من تبّله: ذهب بعقله.
[5] حبل الصّيّد: أخذه في الحبالة، فالصّيّد محبول – واحتبل الرّجل الصّيّد: أخذه في الحبالة، فالصّائد محتبل.
[6] المصدر السّابق: 177.
[7] الحانوت: الخمّارة - الشّاوي: الذي يشوي اللّحم - المشل: سوّاق الإبل - الشّلول: الخفيف - الشّلشل: السريع في العمل - الشول: الذي يحمل الأشياء.
[8] القهوة: الخمر - الرّاووق: الإناء الذي تروق فيه الخمر - خضل: مخضّل بالنّدى.

وَمُسْتَجِيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرَجِّعُ فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ[1]

مِنْ كُـــلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِـــــهِ وَفِي التَّجَـــارِبِ طُولُ اللَّهْوِ وَالْغَزَلُ

لم يصف الأعشى الخمرة للتّفاخر بالغنى والكرم وتبذير المال في لحظات اللّهو، كما فعل شعراء عصره في البيت والبيتين، ولكنّه وصفها وصف العاشق المدلّه في جملة من الأبيات كان يقحمها في قصائده، وما ذكرها إلا في مجلس أنس متكامل يضمّ رفاق الشّرب من الشّباب الكرام، وشاويا، وساقيا، وآلات الطّرب كالعود والصّنج، وقينة مغنيّة، وخمرة عتيقة، وشعرا رقيقا من نظمه؛ إنّها هالة تليق بمعشوقته الّتي تفانى في حبّها حتّى أفنته.[2]

هكذا أمضى شاعرنا شبابه مغتنما اللّذات، يقضي أيّامه في اللّهو والغزل، تلك الأيّام التي لم تخلُ من التّجارب ولحظات الجدّ، وبخاصّة إذا تحرشّ به أو بقومه أحد الجاهلين، فينبري له بلسانه الحادّ الذي كان يرفع به الوضيع، ويضع الرّفيع؛ فيخاطبه ساخرا حينا، ومتوعّدا حينا، ومفتخرا عليه بالأيّام حينا آخر، كفعله لمّا هجا يزيد بن مسهر الشّيباني أحد زعماء بكر يوم ذي قار[3]، يقول:[4]

أَبْلِغْ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْلُكَةً أَبَا ثُبَيْتٍ! أَمَا تَنْفَكُّ تَأْتَكِلُ[5]

أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِنَا وَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الإِبِلُ[6]

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيَفْلِقَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعِلُ

كَلاَّ زَعَمْتُمْ بِأَنَّا لاَ نُقَاتِلُكُمْ إِنَّا لأَمْثَالِكُمْ، يَا قَوْمَنَا، قُتُلُ[7]

قَالُـــوا الرُّكُوبَ! فَقُلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا أَوْ تَنْزِلُـــونَ، فَإِنَّـــا مَعْشَرٌ نُزُلُ[8]

إنّه شاعر القبيلة في اللّحظة الشّائكة يسالم من يسالمها، ويعادي من يعاديها، لا يرضى أن يمسّ شرفها، أو يشكّك في مجدها الّذي هو كالصّرح رفعة وصلابة، فهيهات

---

[1] المستجيب: العود يجيب صوت الصّنج - الصّنج: دوائر نحاسية صغيرة تمسك بأصابع اليد، ثمّ يصفق بها الواحدة على الأخرى - القينة: المغنيّة - الفضل التي تلبس ثوبا واحدا فتبدو مبتذلة.

[2] قيل إنّه مات وهو عائد إلى بلدته منفوحة لشرب خمرة باقية قبل إسلامه (ينظر: الشّعر والشّعراء: ص 159)

[3] ذو قار: إسم ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، وسبب واقعة ذي قار أنّ كسرى غضب على النّعمان وقتله، ثمّ طالب هانئ بن قبيصة الشّيباني بودائع النّعمان، فرفض تسليمها له، فجهّز كسرى جيشا كثيفا من الفرس والعرب الموالين له، والتقى بالبكريّين وحلفائهم الذين استبسلوا في القتال وهزموا جيشه شرّ هزيمة، وكان ذلك في صيف 610 م أو 611م، وقد قيل إنّ النّبي صلّى الله عليه وسلّم لمّا سمع بهذه الواقعة، قال: اليوم أوّل يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبي نصروا. (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص 230-231).

[4] المصدر السّابق: ص 177 - 179.

[5] المألكة: الرّسالة - تأتكل: من الإتتكال وهو السّعي بالفساد.

[6] الأثلة: الشّجرة، وهي كناية عن الأصل والمجد العريق، ونحت أثلتنا: ذمّنا وتنقصنا - أطت الإبل: أنّت من شدّة التّعب.

[7] قتل: قاتلون، وهي جمع قتول.

[8] تنزلون: أي تنزلون عن خيولكم لمقاتلتكم بالسّيوف.

أن ينال منه قرن وعل جاهل! فمن أراد أن يكون ندّا للصّخرة الرّاسخة وضدّا لها خاب وانهزم، وبقيت هي مكانها لم يصبها شيء. فقوم الأعشى أصحاب مجد مؤثّل وأيّام كثيرة لا تجهلها العرب، لأنّهم متمرّسون على القتال، أكفّاء لأعدائهم، يحسنون فنون الصّراع: من مطاردة علىٰ الخيل بالرّماح، أو منازلة بالسّيوف على الأرض، وتانك ميزتا الفارس العربيّ.

ولقد قضى الأعشى أواخر سني حياته في جدّ يتخلّله بين الفينة والفينة حنين إلى مجالس الأنس لمعاقرة الخمرة ومواصلة النّساء، ومن جدّه ذاك إقباله على دعوة جديدة ظهرت بمكّة، يدعو إليها رجل من قريش يسمّى محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب صلّى الله عليه وسلّم، فأتاه مسلما ومادحا بقصيدة حافلة بالتّضاد الّذي اتّخذه أداة للتّعبير عن تناقضات حياته كلّها وعدم قرارها على حال طيّبة، يقول:[1]

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا ... وَعَادَكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا[2]

وَمَا ذَاكَ مِنْ عِشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا ... تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خُلَّةَ مَهْدَدَا[3]

وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَاتِرٌ ... إِذَا أَصْلَحَتْ كَفَّايَ عَادَ فَأَفْسَدَا[4]

شَبَابٌ وَشَيْبٌ، وَافْتِقَارٌ وَثَرْوَةٌ ... فَلِلَّهِ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا

وَمَـــــا زِلْتُ أَبْغِي الْمَالَ مُذْ أَنَا يَافِعٌ ... وَلِيـــــدًا وَكَهْلاً حِينَ شِبْتُ وَأَمْرَدَا[5]

وكما هو واضح، فالتّضاد يشيع في القصيدة منذ مطلعها في قوله: "السّليم" الّذي يطلق على الملدوغ تفاؤلا بشفائه، أصلح وأفسد، شباب وشيب، افتقار وثروة. إنّه يعرض علينا خلاصة حياته بجميع مراحلها في إيجاز بليغ كفله له الطّباق، لذلك لم يتخلّ عن التّوسّل به في مدحه للنّبي محمد صلّى الله عليه وسلّم، والإشارة إلى الدّين الجديد الّذي يدعو إليه، حاثّا ناقته للوصول إليه، يمنّيها ويمنّي نفسه بالرّاحة بعد التّعب، وبالنّوال بعد الحرمان، وبالرّشاد بعد الغيّ، وبالتّزوّد بالصّلاح إلى حياة أخرى بعد انحسار أمل

---

[1]ـ المصدر السّابق: ص 59 - 60.
[2]ـ الأرمد: الذي يعاني من رمد في عينيه - السّليم: الذي لدغه عقرب أو حيّة، وقيل لهذا الملدوغ "السّليم" من باب التفاؤل - المسهّد: الأرق الذي لا ينام.
[3]ـ الخلّة: المودّة والصّداقة - مهدد: اسم إمرأة.
[4]ـ الدّهر الخاتر: الغادر.
[5]ـ اليافع: الذي يكون في سنّ العشرين - الوليد: الصّبيّ - الأمرد: الذي لم ينبت شعر لحيته.

الجاهليّين في حياة واحدة يتربّص بها الموت في كلّ حين، وذلك ما زاد من تيه الإنسان العربيّ واضطراب حاله في صحرائه الشّاسعة، يقول:[1]

فَآلَيْتُ لاَ أَرْثِي لَهَا مِنْ كَلاَلَةٍ ... وَلاَ مِنْ حَفًى حَتَّى تَزُورَ مُحَمَّدَا[2]
مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ٱبْنِ هَاشِمٍ ... تُرِيحِي وَتَلْقَيْ مِنْ فَوَاضِلِهِ يَدَا[3]
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَذِكْرُهُ ... أَغَارَ، لَعَمْرِي، فِي الْبِلاَدِ وَأَنْجَدَا[4]
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تُغِبُّ، وَنَائِلٌ ... وَلَيْسَ عَطَاءُ الْيَوْمِ مَانِعَهُ غَدَا[5]
أَجِدَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ ... نَبِيِّ الإِلَهِ، حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا[6]
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَلاَقَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لاَ تَكُـــــونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَــا كَــانَ أَرْصَــدَا[7]

ويبدو لنا أنّ الأعشى كان يبغي بالإسلام حسن الختام، لكنّ سادة قريش حالوا بينه وبين ما يريد، خوفا من نصرته للنّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، فاعترض طريقه زعيمهم أبو سفيان بن حرب، وساومه على عزمه ذاك بمائة من الإبل وبتخويفه من تحريم الخمر عليه في الدّين الجديد، فقبل عرضه، وعاد إلى بلدته منفوحة، فمات بناحية اليمامة.[8]

وهناك شاعر معاصر للأعشى كان أوفر حظّا منه، إذ كان نقيضه في كلّ شيء، في بداية حياته وفي نهايتها، ذاك هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامريّ المتوفّى سنة 661م (41هـ)، كان سيّدا في قومه؛ فأبوه يقال له ربيعة المقترين لسخائه[9]، وعمّه أبو براء عامر ابن مالك يلقّب ملاعب الأسنّة، إذ كان من فرسان العرب وسادتهم[10]. وكان لبيد شاعر القبيلة وخطيبها في الحرب وفي السّلم؛ فهو في السّلم رجل جواد منفق لماله على المحتاجين ما هبّت الصّبا[11]، وهو في الحرب فارس شجاع شديد البأس يذود عن قبيلته بكلّ

---

[1] المصدر السّابق: ص 60 - 61.
[2] الكلالة: الإعياء وشدّة التّعب - حفى: تلطّف في السّؤال عنه.
[3] هاشم جدّ الرّسول محمّد (ص) - تريحي: تستريحي - الفواضل: العطايا.
[4] الغور: ما إنخفض من الأرض - أنجد: سار متّجها إلى النّجاد أي الأعالي والمرتفعات، والمراد إرتفع ذكره وإشتهر.
[5] ما تغبّ: ما تنقطع - النّائل: العطاء.
[6] أجدّك: أحقّ ما تقول ؟.
[7] أرصد له الشّيء: أعدّه وهيّأه له.
[8] الشّعر والشّعراء: ص 159.
[9] - المصدر نفسه: ص171.
[10] - المصدر نفسه: ص173.
[11] - المصدر نفسه: ص172.

ما أُوتي من قوّة. وتمثّل معلّقته عزّة العربيّ وكرمه وفروسيته، مما يدلّ على أنه لم يتكسّب بشعره.

ولقد بدأ لبيد معلّقته بداية تقليدية -كعادة شعراء الجاهلية- بالوقوف على آثار الديار الدّارسة التي كشفت السّيولُ عمّا بقي منها، فبدت كبقايا كتابات أقوام بائدة، فوقف يسألها سؤال الطّامع اليائس عن حفظها لذكريات صاحبته نوار التي حرمه وصالها الزّمان والمكان، يقول[1]:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحِلُّهَا فَمُقَامُهَا ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرِجَامُهَا[2]

وجَلاَ السُّيُولَ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَهَا أَقْلاَمُهَا[3]

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وكَيْفَ سُؤَالُنَا ... صُمًّا خَوَالِدَ ما يُبِينُ كَلاَمُهَا[4]

بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارَ وقَدْ نَأَتْ ... وتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا[5]

ثمّ ما له يحرص على صداقته لنوار على بعد الزمان والمكان بينهما، وهي لا تأبه له ؟ ألم تكن تعرف عزّة نفسه وإباءه الهوان حتّى في الحبّ ؟ إنّه لن يبقى أسير الذّكريات، وقد عوّد نفسه على أن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها. وهو ليس بالرّجل الفارغ الخامل الذي تتوقف عجلة حياته لأجل حبّ فاشل لا حاضر له ولا مستقبل، فسيركب ناقته النّشيطة التي أهزلها كثرة الأسفار وطول التّطواف في البلاد، حيث الأمل الجديد في استمرار الحياة ينكشف من بين أردية السّراب، فيبذل أقصى طاقته ليحقّق مبتغاه، يقول[6]:

فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ ... وَلَشَرُّ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُهَا[7]

بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً ... مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وسَنَامُهَا[8]

---

[1] - ديوان لبيد بن ربيعة: ص163-166.

[2] - عفت: اندرست وانمحت- المحلّ من الدّيار: ما حلّ فيه لأيام معدودة- والمقام منها: ما طالت الإقامة به- منى: موضع قريب من طخمة وليس بمنى مكّة- تأبّد: توحّش- الغول والرّجام: جبلان معروفان.

[3] - جلا: كشف- السّيول: جمع سيل- الطّلول: جمع طلل، وهو الشاخص من آثار الدّيار- الزّبر: جمع زبور وهو الكتاب- تجدّ متونها: تجدّدها- المتون: جمع متن، ومعناه في الأصل الظّهر، والمراد بها هنا الكتابة التي تكون في الزّبر.

[4] - الصّمّ: الصّلاب، جمع أصمّ للذّكر وصمّاء للمؤنث- الخوالد: البواقي- ما يبين: ما يظهر.

[5] - نوار: اسم امرأة- النّأي: البعد- الرّمام: جمع الرّمّة، وهب قطعة من الحبل خلقة ضعيفة، والأسباب الحبال ومفرده سبب، والمراد الصّلات القوية والضّعيفة.

[6] - المصدر السّابق: ص167-174.

[7] - اللبانة: الحاجة- تعرّض: تعذّر- الخُلّة: المحبّة والصّداقة التي لا خلل فيها- الصّرّام: القطّاع من الصّرم وهو القطع.

[8] - الطّليح: النّاقة المتعبة المعيبة- الإحناق: الضّمر- أسفار: جمع سفر.

فَبِتُّكَ إِذْ رَقَصَ اللَّوَامِعُ بِالضُّحَى وَٱجْتَابَ أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامُهَا[1]

أَقْضِي اللُّبَانَةَ لا أُفَرِّطُ رِيبَةً أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةٍ لَوَّامُهَا[2]

لقد أخطأت نوار تقدير أخلاقه! إنّه عزيز النّفس، حاسم في علاقته بالمكان أو بالنّاس، لا يرتبط بمنزل أو يُبقي على ودّ إنسان ما لم ينزل منهما على الرّحب والسّعة، وإلا فهي القطيعة؛ إذ لا يرغمه على ما يأباه لنفسه إلا الموت. ثمّ إنّه كريم يسخو بماله على ندمائه بشراء الخمر حين تعزّ وتغلو والاستمتاع بالشّرب والغناء في اللّيلة الرّائقة الهواء. أمّا في اللّيلة الباردة حين تهبّ ريح الشّمال، ويشتدّ البلاء على النّاس، فإنّه يتصدّى لها بنحر خيار نوقه لدفع الجوع والقرّ عنهم. وهو لا يحمي قبيلته بماله فقط، بل يبذل نفسه للذّود عنها، فيمتطي فرسه بكامل سلاحه، ويخرج إلى أعالي الجبال يستطلع أخبار الأعداء، ويرقب تحرّكاتهم، حتّى إذا غربت الشّمس، وجنّ اللّيل، هبط إلى السّهل بفرسه القويّة فانطلقت من إسارها تسابق النّعام حتّى اضطربت رحالتها من فرط عدوها، وتصبّب عنقها بالعرق، فابتلّ حزامها، يقول[3]:

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بِأَنَّنِي وَصَّالُ عَقْدِ حبائلٍ جَذَّامُهَا[4]

تَرَّاكُ أَمكِنَةٍ إِذا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَعتَلِقْ بعضَ النّفوس حِمَامُهَا[5]

بَل أَنتِ لا تَدرِينَ كَمْ مِنْ لَيلَةٍ طَلْقٍ لذيذٍ لَهْوُهَا ونِدَامُهَا[6]

قد بتُّ سامرَهَا وغايةَ تَاجِرٍ وافَيْتُ إِذْ رُفِعَتْ وعَزَّ مُدامُهَا[7]

وغَدَاةَ ريحٍ قد وَزِعْتُ وقِرَّةٍ إِذْ أَصبحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا[8]

ولقد حَمَيْتُ الحَيَّ تَحمِلُ شِكَّتِي فُرُطٌ وِشَاحِي إِذْ غَدَوتُ لِجَامُهَا[9]

فعَلَوْتُ مُرتَقَبًا على ذِي هَبْوَةٍ حَرِجٍ إِلَى أَعلامِهِنّ قَتَامُهَا[10]

---

[1] - فبتلك: الإشارة إلى ناقته- رقص: اضطرب- اللوامع: جمع لامعة، وأراد بها الآل وهو الذي يراه الإنسان في الضّحى وآخر النّهار كأنّه يرتفع وينحطّ- اجتاب: لبس الأردية، جمع رداء- السّراب: ما يراه الإنسان عند اشتداد الحرّ كأنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وهو يكون لاصقا بالأرض- الأكام: الأماكن الرتفعة من الأرض، ومفردها أكمة.

[2] - التفريط: التضييع وتقدمة العجز- الرّيبة: الشكّ والتهمة، وأصل معناها قلق النفس- اللوّام: الكثير اللوم.

[3] - المصدر السّابق: ص175-177.

[4] -الحبائل: جمع الحبالة، وهي مستعارة للعهد والمودة هنا -الجذم: القطع.

[5] -يعتلق: يتعلق-الحمام: الموت.

[6] -ليلة طلق وطلقة: ساكنة لا حر فيها ولا قر- الندام: المنادمة.

[7] -الغاية: راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه- وافيت المكان: أتيته- المدام والمدامة: الخمر.

[8] -القرة والقر: البرد- الشمال: أبرد الرياح- وزعت: كففت وأزلت الجوع بالقرى- زمامها: أمرها.

[9] -الشّكّة: السلاح- الفرط: الفرس المتقدمة السريعة الخفيفة .

[10] -المرتقب: المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب-الهبوة: الغبرة- الحرج: الضيق جدا- الأعلام: الجبال والرايات- القتام: الغبار.

حتّـــى إذا أَلْقَتْ يَـــدًا في كـــافِـرٍ ... وأَجَنَّ عـورات الثُّغُـــور ظلامُهـا[1]

أَسْهلتُ وانْتَصبَتْ كجِـــذْعِ مُنِيفَـــةٍ ... جَرداءَ يَحْصَرُ دُونَهـا جُرَّامُهـــا[2]

رَقَعْتُهـــا طَـرْدَ النَّعَـــام وشَلَّـهُ ... حتّى إذا سَخِنَـتْ وخَفَّ عِظامُهـا[3]

قَلِقَتْ رِحَـالَتُهَـــا وأَسْبَلَ نَحْرُهـــا ... وأُبتلَّ مِن زَبَدِ الحَمِيـــمِ حِزامُهـــا[4]

وهذا الكرم الفائق وهذه الفروسية العالية هما محل فخار واعتزاز كل عربي أصيل، وقد يصبحان مجالا للمناظرة والمزايدة بين وفود العرب المتفاخرة عند الملوك التي يُؤَمّل نوالها وتُتَجَنَّب زرايتها؛ وهنا يتأخر السيف والسنان، وتتقدم ملكة اللسان وحسن البيان لإفحام الخصم القوي اللّدود واستمالة الحَكَم، فلا يكفي-في عرف العرب-تحقيق المجد بالسيف والمال، بل يجب الحفاظ عليه، والدفاع عنه بالحجّة الدّامغة التي تدحض الباطل وتحقّ الحق ولو كره الكارهون. ولشاعرنا ولسادة قومه القدح المعلّى والكلمة الفصل في كل مجلس مفاخرة، يقول:[5]

وكَثِيرَةٍ غُرَبـاؤُهـــا مَجهُـــولَـــةٍ ... تُرْجَـــى نَوَافِلُهـــا ويُخشَى ذَامُهـــا[6]

غُلْبٌ تَشَـــذَّرُ بالذُّحُـــولِ كأَنّهـــا ... جِنُّ البَـــدِيِّ رَواسِيـــًا أَقْدَامُهـــا[7]

أَنْكَرْتُ بَـاطِلَهـــا وبُؤْتُ بِحَقِّهـــا ... عندي، ولم يَفْخَـــرْ عَلَيَّ كِرَامُهـــا[8]

إِنَّا إِذا الْتَقَتِ الْمَجَـــامِـــعُ لم يَـــزَلْ ... منَّـــا لِزَازُ عَظِيمةٍ جَشَّـــامُهَـــــا[9]

وهذا المجد ليس مُحدَثا، ولم ينشأ من فراغ، وإنّما هو وليد تقاليد مطّردة يتوارثها سلالة من الأماجد يحافظون على الإرث، ويضيفون إليه من الفضائل الدائمة التي تعمّ قومهم والناس جميعا. وهذا الموقع السّامي في القبيلة يفرض على سراة القوم أن يكونوا

---

[1]-الكافر: الليل، والكفر الستر، والإجنان الستر أيضا- العورات: جمع عورة، وهي الخلل في الثغر وغيره يخاف أن يأتي منه العدو- الثغور: مواضع المخافة.

[2]-أسهلت: نزلت إلى السهل- المنيفة: العالية الطويلة -جرداء: متجردة من النقصان- يحصر: يضيق صدره- الجرام: جمع جارم وهو الذي يقطع الثمر من النخل.

[3]-الشل والشلل: الطرد.

[4]-القلق: سرعة الحركة- الرحالة: شبه سرج يتخذ من جلود الغنم بأصوافها-أسبل: أمطر- الحميم: العرق.

[5]-المصدر السابق ص 177- 179.

[6]-وكثيرة: أي رُبّ قبة كثيرة غرباؤها، وأراد بها قبة النعمان ابن المنذر- مجهولة: أي مجهولة غواقبها- نوافلها: عطاياها، جمع نافلة- يخشى: يخاف- الذام: العيب. يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي نديم النعمان بن المنذر، والتي انتهت بسقوط منزلته عنده. (ينظر: العمدة1: ص 51-52)

[7]-الغلب: الغلاظ الأعناق- تشذر: تهيأ للقتال- الذحول: الأحقاد، الواحد ذحل- البدي: موضع- الرواسي: الثوابت.

[8]-بؤت بحقها: أقررت به.

[9]-اللزاز من لز به: قرن، ولزاز عظيمة: ملازم لها، موكل بها، قادر عليها- الجشام: المتكلف من الأمور ما فيه عسر ومشقة

قدوة لغيرهم في أخلاقهم، وفي سبقهم إلى أبواب الفضل بأداء المسؤوليات والواجبات الثقيلة. فهم يقسمون الغنائم على أفراد القبيلة بالعدل، لا يجورون على حق أحد، لأنهم الأحرص على أداء الأمانة إلى أهلها. وهم أهل جود يفعلونه ويعينون غيرهم عليه، ويجتهدون في كسب المعالي، لذلك كانوا للجار وللمحتاج وللأرملة بمثابة الربيع الذي يرتمون في أحضانه، ويصيبون من خيراته العارمة. فإذا نزل بالقبيلة مكروه عظيم من أعدائها، كانوا فرسانها البواسل في الحرب، وقضاتها الحكماء عند نشوب الخصومات داخلها في أوقات السلم، وذلك ليَقضُوا قضاء مبرما على شماتة الحساد وغدر اللئام. إنهم النتاج الصالح لتربية الآباء الأماجد الذين يقتدون بهم دوما، لذلك لا يعقل أن يستسلموا يوما لأهوائهم، فيرتكبوا الدنايا والسفاهات التي تدنس العرض، وتلطخ الشرف بالعار. وهذا التوفيق الدائم لصالح الأعمال وعظائم الأمور، إنما مردّه إلى توفيق ربّ السماء مقسم الأرزاق بين الناس؛ فقد اصطفاهم صغارهم وكبارهم بالرفعة والسّموّ والسؤدد، وقضى لعدوهم بالانحطاط والصَّغَار والدّونية، يقول[1]:

ومُقَسِّمٌ يُعطِي العَشيرَةَ حَقَّهَا ... ومُغَذْمِرٌ لِحُقُوقِهَا هَضَّامُهَا[2]

فُضْلاً وذُو كَرَمٍ يُعِينُ على النَّدَى ... سَمْحٌ كَسُوبُ رَغَائِبٍ غَنَّامُهَا[3]

مِنْ مَعشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ ... ولِكُلِّ قَومٍ سُنَّةٌ وإِمامُهَا[4]

لاَ يَطْبَعُونَ ولا يَبُورُ فَعَالُهُمْ ... إِذْ لا يَمِيلُ مع الهَوَى أَحلامُهَا[5]

فبَنَى لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمْكُهُ ... فَسَمَا إِلَيهِ كَهْلُهَا وغُلامُهَا[6]

فَأَقْنَعْ بِمَا قَسَمَ المَلِيكُ فإِنَّمَا ... قَسَمَ الخَلائِقَ بَيْنَنَا عَلاَّمُهَا[7]

وإِذَا الأَمَانَةُ قُسِّمَتْ في مَعشَرٍ ... أَوْفَى بِأَوْفَرِ حَظِّنَا قَسَّامُهَا[8]

---

[1]- المصدر السابق: ص179-180.

[2]- المقسّم: مقسّم الغنائم- التغذمر والغذمرة:التغضّب مع همهمة- الهضم: الكسر والظلم.

[3]- الندى: الجود- الرّغائب: جمع الرغيبة وهي ما رغب فيه من علق نفيس او خصلة شريفة أو غيرهما- الغنّام: مبالغة الغانم.

[4]- السّنّة: الطريقة- الإمام: المثال الذي يقتدى به ويسار بهديه.

[5]- الطبع: تدنس العرض وتلطخه- البوار: الفساد والهلاك-

[6]- سمكه: سقفه، وأراد أنه رفيع شرفه- سما: علا وارتفع- كهلها وغلامها: كبيرها وصغيرها

[7]- الخلائق: جمع خليقة، وهي السجية والطبيعة- العلام:هو الله تبارك وتعالى.

[8]- معشر: قوم – أوفى : وفى و لم ينقص، و الوفور: الكثرة – بأوفر حظنا: أي بأكثره و أتمه.

وهُمُ السُّعَـــــاةُ إذا العشيـــرةُ أُفْظِعَتْ وهُمُ فوارسُهـا وهُمْ حُكّامُهـــــا[1]

وهُـــمُ رَبيـعٌ لِلْمُجَـــاوِرِ فيـــهِمُ والمُرْمِلاتِ إذا تَطـــاوَلَ عامُهـــا[2]

وهُمُ العشيـــرةُ أنْ يُبَطّـــئَ حَاسِـــدٌ أو أنْ يَمِيـــلَ مع العَدُوِّ لِئَـامُهـــا[3]

وبالنظر إلى ما اشتملت عليه معلقة لبيد بْن ربيعة العامري من قيم عربية أصيلة، فإن الشاعر قد نجح- بامتياز- في أن يقدّم لنا صورة صادقة لحياة العربي في صحرائه الشاسعة التي كانت تهدد ساكنيها بالموت في موسم القرّ وسني الجدب، حتى إذا نزل الغيث وُهِبتْ لهم الحياة من جديد. وقد أكسبت تلك الطبيعة القاسية العرب جفاء في الطباع، وشراسة في القتال، ولكنهم قاوموها وضادّوها بأخلاقهم السمحة؛ فواجهوا القحط والجوع بالخصوبة في قرى الضيف، وإطعام المحتاج، وإغاثة الملهوف، وإجارة الضعيف.

وإذا كانت ثنائية الحياة والموت غالبة على تفكير هؤلاء العرب، فإن هاجس الموت لم يسيطر عليهم إلى الحد الذي يمنعهم من الحياة الطبيعية الآمنة، متى لم يكلفوا أنفسهم الغارة على جيرانهم، أو الثأر من أعدائهم.

وكان العربي- في صحرائه الموحشة-يحس بالحرية والعزة والمنعة، فلم يغبط سكان الحواضر على أمنهم ووفرة خيرات بلادهم، إذ كان يرى في مثل تلك الحياة الآمنة الوداعة مدعاة للجبن والكسل والترهّل وبلادة الحواس! فالحياة في البادية، بما يحفها من كوارث طبيعية ومخاطر الوحوش الضارية في الفلوات، مدعاة لتيقظ الحواسّ، وتوقد الذكاء المتكيف مع البيئة القاهرة.

وقد اعتزّ العرب-في شبه جزيرتهم-بما لديهم من شعر وخطابة وأيام ومعتقدات، وزهدوا في الأخذ من حضارة الفرس أو حضارة الروم اللتين كانتا تعدّانهم قوما جفاة، همجا، أجلافا، يعيشون على هامش الحضارة. من هنا، كان العرب في حاجة إلى دفعة قوية لم تتوفر في الأرض، وإنما كان يجب أن تتنزّل عليهم من السماء، لتنقلهم نقلة جوهرية من البداوة إلى الحضارة، وتجعلهم يقفون بموازاة تينك الحضارتين المجاورتين

---

[1]- السعاة: الساعون بأمرها القائمون بحاجاتها- أفظعت: دهيت بأمر فظيع.

[2]- ربيع: أي أهل خير لمن يجاورهم- المرملات: النساء اللاتي فني زادهن ولم يبق معهن طعام- تطاول عامها: امتد عام أرمالها وفناء زادها.

[3]- وهم العشيرة: أي هم متوافقون متعاضدون.

اللّتين بدأ ينتابها التّفسّخ والانحلال الّذي يصيب الحضارات قبل أن يأفل نجمها وتزول.

ودار الزمان دورته، لتبدأ تباشير الدّين الجديد في الظّهور بالتّغيير المرتقب الّذي سيُزلزل حياة العرب الرّتيبة، في مكّة حيث الكعبة محجّة القبائل العربيّة، على يد النّبيّ العربي محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب بن هاشم من قريش سادة العرب.

الفصل الثالث:
التضاد
في
شعر الدعوة الإسلامية
أيّام الرسول صلى الله عليه وسلم

لقد جاء الإسلام ليملأ نفوس العرب والبشرية جمعاء بالعقيدة الصحيحة القائمة على توحيد الله عزّ وجلّ بالعبادة، والإيمان بالبعث والحساب، ولِيَمحُوَ ما فيها من عقيدة فاسدة باهتة تشوبها الخرافات والأساطير، وجاء كذلك ليُثبِّت أخلاقا كريمة اعتزّ بها العرب كالشّجاعة والكرم وإباء الضّيم وإغاثة الملهوف وإجارة الضّعيف، ويوجّهها الوجهة القويمة، ولينهى عن موبقات اقترفوها كشرب الخمر والقمار والزّنا والرّبا وغيرها.

ولمّا جهر محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب-صلى الله عليه وسلم- بدعوة الإسلام في مكّة، قابله قومه من قريش-وبخاصّة سادتها-بالاستهزاء والأذى له ولأصحابه المؤمنين، لأنّهم فهموا أنّه يهدّد كيانهم بالزّوال، ويقوّض سلطانهم الدّينيّ والاقتصاديّ لدى القبائل العربيّة.

وحين كَثُرَ الأذى، وطالت المعاناة، وفرغ الصّبر، أذن الله تعالى لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم بالهجرة إلى المدينة المنوّرة، حيث كان أهلها من الأوس والخزرج أنصاره الجدد في انتظاره، فبني مسجده، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وبدأ المجتمع الجديد يتشكّل أمام أعين اليهود الذين فقدوا الأمل في أن يكون النّبيّ منهم، وتزعزع وجودهم السّياسيّ والاقتصاديّ القائم على إثارة النعرات القبليّة بين الأوس والخزرج، والإثراء من تجارة السّلاح والمؤن للحيّين المتقاتلين، فبدأوا يكيدون للإسلام، ويحرّضون سادة مكّة للقضاء عليه[1]. وأخذت قريش تناوش الرّسول صلى الله عليه وسلم في معقله الجديد، وتسلّط عليه شعراءها ينهشون عرضه، حتى ضاق بهم ذرعا، ولمّا أخبره الشّاعر حسّان بن ثابت أنّ أبا سفيان بن الحارث هجاه، واستأذنه في هجائه، قال له النّبيّ صلى الله عليه وسلم: فكيف تصنع بي؟ فقال: أسلّك منهم كما تسلّ الشّعرة من العجين! فقال له: اهجهم وروح القدس معك، واستعن بأبي بكر، فإنّه علاّمة قريش بأنساب العرب[2] . فانبرى حسّان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، فعدّه لصيقا حقيرا في أرومة آل هاشم الأماجد، ونعته بأنّه أوهن فرع في هذه الدّوحة العظيمة التي ازدادت شرفا بابنها محمّد بن عبد الله بن عبد

[1] سعد زغلول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)،ط. 1976، ص 373- 374.
[2] جمهرة أشعار العرب: ص 30.

المطّلب صلى الله عليه وسلم ، يقول:[1]

لقد عَلِمَ الأَقْـــوَامُ أَنَّ ٱبْنَ هَـــاشِمٍ ... هو الغُصْنُ ذو الأَفنانِ لا الوَاحِدُ الوَغْـدُ[2]

وما لَكَ فِيـــهِمْ مَحْتِـدٌ يَعرِفُـــونَهُ ... فدُونَكَ فَٱلْصَقْ مِثْـــلَ ما لَصِقَ القُرْدُ[3]

وإِنَّ سَنَـــامَ المَجْدِ مِن آلِ هَـــاشِمٍ ... بَنُـو بِنْتِ مَخْـــزومٍ ووالِدُكَ العَبْـــدُ[4]

وأَنتَ زَنِيـــمٌ نِيـطَ في آلِ هَـــاشِمٍ ... كما نِيـــطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ القَدَحُ الفَرْدُ[5]

ويبدو أنّ حسّانا قد امتلأ قلبه بالإيمان-كبقية الأنصار- قبل أن يحل الرّسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، نلمس ذلك من خلال تجاوبه مع الهاتف الذي بشّرهم بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر الصّديق رضي الله عنه يوم هجرته، فهو سعيد لأنّ حامل النّور والهدى والطّهارة حلّ بيثرب فصار اسمها المدينة المنورة، وبقيت مكّة في دنسها وضلالها، وشتّان بين المهتدي والضّالّ؛ ولا سبيل للنّجاة إلاّ بتصديق هذا النّبيّ الذي يعلم -بفضل كتاب الله تعالى وبما أطلعه عليه من غيبه- مالا تصل إليه عقول الناس، يقول حسّان في قصيدة حافلة بالتّضادّ بين أهل الهدى وأهل الضّلال:[6]

لَقَدْ خَـــابَ قَوْمٌ غَـــابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقُدِّسَ مَنْ يَسري إِلَيـــهِمْ ويَغْتَـــدِي[7]

تَرَحَّـــلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُـــهُمْ ... وَحَـــلَّ على قَـــومٍ بنُـــورٍ مُجَدَّدِ

هَدَاهُـــمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلالَـــةِ رَبُّـــهُمْ ... وَأَرْشَدَهُمْ، مَنْ يَتَّبِـــعِ الْحَـــقَّ يَرْشُدِ

وَهَلْ يَسْتَـــوِي ضُلاَّلُ قَوْمٍ تَسَفَّـــهُـــوا ... عَمًـــى وهُـــدَاةٌ يَهْتَـــدُونَ بِمُهْتَدِ[8]

نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَـــرَى النَّـــاسُ حَوْلَهُ ... ويَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِـــي كلِّ مَسجِـــدِ

وإِنْ قَـــالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَـــةَ غَـــائِبٍ ... فَتَصديقُهَا في اليومِ أَو في ضُحى الغَدِ[9]

لِيَهْنِ أَبَـــا بَكْرٍ سَعَـــادَةُ جَـــدِّهِ ... بِصُحبتِـــهِ، مَنْ يُسعِـــدِ اللَّـــهُ يَسْعَدِ[10]

---

[1] ـ حسّان بن ثابت: شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ، عبد الرّحمن البرقوقيّ، دار الأندلس، بيروت (لبنان)،ط. 1980، ص 215- 216.

[2] ـ ابن هاشم هو الغصن ذو الأفنان يعني الرّسول (ص) -الواحد الوغد: يريد أبا سفيان بن الحارث-الوغد: الرّذل الدّنيء، والوغد الخادم الذي يخدم بطعام بطنه.

[3] ـ القُرد: جمع قِراد وهو دويبة معروفة تعضّ الإبل- الملصق: الدعيّ أو المقيم في الحي وليس منهم بنسب.

[4] ـ سنام المجد: أعلاه- وبنت مخزوم: هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أمّ أبي طالب وعبد الله والزبير بني عبد المطلب، فأم أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم- مخزومية.

[5] ـ الزّنيم: هنا المستلحق في قوم ليس منهم لا يحتاج إليه، فكأنه فيهم زنمة- وقوله: كما نيط خلف الراكب القدح الفرد أي هو مؤخر في الذكر.

[6] ـ المصدر السابق: ص 143- 145.

[7] ـ خاب قوم: يريد قريشا- قدّس أي طهّر، والتقديس التطهير.

[8] ـ السّفه: الجهل وركوب الشّطط والحيد عن الرّشد.

[9] ـ يقول : إن أخبر بالغيب يوما، فلا بدّ أن يتحقق ذلك ويصدق.

[10] ـ ليهن أي ليهنئك- والجدّ هنا، الحظّ والسّعادة- بصحبته : أي بصحبة رسول الله (ص).- من يسعد الله: أي من يرد الله سعادته يسعد.

لقد تغيّر شاعر القصور! نسي أو تناسى ستّين سنة[1] أنفقها في الغزل وشرب الخمر، وصرفها في الفخر بنفسه وبقومه، وفي مدح ملوك المناذرة والغساسنة أقربائه من اليمن، ونيل عطاياهم على الرغم من منافسة النّابغة الذّبيانيّ وعَلْقَمة بن عَبَدة؛ كان يمدحهم بالشّجاعة والعزّة والمنعة، والكرم الشّامل الفقير والغنيّ من النّاس، فكانت أيّامه الطّويلة التي أقامها عندهم معزّزا مكرّما كالأحلام. يقول وهو في حضرة الملك الغسّانيّ عمرو بن الحارث:[2]

لِلهِ دَرُّ عِصابةٍ نَادمتُهُمْ ... يومًا بِجِلّقَ في الزّمانِ الأَوّلِ[3]

الضّاربونَ الكَبشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ... ضرْبًا يَطيحُ له بَنَانُ المِفْصَلِ[4]

والخالطونَ فقيرَهُم بِغَنِيِّهِمْ ... والمُنْعِمُونَ على الضّعيفِ المُرمِلِ[5]

أَولادُ جَفْنَةَ حولَ قَبرِ أَبيهِمِ ... قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الكَريمِ المُفَضَّلِ[6]

يُغْشَوْنَ حتّى ما تَهِرُّ كِلابُهُمْ ... لا يَسْأَلونَ عنِ السَّوادِ المُقْبِلِ[7]

يَسقُونَ مَنْ وَرَدَ البَريصَ عَلَيهِمُ ... بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرَّحيقِ السَّلْسَلِ[8]

بِيضُ الوُجُوهِ كريمةٌ أَحسَابُهُمْ ... شُمُّ الأُنُوفِ مِنَ الطِّرازِ الأَوَّلِ[9]

فَلَبِثْتُ أَزْمَانًا طِوَالاً فِيهِمِ ... ثُمَّ ادَّكَرْتُ كأَنّني لَمْ أَفْعَلِ

إنه زمن قد ولّى، غير مأسوف عليه، فشاعرنا يعيش تجربة جديدة خصبة بقيمها التي تتنزّل من السّماء إلى الأرض، فتغيّر حياة الناس، وتهديهم إلى السّعادة الحقّة. فالممدوح هنا نبيّ، وهو سيّد البشر وأقربهم إلى الله منزلة، إذ ضمّ اسمه إلى اسمه عند التّشهّد وعند الأذان، وبعثه خاتما للأنبياء والرّسل عليهم السّلام إلى خلقه ليوحّدوه بالعبادة،

---

[1]- عاش حسّان بن ثابت في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، ومات في خلافة معاوية، وعمي في آخر عمره. (ينظر: الشعر والشعراء: ص192)

[2]- المصدر السّابق: ص 364- 366.

[3]- العصابة: الجماعة- وجلق: دمشق أو موضع بقربها.

[4]- الكبش هنا سيد القوم ورئيسهم- البيض جمع بيضة وهي الخوذة- يطيح: يذهب- والمراد ببنان المفصل أطراف الأصابع.

[5]- المرمل: الذي نفد زاده، والمراد الفقير، وأصله من الرّمل كأنّه لصق بالرّمل.

[6]- أولاد جفنة : هو أبو ملوك آل غسان ملوك الشام، وهو جفنة بن عمرو مزيقياء- حول قبر أبيهم: هم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب، وهم مخصبون لا ينتجعون.

[7]- يغشون: إن منازلهم لا تخلو من الأضياف والطّرّاق حتّى أنست كلابهم بهم، فلا تهرّ على أحد- لا يسألون عن السّواد المقبل: هم في سعة لا يروعهم الجمع الكثير.

[8]- البريص وبردى: نهران بدمشق، ويقصد ماء بردى- يصفق : يمزج- الرّحيق: الخمر البيضاء- السّلسل: اللّيّنة السّهلة الدّخول في الحلق.

[9]- شمّ الأنوف: إنّهم أعزّة سادة ذوو أنفة وشرف- الطّراز: المستوى، والمراد هنا من الشّكول الجيّدة الحسنة المتفوّقة.

ويتركوا عبادة الأوثان، وليعلّمهم دينهم، ويبشّرهم بنعيم الجنة، وينذرهم من عذاب النّار، فللّه الطّاعة والحمد على هذه النّعم، يقول[1]:

أَغَـــرُّ عَلَيهِ لِلنُّبُـــوَّةِ خَـــاتَمٌ ... مِـــنَ اللهِ مَشْهُـــودٌ يَلُـــوحُ ويُشْهَدُ[2]

وضَمَّ الإلـــــهُ اسْمَ النَّبيِّ إلى اسْمِهِ ... إِذَا قَـــالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أَشْهَدُ[3]

وشَـــقَّ لَـــهُ مِـــنِ اسْمِـــهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُـــودٌ وهَذَا مُحَمَّدُ

نَبِيٌّ أَتَـــانَـــا بعد يَـــأْسٍ وفَتْـــرَةٍ ... مِنَ الرُّسْلِ والأَوْثَـــانُ في الأَرْضِ تُعْبَدُ[4]

فَأَمْسَـــى سِراجـــًا مُسْتَنِيـــرًا وهَادِيًا ... يَلُـــوحُ كمـــا لاحَ الصَّقِيـــلُ المُهَنَّدُ[5]

وأَنْذَرَنَـــا نَـــارًا وبَشَّرَ جَنَّـــةً ... وعَلَّمَنَـــا الإســـلامَ فَاللهَ نَحْمَدُ[6]

وأَنْـــتَ إِلَـــهُ الخَلْقِ رَبِّـــي وخَالِقِـــي ... بذلكَ مَـــا عَمَّرْتُ في النَّـــاسِ أَشْهَدُ

تَعَـــالَـــيْـــتَ رَبَّ النَّاسِ عن قَوْلِ مَنْ دَعَا ... سِـــوَاكَ إِلَـــهًا أَنْتَ أَعْـــلَى وأَمْجَدُ

لكَ الخَلْـــقُ والنَّعْمَـــاءُ والأَمْـــرُ كُلُّهُ ... فَإِيَّـــاكَ نَسْتَهْـــدِي وإِيَّـــاكَ نَعْبُدُ[7]

هكذا وقف حسّان بن ثابت حياته وشعره ينافح عن الدعوة الإسلامية وإلى جانبه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكلّهم من الخزرج من الأنصار، يقارعون شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزّبعرى وضرار بن الخطّاب وأبي سفيان بن الحارث من شعراء قريش في مكّة، وكعب بن الأشرف من شعراء اليهود في المدينة[8].

وقد نزلت آيات من الذّكر الحكيم لتميّزَ بين هاتين الفئتين المتناقضتين من الشّعراء، ولتشدَّ من أزر الفئة المؤمنة، ولتحثَّ الشّاعر المؤمن على الدّفاع عن الدّين، وعلى تصوير الحياة الجديدة في ظلّ الفضيلة والحقّ والعدل بين النّاس، يقول الله عز وجل: { وَٱلشُّعَرَاءُ

---

[1] - المصدر السابق: ص134-135.

[2] - أغرّ: كريم الأفعال واضحها، والأغرّ من الغرّة بياض الوجه- وقوله: عليه للنبوّة خاتم من الله ، يجوز أن يكون المراد: عليه من إشراقه وتلألئه ومن جميع خصاله طابع النبوة- يلوح ويشاهد، وأن يكون المراد خاتم النبوة على حقيقته، وقيل إنه شامة خضراء أو سوداء محتفرة في اللحم، وقيل كغدة عند غضروف كتفه اليسرى.

[3] - ذلك أن المؤذن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله.

[4] - الفترة ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة- الأوثان: جمع وثن، وأصلها عند العرب كل تمثال من خشبة أو حجارة أو ذهب او فضة او نحاس أو نحوها، وكانت العرب تنصبها وتعبدها.

[5] - يلوح: أي يلمع لمعان السّيف الصقيل.

[6] - الإنذار: الإعلام والتحذير مما يخاف منه- وبشّر به: فرح، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير.

[7] - كل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه- ونعمة الله ونعماؤه منه- وإياك نستهدي: نطلب الهداية.

[8] - محمد عزام: قضية الالتزام في الشعر العربي، دار طلاس، دمشق (سوريا)، ط1، 1989، ص138-139.

يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ[1] وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}[2].

إنّ انتماء الشّاعر إلى عقيدة الإسلام وعمله بتعاليمه في حياته اليومية، يدفعانه –في قرارة نفسه– إلى الالتزام بالذّود عن الدّعوة الإسلامية، وبخاصّة إذا كانت في أحلك أوقاتها، يتآمر عليها أعداؤها من المشركين واليهود للقضاء عليها، ولا يدّخرون وسيلة ما دامت تحقق غايتهم المنشودة، لذلك اتّخذوا من الهجاء المقذع الذي عرفوا خطره على المهجوّين في جاهليتهم، سلاحا فتّاكا لنهش عرض رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتى آذوه، فاستنجد بشعرائه ليقولوا لهم مثل ما يقولون لهم؛ فهذه حرب كلامية شعواء، ونار متّقدة، تحرق الأنساب والأمجاد التي يغار عليها كلّ عربي، فلا تطفئها إلا نار مثلها أشدّ تأجّجا وضراوة.

وقد فُرض على هذه الدّعوة الجديدة السّمحة أن تستعين بالشّعر وبالسّيف معا لتُمكّن لنفسها في شبه جزيرة العرب، وتحمي نفسها من فتنة أعدائها. وقادت المناوشات المستمرّة بين الطّرفين إلى أوّل لقاء حقيقيّ بين قوّة الإيمان وقوّة الكفر في بدر، حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثلاثمائة من أصحابه ليعترض قافلة أبي سفيان بن حرب القادمة من الشّام، لكنّ زعيم مكّة استنفر قريشا لحماية تجارتها وغيّر مساره، فوجدت الفئتان نفسيهما وجها لوجه في بدر، فما كان على هذه الفئة القليلة من المسلمين إلاّ القتال والثّبات في مواجهة ألف مقاتل من الكفّار، وشاء الله تعالى أن يؤيّد المؤمنين بنصره ليُظهر الإسلامَ ويمحق الكفر، قال عزّ وجلّ:{ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ويُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ويَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الحَقَّ ويُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ إِذ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ

[1] - الغاوون: السّفهاء والشطّار، وقيل الراوون، وقيل الشياطين، وقيل شعراء قريش الكفار. وذكر الوادي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول وقلة مبالاتهم بالغلوّ في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضّلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وان يبهتوا البريء، ويفسقوا التقي. (ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري4: ص188).

[2] - سورة الشعراء: 224-227.

مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ[1] وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[2] .

إذن، كانت غزوة بدر -في السّنة الثّانية للهجرة -أوّل جولة للمؤمنين على الكافرين، وكان لهذا النّصر العظيم دلالاته الكثيرة: إذ عدّل موازين القوى بين الطرفين، وجعل الله تعالى للمؤمنين شرعة في جهادهم لأعدائهم إلى يوم القيامة، ألا ينتصروا عليهم بعدد ولا عُدّة، ولكن بفضل اعتصامهم بحبل الله جلّ وعلا، كما كان هذا النّصر قصاصا من قريش على أذاها للرّسول صلى الله عليه وسلّم وللمسلمين طيلة خمس عشرة سنة. وقضى العزيز الحكيم أن يكون الموت والحزن والألم في معسكر المشركين لأوّل مرّة، وأن يبكي نساؤهم وشعراؤهم قتلاهم سادتّهم قبل سوقتهم المدفونين كلّهم في القَليب في بدر، فهذا عبد الله بن الزّبعرى السّهمي يبكي سادة قريش قتلى بدر، ويذكّر بعراقة أنسابهم وكرمهم ومنزلتهم في النّاس، وبخاصة رئيسهم أبا جهل عمرَ بن هشام، يقول[3]:

مـــاذَا على بَـــدْرٍ ومـــاذا حَوْلَـــهُ ... مِـــنْ فِتيَـــةٍ بيـــضِ الوجـــوهِ كِرام

تَـــركُوا نُبَيْهـــًا خَلفَـــهُمْ ومُنَبِّهـــًا ... وَأُبَنَـــيْ رَبيعةَ خَيْـــرِ خَصمٍ فِئَـــام[4]

والحَـــارثَ الفَيّـــاضَ يَبْرُقُ وجهُهُ ... كالبَدْرِ جَلَّـــى لَيْلَـــةَ الإِظْـــلام[5]

والعَـــاصِـــي بْـــنَ مُنَبِّـــهٍ ذا مِرَّةٍ ... رُمْحـًا تَميمـــًا غَيـــرَ ذي أَوْصَـــام[6]

تَنْمِـــي بِـــهِ أَعْـــرَاقُـــهُ وجُـــدُودُهُ ... ومَـــآثِـــرُ الأَخْـــوَالِ والأَعمـــام[7]

وإِذا بَكَـــى بَـــاكٍ فَأَعْـــوَلَ شَجْـــوُهُ ... فعَلَـــى الرَّئِيـــسِ المَاجِدِ ٱبْنِ هِشام[8]

حَيَّـــا الإِلَـــهُ أَبَـــا الوَلِيـــدِ ورَهْطَـــهُ ... رَبُّ الأَنَـــام، وخَصَّـــهُمْ بِسَـــلام

---

[1] ـالطّائفتان: العير والنفير- غير ذات الشّوكة: العير لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا، والشّوكة: كانت في النفير لعددهم وعدّتهم- أن يحقّ الحقّ: : أن يثبته ويعليه- بكلماته: بآياته المنزّلة في محاربة ذات الشّوكة ونصرة الملائكة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر- قطع الدّبر عبارة عن الاستئصال- ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل: إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه- مردفين: متبعين بعضهم لبعض- إلا بشرى: إلا بشارة لكم بالنّصر. (ينظر: تفسير الكشّاف 2: ص 157- 158).

[2] ـالأنفال: 7- 10

[3] - ابن هشام: السّيرة النبوية، تحقيق محمد علي قطب ومحمد الدالي بلطه، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط.1998، ج3، ص15-16.

[4] - الفئام: الجماعات من الناس- نبيه ومنبّه ابني الحجّاج بن عامر- عتبة وشيبة ابني ربيعة.:

[5] - الفيّاض: الكثير الإعطاء- استثارة الحارث بن هشام الذي فرّ من المعركة.

[6] - المرّة: القوّة والشدة- والتّميم: الطويل- والأوصام: العيوب.

[7] - المآثر: جمع مأثرة، وهي ما يتحدّث به عن الرّجل من خير وفعل حسن.

[8] - الإعوال: رفع الصوت بالبكاء- والشجو: الحزن.

فأجابه حسّان بن ثابت الأنصاري ناقضا كلّ ما قاله، داعيا عليه بدوام البكاء والحزن على من وصفهم بالمجد، مزريا بهم، مذكّرا له بمن هو أَوْلَى بالمديح، مرجّحا كفّته عليهم، ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم الماجد، السّمح، المقدام، الكريم، الوفيّ بذمّته، يقول[1]:

إِبْـــكِ بَكَتْ عَيْنَـــاكَ ثُمَّ تَبـــادَرتْ ... بدَمٍ يَعُـــلُّ غُرُوبُـــهـــا سَجَّـــامِ[2]

مـــاذا بَكَيتَ على الَّذِيـــنَ تَتَـــابَـــعُوا ... هَـــلاَّ ذَكَرتَ مَكـــارِمَ الأَقْـــوامِ[3]

وذكرتَ مِنَّـــا مَـــاجِـــــدًا ذا هِمّـــةٍ ... سَمْحَ الخَلائِـــــقِ مَـــاجِـــدَ الإِقْـــدَامِ

أَعْنِـــــي النَّبيَّ أَخَـــا النَّكَرُّمِ والنَّدَى ... وأَبَرَّ مَن يـــُولِـــي عـــلى الأَقْسَـــامِ[4]

فَلَمِثْلِـــهُ ولَمِثْـــلُ مـــا يَدعُـــو لـــهُ ... كـــانَ المُمَـــدَّحَ ثَمَّ غَيـــرَ كَهَـــامِ[5]

وفي غمرة الحزن على المصاب الجلل، يستسلم ضرار بن الخطّاب بن مرداس الفهريّ يوم بدر للعصبيّة الجاهليّة والانحياز للنّسب القرشيّ، فلا يرى بأسا من الاعتراف بالهزيمة إذا كانت على أيدي الأخيار من قريش محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أبي بكر وحمزة وعلي وعمر وعثمان وسعد بن أبي وقاص، وهذا ليسلب الأوس وبني النّجّار كلّ فضل في تحقيق هذا النّصر، ويحرمهم من كلّ فخر بين العرب، ويتوعّدهم بالثّأر منهم وحدهم لقتلاهم، وإبكاء نسائهم عليهم في أقرب فرصة، فالحرب سجال، يقول[6]:

عَجِبتُ لِفِخْـــرِ الأَوْسِ والحَيُّـــنُ دَائِـــرٌ ... عَلَيْـــهِمْ غَدًا والدَّهْرُ فيه بَصَـــائِـــرُ[7]

وفَخْـــرُ بَنِـــي النَّجَّـــارِ إِنْ كـــان مَعْشَرٌ ... أُصِيبُـــوا بِبَدرٍ كُلُّهُم ثَمَّ صَـــابِـــرُ

فَإِن تَـــكُ قَتْلَـــى غُودِرَتْ مِن رِجَالِنَـــا ... فَإِنَّـــا رِجَـــالٌ بَعْـــدَهُمْ سَنُغَـــادِرُ

وتُرْدِي بِنَـــا الجُرْدُ العَنَـــاجِيجُ وَسْطَكُمْ ... بَنِـــي الأَوْسِ يَشْفِـــي النَّفْـــسَ ثَـــائِـــرُ[8]

وَوَسْطَ بَنِـــي النَّجَّـــارِ سوف نَكُرُّهَـــا ... لَهَـــا بِالقَنَـــا والدَّارِعِينَ زَوَافِـــرُ[9]

---

[1] - ديوان حسّان: ص441-442.

[2] - بكت عيناك: دعاء عليه - ويعلّ من العلل: وهو الشرب بعد الشرب، والمراد تتكرر - والغروب ههنا مجاري الدموع- وسجّام: سائل: يقال: سجم المطر والدّمع إذا سالا.

[3] - التتابع والتّابع بالباء والياء واحد، وبعضهم يجعل التتابع بالياء في الشعر لا غير.

[4] - يولي معناه: يحلف.

[5] - رجل كهام: لا غناء عنده، ويقال: سيف كهام أي كليل لا يقطع.

[6] - السيرة النبوية 3: ص14.

[7] - الحين: الهلاك- بصائر: عبر.

[8] - تردي: تسرع- والجرد: الخيل العتاق القصيرة الشعر - والعناجيج: الطوال السريعة.

[9] - الزوافر: الحاملات للثقل - القنا: الرماح- والدّارعين: اللابسين الدّرع.

فَنَتْرُكُ صَرْعَى تَعْصِبُ الطَّيرُ حَولَـــهُمْ ... ولَيسَ لَـــهُمْ إلا الأَمَـانِـي نَـاصِرُ[1]

وتَبْكِيـــهِمْ مِن أَهْـــلِ يَثْرِبَ نِسْـــوَةٌ ... لَهُـنَّ بِهـــا لَيْـلٌ عَنِ النَّـوْمِ سَـامِرُ

فإنْ تَظْفَرُوا -في يَـــوْمِ بَدْرٍ- فإنّمـــا ... بِأَحْمَدَ أَمْسَـى جَدُّكُـمْ وهُـوَ ظَـاهِرُ

وبِالنَّفَـرِ الأَخْيَـــارِ هُمْ أَولِيَـــاؤُهُ ... يُحَامُـونَ في اللَّأْوَاءِ والمَوْتُ حَـاضِرُ[2]

يُعَـدُّ أَبُـو بَكْـرٍ وحَمْـزَةُ فِيـهِمُ ... ويُدْعَـى عَلِيٌّ وَسْطَ مَن أَنْـتَ ذَاكِـرُ

ويُدعَـــى أَبُـو حَفْصٍ وعُثْمَـانُ مِنْهُمُ ... وسَعْـدٌ إذا كَـانَ في الحَربِ حَـاضِرُ

أُولَئِـــكَ لا مَنْ نَتَجَتْ في دِيَـارِهَـــا ... بَنُـو الأَوسِ والنَّجّـــارِ حينَ تُفَـاخِرُ[3]

ولَكِنْ أَبُـــوهُمْ من لُؤَيِّ بْنِ غَـــالِبٍ ... إذا عُدَّتِ الأَنْسَـــابُ كَعْبٌ وعَـــامِرُ[4]

هُمُ الطّاعِنُـــونَ الخَيْلَ في كُلِّ مَعْـرَكٍ ... غَدَاةَ الهِيَـــاجِ الأَطْيَبُـــونَ الأَكَـاثِرُ

فأجابه كعب بن مالك الأنصاري ناقضا تعجّبه الجاهلي من صروف الدّهر بتعجّب إيماني لقدرة الله تعالى على صرع الطغاة الذين حشدوا جموعهم يوم بدر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأنصاره من الأوس وبني النّجّار -وللمهاجرين من أصحابه- ولكنّ المؤمنين توكّلوا على ربّهم متيقنين من ظهور الحق على الباطل، واستبسلوا في القتال حتى أطاحوا بأئمّة الكفر أبي جهل عمرو بن هشام وعتبة وشيبة ابنيْ ربيعة وعُمَير بن عثمان التّيميّ وأُميّة بن خلف وغيرهم، فصاروا وقودا لنار جهنّم يصلونها خالدين فيها أبدا،لا يخفّف عنهم العذاب، لأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم دعاهم للإيمان والنّجاة، فأبوا إلاّ الكفر والهلاك، متّهمين إيّاه بالسّحر؛ وما كان مستطيعا أن يهديهم وقد قدّر الله جلّ شأنه لهم أن يظلّوا على عَماهم وضلالهم حتى يهلكوا به، يقول كعب[5]:

عَجِبْـــتُ لأَمْـــرِ اللهِ واللهُ قَـــادِرٌ ... على مـــا أَرَادَ، لَيْسَ لِلّهِ قَـاهِـــرُ

قَضَـــى يَـــوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلاقِـــيَ مَعْشَـــراً ... بَغَـــوْا وسَبِيـــلُ البَغْيِ بالنَّاسِ جَـائِرُ

وقد حَشَـــدُوا واسْتَنْفَـــرُوا مَنْ يَلِيـــهِمُ ... مِنَ النَّـــاسِ حتّى جَمْعُهُمْ مُتَكَاثِـــرُ

---

[1] - تعصب الطير حولهم: تجتمع عصائب.
[2] - اللأواء: الشدة.
[3] - نتجت: ولدت.
[4] - كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (قريش): أسماء أجداد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وعامر بن لؤي ليس من أجداده.
[5] - السّيرة النبوية 3: ص14-15.

وسَارَتْ إِلَيْنَـــا لا تُحَـــاوِلُ غَيرَنَـــا ... بِأَجْمَعِـهَـــا كَعْبٌ جَمِيعـًا وعَـامِـــرُ

وفِينَـا رَسُـولُ اللهِ والأَوْسُ حَوْلَـــهُ ... لَهُ مَعْقِلٌ مِنْـهُمْ عَزِيـــزٌ ونَـاصِـرُ[1]

وجَمْعُ بَنِـي النَّجَّـــارِ تَحتَ لِوائِـــهِ ... يَمْشُـــونَ في المَاذِيِّ والنَّقْعُ ثَـائِـرُ[2]

فلمّا لَقِينَـــــاهُمْ وكُلٌّ مُجَـاهِـــدٌ ... لِأَصْحَـابِـهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَـابِـرُ

شَهِدْنَـــــا بأَنّ اللهَ لا رَبَّ غَيْـــرُهُ ... وأَنَّ رَسُـــولَ اللهِ بالحَقِّ ظَـــاهِـرُ

فكُـبَّ أَبُـو جَهْـلٍ صَرِيعـــــاً لِوَجْهِهِ ... وعُتْبَةُ قد غَـــادَرْنَـــهُ وهُوَ عَـاثِـرُ[3]

وشَيْبَةُ والتَّيْمِيُّ غَـــادَرْنَ في الوَغَـــى ... ومـــا مِنْـهُمْ إلاَّ بِـذِي العَرْشِ كَـافِرُ

فأَمْسَـــوْا وقُـودَ النَّارِ في مُسْتَقَرِّهَـــا ... وكُلٌّ كَفُـــورٍ في جَهَـنَّـمَ صَائِـرُ

تَلَظَّى عَلَيْـــهِمْ وَهْيَ قد شَبَّ حَمِيُّهَـــا ... بِزُبَرِ الحَدِيـــدِ والحِجَـارَةِ سَـاجِـرُ[4]

وكانَ رَسُـــولُ اللهِ قد قَـــالَ أَقْبِلُـــوا ... فَوَلَّـــوا وقَـالُـوا: إِنَّمَا أَنتَ سَاحِـرُ

لِأَمْـرٍ أَرَادَ اللهُ أَن يَهْـلِـكُـــوا بِـــهِ ... وليس لِأَمْـرٍ حَمَّـهُ اللهُ زَاجِـــرُ[5]

وتبدو هذه القصيدة متفيّئة بظلال من سورة الأنفال[6]، حيث تظهر روح الشّاعر مشبعة بنور ربّها، إذ يستعيض فيها عن المقدّمة الطّللية الجاهلية بمقدّمة إيمانية إسلامية تشيد بقدرة الله تعالى ومضاء قضائه متى أراد نصرة الحق على الباطل، والانتقام من الكافرين الذين أخذتهم العزّة بالإثم، ففضّلوا الضّلال على الهدى، وما الهدى إلا بيد الله يُؤتيه مَنْ يشاء من عباده، قال عزّ وجلّ مخاطبا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم { إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[7].

فهذه الهداية حُرِمَهَا رجل عالم بالأديان، وداعية إلى الطُّهر والتّوحيد كشاعر ثقيف أميّة بن أبي الصّلت المتوفّى سنة 624هـ، الذي ظنّ أنّ علمه وتعبّده سيكفلان له النّبوّة، وما درى أنّ الله جلّ وعلا قد دبّر في غيبه ألاّ يكون النّبيّ العربيّ قارئا ولا شاعرا، لذلك

---

[1] - المعقل: الموضع الممتنع.
[2] - الماذيّ: الدّروع البيض اللّيّنة- النّقع: الغبار.
[3] - العاثر: الساقط.
[4] - تلظّى: تلتهب- وشبّ: أوقد.- وزبر الحديد: قطعه- وساجر: أوقد.
[5] - حمّه الله: قدّره.
[6] - النّفل: الغنيمة لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. وقد أنزلت سورة الأنفال في أهل بدر حين اختلافهم في النّفل، فردّه الله تعالى إلى رسوله (ص)، فقسّمه على السّواء (ينظر: تفسير الكشّاف 2: ص154).

[7] - القصص: 56.

منعته عزّة المتبحّر في معرفة الأديان أن يتّبع نبيّا أمّيا، وسقط به حسده ومقتل ابنيْ خاله عتبة وشيبة[1] إلى رثاء قتلى أعدائه في موقعة بدر ، وتحريض قريش على قتاله[2]. فهو يدعو إلى النّواح على هؤلاء السادة الشجعان الكرام الذين أوحشت بفقدهم مكّة، ويحثّ شبابها وكهولها، متزوّجيها وغير متزوّجيها، على صدام المسلمين بكثرة العدد والعدّة، لينازل كلّ بطل نظيره، ويأخذ بثأره منه، يقول[3]:

مـــاذا بِبَـــــدْرٍ فالعَقَـــنْـــ ... ـــلِ مِـــن مَرَازِبَـــــةٍ جَحَـاجِحْ[4]

أَلاَ بَكَـيْـــتَ علـــــى الكِـــرَا ... مِ بَنِـــي الكِـــرَامِ أُولِـي المَمَـادِحْ[5]

كَبْكَـــــا الحَمَـــــام علـــــى قُرُو ... عِ الأَيْـــكِ في الغُصْنِ الجَـــوَانِـحْ[6]

يَبْكِيـــنَ حَـــرَّى مُسْتَكِيـــ ... ـــنَـــاتٍ يَرْحَـنَ مع الرَّوَائِـــحْ[7]

أَلاَ تَـــــرَوْنَ لِمَـــــا أَرَى ... ولقـد أَبَـــانَ لِكُـــلِّ لامِـــحْ

أَنْ قـد تَغَيَّـــــرَ بَطْـنُ مَكَّـــ ... ـــةَ فَهْـــيَ مُوحِشَـةُ الأَبَـاطِـحْ

ولقـــد عَنَـــانِـــي صَوْتُـــهُمْ ... مِـــنْ بَيْـــنِ مُسْتَسْـــقٍ وصَائِحْ[8]

لِلّهِ دَرُّ بَـنِـــي عَلِـــيٍّ ... أَيِّـــمٍ مِنْـــهُمْ ونَـــاكِـحْ[9]

إِنْ لَـــمْ يُغِيـــرُوا غَـــارَةً ... شَعْـــوَاءَ تُجْحِـــرُ كُلَّ نَـابِـحْ[10]

بِالْمُقْـــرِبَـــاتِ الْمُبْعِـــدَا ... تِ، الطَّـامِحَـــاتِ مَعَ الطَّـوَامِـحْ[11]

مُـــرْدًا علـــى جُـــرْدٍ إِلَـــى ... أُسْـــدٍ مَكَـــالِبَـــةٍ كَـوَالِـحْ[12]

ويُـــلاَقِ قِـــرْنٌ قِـــرْنَـــهُ ... مَشْـيَ المُصَـافِـــحِ لِلْمُصَـافِـحْ[13]

بِزُهَـــاءِ أَلْـــفٍ ثُمَّ أَلْـــ ... ـــفٍ بَيْـــنَ ذي بَـــدَنٍ ورَامِـــحْ[14]

---

[1] - ابنا خاله: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمّه رقية بنت عبد شمس، (ينظر: الشعر والشعراء: ص305).

[2] - الأعلم الشنتمري: أشعار الشعراء الستة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت (لبنان)، ط2، 1981، ج2، ص193-195.

[3] - السيرة النبوية 3: 28-29.

[4] - العقنقل: كثيب رمل ببدر - والمرازبة: الرّؤساء، جمع مرزبان- والجحاجيح: السّادة، جمع جحجاح.

[5] - الممادح: ما يستحسن من الأخلاق، ضد المقابح، وهي سيّء الأخلاق.

[6] - الأيك: الشجر الملتفّ واحدته أيكة- والجوانح: جمع جانحة، وهي المائلة.

[7] - حرّى: اللاتي تجدن من الحزن- ومستكينات: خاضعات.

[8] - عناني: أحزنني.

[9] - الأيّم: الذي لم يتزوّج.

[10] - تجحر: أي تلجئه إلى جحره.

[11] - المقربات: الخيل التي تقرب من البيوت لكرمها- والمبعدات: التي تبعد في جريها- والطّامحات: التي ترفع رؤوسها.

[12] - الجرد: الخيل العتاق - والمكالبة: هم الذين بهم شبه الكلب وهو السّعار، يعني حدّتهم في الحرب- والكوالح: العوابس.

[13] - القرن: الذي يقاوم في قتال وشدة.

[14] - البدن: الدّرع.

وهذا كعب بن الأشرف سليل شعب الله المختار يحسّ الأرض تميد تحت أقدام قومه من يهود، حين تصل البشارة إلى المدينة بقتل سادة قريش، فيخرج إلى مكّة بعد أن سمع أنّ الحارث بن هشام يجمع الجموع للانتقام، وشرع يبكي أصحاب القليب ويُشيد بفضلهم في النّاس، ويحرّض المشركين على مناجزة المسلمين بدافع الحسد للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبدافع الحفاظ على البقاء، يقول[1]:

طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ ... ولِمِثْلِ بَدْرٍ تَسْتَهِلُّ وتَدْمَعُ[2]

قَتَلَتْ سَرَاةَ النَّاسِ حولَ حِيَاضِهِمْ ... لا تَبْعُدُوا، إِنّ المُلُوكَ تُصَرَّعُ[3]

كَمْ قد أُصِيبَ بِهِ مِنْ أَبْيَضَ مَاجِدٍ ... ذي بَهْجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضَّيَّعُ[4]

طَلْقُ اليَدَيْنِ إذا الكَوَاكِبُ أَخْلَفَتْ ... حَمَّالُ أَثْقَالٍ يَسُودُ ويَرْبَعُ[5]

ويقولُ أَقْوَامٌ أُسَرُّ بِسُخْطِهِمْ ... إِنَّ ابْنَ الأَشْرَفِ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ[6]

صَدَقُوا فلَيْتَ سَاعَةً قُتِلُوا ... ظَلَّتْ تَسُوحُ بِأَهْلِهَا وتَصَدَّعُ

نُبِّئْتُ أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامِهِمْ ... في النَّاسِ يَبْنِي الصَّالِحَاتِ ويَجْمَعُ[7]

لِيَزُورَ يَثْرِبَ بالجُمُوعِ وإِنّما ... يَحْمِي على الحَسَبِ الكَرِيمِ الأَرْوَعُ[8]

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشبّب بنساء المسلمين حتى آذاهم، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله، فقُتِل، ففزعت بنو النّضير لقتل زعيمها، وبات كلّ يهودي بها يخشى على نفسه الغِيلة[9]، وقد سجّل كعب بن مالك مصرعه وذلّ قومه، فقال[10]:

فَغُودِرَ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيعًا ... فَذَلَّتْ بعد مَصْرَعِهِ النَّضِيرُ

---

[1] - المصدر السابق: ص47-48.
[2] - رحى الحرب: معظمها ومجتمع القتال- وتستهلّ: تسيل بالدموع.
[3] - سراة الناس: سادتهم ورؤساءهم.
[4] - الضّيّع: الفقراء.
[5] - طلق اليدين: كثير المعروف- وأخلفت: أي لم يكن معها مطر- ويربع: أي يأخذ الرّبع، أي أنه كان رئيسا.
[6] - كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر (قريش): هو جدّ بطون قريش، وهو أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم.
[7] - الحارث بن هشام: هو الذي فرّ في معركة بدر.
[8] - الأروع: الذي يروعك بحسنه وجماله.
[9] - احتال على كعب بن الأشرف أبو نائلة سلكان بن سلامة أخوه من الرّضاعة، فأخرجه من حصنه ليلا، وقتله محمد بن مسلمة، وكلاهما من بني عبد الأشهل. (ينظر: المصدر السابق 3: ص49-52).
[10] - المصدر السابق: ص52.

عَلَـــى الكَفَّيْـــنِ ثَمَّ وقَـدْ عَلَتْـــــهُ بأَيْدِينَـــــا مُشْهَـــرَةٌ ذُكُـــــورُ[1]
بأَمْـــــرِ مُحَمَّـــدٍ إِذْ دَسَّ لَيْـــــلا إِلَـــى كَعْبٍ أَخَـــا كَعْبٍ يَسِيـــرُ
فَمَـــاكَـــــرَهُ فَأَنْزَلَـــهُ بِمَكْـــــرٍ ومَحْمُـــودٌ أَخُـــو ثِقَةٍ جَسُـــورُ

ثمّ التقى المسلمون في سبعمائة مجاهد بالمشركين في ثلاثة آلاف مقاتل يوم أحد في السنة الثالثة للهجرة، وعلى الرّغم من ذلك كانت الغلبة لهم، لولا أنّهم طمعوا في جمع أسلاب أعدائهم، وتبعهم الرّماة الذين وضعهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الجبل، فانهزم جيش المسلمين شرّ هزيمة، وكُسِرت رباعية النبي صلـــــى الله عليه وسلم وشُجّ حتّى سال الدم على وجهه الكريم[2]، وقتل أسد الله حمزة رضي الله عنه على يد وحشيّ[3] بأمر هند بنت عتبة التي بقرت بطنه عن كبده، فلاكتها، ثمّ لفظتها،[4] فحزن عليه الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حزنا شديدا، وتوعدّ بالتمثيل برجال قريش، لولا أن نزلت آيات من الذّكر الحكيم، فعفا وصبر ونهى عن المثلة،[5] قال تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ولَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ واُصْبِرْ ومَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ في ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا واَّلذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ}.[6]

وقد نظمت عدّة قصائد في رثاء أسد الله حمزة رضي الله عنه مواساة للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وللمسلمين في مصابهم الجلل بفارسهم الرّحيم مع إخوانه، الشّديد مع أعداء الدّين، والّذي رزأ هندا في أبيها عتبة، وفقدت عمّها شيبة وأخاها الوليد في يوم بدر، فأولى لها أن تظلّ تبكيهم طوال الدّهر، ولا تفرح بقتله لأنّه يتنعّم في الجنّة، وأهلها يعذّبون في النّار؛ فعِزُّ الكافرين وانتصارهم في الدّنيا، ذُلٌّ لهم وهزيمة في الآخرة. قال الشّاعر المجاهد عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة رضي الله عنه:[7]

بَكَـــتْ عَيْنِـــي وحُقَّ لَهَـــا بُكَاهَـــا ومـــا يُغْنِـــي البُكَـــاءُ ولا العَوِيـــلُ
علـــى أَسَـــدِ اللهِ غَـــدَاةَ قَـــالُـــوا أَحَمْـــزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُـــلُ القَتِيـــلُ

---

[1] - مشهّرة ذكور: سيوف مسلولة من أغمادها، قوية قاطعة.
[2] - المصدر السابق: ص73.
[3] وحشيّ: غلام جبير بن مطعم قتل بحربته حمزة رضي الله عنه، وقتل مسيلمة الكذّاب صاحب اليمامة (ينظر: المصدر السابق: ص 65- 67).
[4] المصدر السابق: ص 83- 84.
[5] الزّمخشريّ: تفسير الكشّاف، تحقيق محمّد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة (مصر)، ط2، 1977، ج3، ص 168.
[6] النحل: 126- 128.
[7] السّيرة النبويّة 3: ص 148- 149.

أُصِيبَ المُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا ... هُنَاكَ وقد أُصِيبَ به الرَّسُولُ

أَبَا يَعْلَى لَكَ الأَرْكَانُ هُدَّتْ ... وأَنْتَ المَاجِدُ البَرُّ الوَصُولُ[1]

عَلَيْكَ سَلامُ رَبِّكَ في جِنَانٍ ... مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لا يَزُولُ

أَلاَ يَا هِنْدُ فَابْكِي لا تَمَلِّي ... فأَنتِ الوَالِهُ العَبْرَى الهَبُولُ[2]

أَلاَ يَا هِنْدُ لا تُبْدِي شَمَاتًا ... بِحَمْزَةَ إنَّ عِزَّكُمْ ذَلِيلُ

وشبيه بهند المنتصرة المنهزمة في شماتتها بقتل حمزة رضي الله عنه والمسلمين يوم أحد، الشّاعر عبد الله بن الزّبعرى الذي مسح دموع الثّكلى التي ذرفها على قتلى قريش يوم بدر، واستعاض عنها بدموع المشتاق الذي ولّى شبابه، وبعد عنه أحبّته، لكن هيهات أن ترجع الدّموع الغزار من قد ذهب! لذلك، فلا جدوى من البكاء، ففي انتقال أنباء النّصر تحملها الرّكبان إلى كلّ مكان عزاء على كلّ فراق، وفخر وأيّ فخر!. فقد سارت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم قائد يُضمِر البغضاء والشرّ لأعدائه، ويُبدي الودّ والخير لأحبابه، وقد زرع الرّعب في نفوس خصومه من الأوس وبني النّجّار، فأيقنوا بالهلاك، وتمنّوا لو أنّ الأرض ابتلعتهم، ففقدوا صبرهم، واستولى عليهم الفزع، فكانوا فريسة سهلة لسيوف قريش البتّارة، ولقمة سائغة لضباع الفلاة وطيورها، ولم يسلم منهم إلاّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم حين أوى إلى أعلى الجبل، وبقي حمزة رضي الله عنه ضجيعا مضرّجا بدمائه؛ وهكذا كان يوم أحد ثأرا مروّعا بما ارتوت فيه رماح الفرسان من دماء المسلمين، يقول ابن الزّبعرى:[3]

أَلاَ دَرَفَتْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ دُمُوعُ ... وقَدْ بَانَ مِن حَبْلِ الشَّبَابِ قُطُوعُ[4]

وليس لِمَا وَلَّى على ذِي حَرَارَةٍ ... وإِنْ طَالَ تَذْرَافُ الدُّمُوعِ رُجُوعُ

فَدَرْ ذَا ولَكِنْ هَلْ أَتَى أُمَّ مَالِكٍ ... أَحَادِيثُ قَوْمِي والحَدِيثُ يَشِيعُ

عَشِيَّةَ سِرْنَا في لُهَامٍ يَقُودُنَا ... ضَرُورُ الأَعَادِي لِلصَّدِيقِ نَفُوعُ[5]

---

[1]- أبو يعلى: كنية حمزة رضي الله عنه- الوصول: الواصل أهله وإخوانه ببرّه وفضله.
[2]- الوالهة: الفاقد- والعبرى: الكثيرة الدّمع- والهبول : الفاقدة.
[3]- المصدر السّابق: ص 131.
[4]- ذرفت: سالت.
[5]- اللّهام: الجيش الكثير.

فلَمَّـــا رأَوْنَـــا خَالطَتْـــهُمْ مَهَابَـــةٌ ... وعَايَنَـــهُمْ أَمْرٌ هُنَـــاكَ فَظِيـــعُ

وَوَدُّوا لَـــو أَنَّ الأرضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُهَـــا ... بِهِمْ وصَبُـــورُ القَـــوْمِ ثَمَّ جَـــزُوعُ

فَغَادَرْنَ قَتْلَـــى الأَوْسِ عَاصِبَـــةً بِـــهِمْ ... ضِبَـــاعٌ وطَيْـــرٌ يَعْتَفِيـــنَ وُقُـــوعُ[1]

وجَمْعُ بنـــي النَّجّـــارِ في كُلِّ تَلْعَـــةٍ ... بِأَبْدَانِـــهِمْ مِن وَقْعِـــهِنَّ نَجِيـــعُ[2]

وَلَوْلاَ عُلُوُّ الشِّعْـــبِ غَـــادَرْنَ أَحْمَـــدًا ... ولكنْ عَلاَ والسَّمْهَـــرِيُّ شُـــرُوعُ[3]

كَمَـــا غَـــادَرَتْ في الكَرِّ حَمْزَةَ ثَاوِيـــًا ... وفي صَدْرِهِ مَاضِـــي الشَّبَـــاةِ وَقِيـــعُ[4]

بِأُحْدٍ وأَرْمَـــاحُ الكُمَـــاةِ يَرِدْنَـــهُمْ ... كما غَالَ أَشْطَـــانَ الدِّلاءِ نُـــزُوعُ[5]

وهكذا كانت لهجة الفخر عند شعراء قريش لهجة جاهليّة في مضامينها، تعتمد على إبراز القوّة المادّية بالعدد والعدّة وشدّة البطش بالأعداء، وإطعام الوحش من ضحاياهم، والرّفق بالأصدقاء ودفع الأذى عنهم. كما صوّر هؤلاء الشّعراء حربهم الضّروس وكأنّها حرب ضدّ الأوس وبني النّجّار لا ضدّ المسلمين جميعا؛ فهي أيّام جديدة بين القريتين مكّة ويثرب، تضاف إلى أيّام العرب في الجاهليّة. وكان على شعراء الدّعوة الإسلاميّة التّعويل على المضامين نفسها، والتّذكير بالوقائع والأيّام لإفحام خصومهم، مع مزجها بمضامين جديدة إسلاميّة تتمثّل في تثبيت الله تعالى ونصره لرسوله صلّى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، وفوز قتلاهم بالخلود في الجنّة. فهذا حسّان بن ثابت الشّاعر المؤمن لا يبدي جزعه على ما أصاب المسلمين يوم أحد، فيبدو واثقا من نفسه عند مناقضته قصيدة ابن الزّبعرى معنى بمعنى. فهو يسخر-بادئ ذي بدء-من مقدّمته الطلليّة الغزليّة التي تتنافى والموقعة الحربيّة التي تدعو إلى مزيد من التأمّل ومعاودة النّظر لاستخلاص الدّروس منها. فالأوس وبنو النّجّار ما فزعوا ولا استكانوا، بل جالدوا أعداءهم، وآمنوا بالله تعالى، ونصروا رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم حين كفر به قومه من قريش، وآذوه وخذلوه، فشتّان بين الطّاعة والعصيان، وما أقسى ظلم الأقرباء! وأيّ فخر بالنّصر يجوز لقتل قوم إمامُهم حمزة

---

[1] يعتفين: يطلبن الرّزق.

[2] التلاع: جمع تلعة، وهي مجرى الماء من أعلى الأرض إلى بطون الأودية. وهي أيضا المرتفع من الأرض والمنخفض منها، فهي من الأضداد- والنّجيع: الدّم.

[3] الشّعب: الطّريق في الجبل- والسّمهريّ: الرّماح -وشروع: مائلة للطّعن.

[4] وشباة كلّ شيء: حدّه- وقيع: محدّد.

[5] الكماة: الشّجعان- غال: أهلك- الأشطان: الحبال- الدّلاء: جمع دلو- النّزوع بضمّ النون: جذب الدّلو وإخراجها من البئر، والنّزع بفتحها: المستقى.

أسد الله استشهدوا كلّهم في طاعة ربّهم، فأعدّ لهم جنّات خالدين فيها أبدا، يتنعّمون بخيراتها، كما أعدّ لقتلى الكفّار نارا متأجّجة، يشربون فيها حميما، ويطعمون ضريعا لا يسمن ولا يغني من جوع، قال حسّان:[1]

أَشَـــافَكَ مِنْ أُمِّ الوَلِيـــدِ رُبُـــوعُ ... بَلاَقِـــعُ مَا مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيـــــعُ[2]

فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَوْقِـــدُ النَّارِ حَوْلَـــــهُ ... رَوَاكِدُ أَمْثَـــالُ الحَمَـــامِ وُقُـــوعُ[3]

فَدَعْ ذِكْـــرَ دَارٍ بَدَّدَتْ بَيْنَ أَهْلِـــهَـــا ... نَـــوَى فَرَّقَتْ بَيْنَ الجَمِيـــعِ قُطُـــوعُ

وَقُـــلْ إِنْ يَكُنْ يَـــوْمٌ بِأُحُـــدٍ يَعُـــدُّهُ ... سَفِيـــهٌ فَإِنَّ الحَـــقَّ سَوْفَ يَشِيـــعُ[4]

وَقَدْ ضَـــارَبَتْ فِيهِ بَنُـــو الأَوْسِ كُلُّـــهُمْ ... وَكَـــانَ لَهُمْ ذِكْـــرٌ هُنَاكَ رَفِيـــعُ

وَحَامَى بَنُـــو النَّجَّارِ فيه وضَارَبُـــوا ... ومَـــا كَـــانَ مِنْهُمْ فِي اللِّقَـــاءِ جَزُوعُ

أَمَـــامَ رَسُـــولِ اللهِ لا يَخْذُلُـــونَـــهُ ... لَهُم نَـــاصِـــرٌ مِنْ رَبِّـــهِمْ وَشَفِيـــعُ

وَقَـــوْا إِذْ كَفَرْتُمْ يَـــا سَخِيـــنَ بِرَبِّكُمْ ... وَلا يَسْتَـــوِي عَبْدٌ عَصَـــا ومُطِيـــعُ[5]

فَإِن تَتْرُكُـــرُوا قَتْلَـــى وحَمْزَةُ فِيـــهِمُ ... قَتِيـــلٌ ثَـــوَى لِلّهِ وَهْـــوَ مُطِيـــعُ

فَإِنّ جِنَـــانَ الخُلْـــدِ مَنْـــزِلُـــهُ بِهَـــا ... وَأُمْـــرُ الَّذِي يَقْضِي الأُمُورَ سَرِيـــعُ

وَقَتْـــلاكُمُ فِي النَّـــارِ أَفْضَلُ رِزْقِـــهِمْ ... حَمِيـــمٌ مَعًـــا فِي جَوْفِهَـــا وضَرِيـــعُ[6]

هي ذي عقيدة المؤمن وأخلاقه عند الهزيمة، ثباتٌ على الحقّ حين تزيغ الأبصار، وعزّةٌ يحار لها الكفّار، سلاحه في ذلك قوله جلّ شأنه:{ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}.[7]

لكنّ المشركين وحلفاءهم-بعد نصرهم في أحد- طمعوا في المسلمين حتّى إنّ بني النّضير حاولوا الغدر برسول الله صلّى الله عليه وسلّم لولا أن نجّاه وحي من السّماء، فأجلاهم عن المدينة،[8] فازداد حقد اليهود عليه، وخوفهم على مقامهم في أرض العرب،

---

[1]-ديوان حسّان: ص 313- 315.

[2]-ربوع: جمع ربع، محلّة القوم ومنزلهم- بلاقع: جمع بلقع، ومنزل بلقع خال -وتقول: قوم جميع أي مجتمعون، يقول: ما أهلهن مجتمعون.

[3]-الرّواكد: الثوابت، يعني الأثافي.

[4]-يعدّه سفيه: أي يعتدّ به علينا.

[5]-ياسخينة : والسّخينة طعام يتّخذ من دقيق وتمر أو ماء يطبخ ثمّ يؤكل، أغلظ من الحساء وأرقّ من العصيدة؛ وكانت قريش تكثر من أكلها، فعيرت بها حتى سمّوا سخينة- وعبد عصا أي عصا ربّه.

[6]-الحميم: الماء الحارّ- والضّريع: نبات أخضر يرميه البحر، طعام أهل النّار.

[7]-آل عمران: 139.

[8]-السّيرة النبويّة 3: ص 172- 174.

فحزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان ضدّه. فلمّا سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بما يدبّر له، ضرب الخندق على المدينة برأي من سلمان الفارسيّ، حتّى إذا أقبلت جموع المشركين في عشرة آلاف مقاتل، ورأوا الخندق، أسقط في أيديهم، لأنهم لا عهد لهم بهذا الضّرب من القتال. ثمّ إنّ يهود بني قريظة نقضوا عهدهم مع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، فاشتدّ الحصار على المسلمين. فكانت غزوة الخندق-سنة خمس للهجرة-امتحانا رهيبا لإيمانهم، وزلزلوا زلزالا شديدا، حتّى فرّج الله سبحانه وتعالى كربتهم بأن زرع الفرقة في صفوف المشركين، وبعث عليهم الرّيح في ليال شديدة البرد، فاقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم[1]. وقد صوّر القرآن الكريم ما نزل بالمؤمنين من بلاء وتمحيص لنفوسهم، ثمّ إنعام الله عليهم بأن فرّج كربتهم، قال عزّ وعلا:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا}.[2]

فلمّا اطمأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّمإلى رجوع الأحزاب إلى بلادهم، غزا بني قريظة، وحاصرهم عدّة ليال حتّى استسلموا له، فردّ حكمهم إلى سيّد الأوس سعد بن معاذ، فحكم بقتل الرّجال وتقسيم الأموال، وسبي الذّراري والنّساء، وهكذا كان حكم الله تعالى عليهم[3]. وبعد انقضاء شأن قريظة، انفجر بسعد بن معاذ جرحه، لسهم أصابه في غزوة الخندق، فمات شهيدا، وقد أخبر جبريل عليه السّلام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أنّ أبواب السّماء قد فتحت له، واهتزّ له العرش[4]. وإن لم تكن نتيجة معركة الخندق لأحد الطّرفين، فإنّ شعراء المشركين عدّوا حصار جيوش الأحزاب للمسلمين شهرا كاملا وراء خندقهم نصرا مؤزّرا يدلّ على قوّة موقفهم وصواب عقيدتهم الوثنيّة، وبخاصّـــــــة بعد أن استفسرت قريش ذلك النّفر من اليهود الذين جاءوا مكّة لدعوتها إلى حرب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم واستئصاله، فقالت لهم: "يا معشر يهود، إنّكم أهل الكتاب الأوّل والعلم

---

[1]-المصدر السابق: ص 195- 210.
[2]-الأحزاب: 9.
[3]-المصدر السّابق: ص 212- 218.
[4]-المصدر السّابق: ص 227.

بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمّد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحقّ".[1]

لذلك، لا نعجب حين نجد الشاعر ضرار بن الخطّاب يتخلّى عن الهجاء الجاهلّي بالوقائع والأيّام، وتوعدّ الأوس وبني النّجّار من دون المهاجرين، ويستبدل به هجاء عقيديّا ضدّ المسلمين جميعا هذه المرّة، فينعتهم بالغواية والخطيئة والسّفه، على الرّغم ممّا يدّعونه من الحِلم والتّقوى؛ فقد حاصرهم جيش كثيف مدجّج بالأسلحة، فكأنّه جبل أُحُد كتم أنفاسهم شهرا كاملا، صباح مساء، وفي كلّ يوم، ولم ينقذهم من التّدمير إلاّ خندق احتموا وراءه مذعورين، فكانوا قريبين بعيدين، وأمسوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، لولا الرّيح التي اضطرّت الجيوش المحاصرة إلى الرّحيل. ولكنّ عزاء الشّاعر الوحيد يكمن في سماعه نوح الثّكالى من النّساء على مقتل سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأمله أن يجتمع العرب الأشاوس من كنانة في أقرب فرصة لاقتحام المدينة على من فيها، يقول ضرار:[2]

وَمُشْفِقَةٍ تَظُنُّ بِنَا الظُّنُونَا ... وقد قُدْنَا عَرَنْدَسَةً طُحُونَا[3]

كَأَنَّ زُهَاءَهَا أُحُدٌ إذا ما ... بَدَتْ أَرْكَانُهُ لِلنَّاظِرِينَا[4]

تَرَى الأَبْدَانَ فِيهَا مُسْبِغَاتٍ ... على الأَبْطَالِ واليَلَبِ الحَصِينَا[5]

وجُرْدًا كالقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ ... نَؤُمُّ بها الغُوَاةَ الخَاطِئِينَا[6]

كَأَنَّهُمْ إذا صَالُوا وصُلْنَا ... بِبَابِ الخَنْدَقَيْنِ مُصَافِحُونَا[7]

أُنَاسٌ لا نَرَى فِيهِمْ رَشِيدًا ... وقَدْ قالُوا أَلَسْنَا رَاشِدِينَا

فَأَحْجَرْنَاهُمْ شَهْرًا كَرِيتًا ... وكُنَّا فَوْقَهُمْ كَالقَاهِرِينَا[8]

نُرَاوِحُهُمْ ونَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ ... عَلَيْهِمْ في السِّلاحِ مُدَجَّجِينَا[9]

فَلَوْلاَ خَنْدَقٌ كَانُوا لَدَيْهِ ... لَدَمَّرْنَا عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَا

---

[1]- المصدر السّابق: ص195.
[2]- المصدر السّابق: ص 230- 231.
[3]- العرندسة: الشّديدة القوّة، يريد كتيبة- والطّحون: التي تطحن كلّ ما مرّت به.
[4]- زهاؤها: تقدير عددها.
[5]- الأبدان: الدّروع- ومسبغات: كاملة- واليلب: التّرسة أو الدّرق.
[6]- الجرد: الخيل العتاق- القداح: السّهام- المسوّمات: المرسلة- نؤمّ: نقصد.
[7]- المصافحة: أخذ الرّجل بيد الرّجل عند السّلام، والمراد أنّهم كانوا قريبين بعضهم من بعض.
[8]- أحجرناهم: حصرناهم- شهرا كريتا: تامّا كاملا.
[9]- المدجّج: الكامل السّلاح.

ولَكِـــنْ حَـــالَ دُونَـــهُمْ وكَـــائُـــوا ... بِهِ مِنْ خَوْفِنَـــا مُتَعَوِّذِيـنَـــا
فَإِنْ نَـرْحَـــلْ فَإِنَّـــا قد تَرَكْنَـــا ... لَـدَى أَبْيَـاتِـــكُمْ سَعْـدًا رَهِينَـــا
إِذا جَـــنَّ الظَّـــلامُ سَمِعْتُ نَوْحَـــى ... علـــى سَعْدٍ يُرَجِّـــعْـــنَ الحَنِـينَـــا[1]
وتَـــوْفَ نَـزُورُكُـمْ عَمَّـا قَريـــبٍ ... كمـــا زُرْنَـــاكُمْ مُتَوَازِرِينَـــا[2]
بِجَمْـــعٍ مِنْ كِنَـــانَةَ غَيْـرِ عُـــزْلٍ ... كأُسْدِ الغَـــابِ قد حَمَتِ العَرِينَـــا[3]

فأجابه كعب بن مالك ناقضا افتراءاته على المسلمين، مفنّدا ادّعاءاته بالقوّة والسّطوة، مشيدا بصبر المؤمنين الملتفّين حول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، لائذين بعون الواحد القهّار في جهاد الظّالمين الرّافضين للهدى والرّشاد. فقد كان المسلمون في ثلاثة آلاف كالأسود الضّارية في كامل عدّتهم، يقتلون كلّ من سوّلت له نفسه اجتياز الخندق، وهم صادقو العزم في نصرة الله تعالى ورسوله صلّى الله عليه وسلّم حتّى لا يُعْبَد غيره في الأرض. ولْتَتَأكَّدِ الأحزاب أنّ الله وحده لا شريك له قادر على نصرة عباده الأحياء، وإحياء أمواتهم الشّهداء أمثال سعد بن معاذ رضي الله عنه في جنّات النّعيم، وعلى ردّ أعدائهم مخذولين مشتّتين منهزمين بريح عاصفة، كادت تدمّرهم تدمير الأمم العاتية الغابرة، قال كعب:[4]

وسَـــائِلَةٍ تُسَائِـــلُ ما لَقِينَـــا ... وَلَوْ شَهِدَتْ رَأَتْنَـــا صَابِرِينَـــا
صَبَرْنَـــا لا نَـــرى لِلهِ عَـــدْلاً ... علـــى مـــا نَابَنَـــا مُتَوَكِّلِينَـــا
وكَـــانَ لَنَـــا النَّبِيُّ وَزِيـرَ صِـدْقٍ ... به نَعْلُـــو البَرِيَّـــةَ أَجْمَعِينَـــا
نُقَاتِـــلُ مَعْشَـــرًا ظَلَمُوا وعَقُّـــوا ... وكانُـــوا بِالعَـــداوةِ مُرْصِدِينَـــا[5]
نُعَاجِلُـــهُمْ إِذا نَهَضُـــوا إِلِينَـــا ... بِضَـــرْبٍ يُعَجِّـــلُ المُتَسَرِّعِينَـــا
تَرانَـــا فِي فُضَافِـــضَ سَابِغَـــاتٍ ... كَغُـــدرانِ المَلاَ مُتَسَـرْبِلِينَـــا[6]
بِبَـــابِ الخَنْدَقَيْـــنِ كَأَنَّ أُسْـــدًا ... شَوَابِكُـــهُنَّ يَحْمِيـــنَ العَرِينَـــا[7]

---

[1] ـ النّوحى: جماعة النساء اللاتي ينحن.
[2] ـ متوازرين: متعاونين.
[3] ـ كنانة: أحد أجداد قريش- العزل: الذين لا سلاح لهم- الغابة: هي الأجمة- العرين: موضع الأسد.
[4] ـ المصدر السّابق: ص231- 232.
[5] ـ المرصد: المعدّ للأمر عدّته.
[6] ـ الفضفاض: الدّروع المتسعة- سابغات: كاملة- الملا: المتسع من الأرض- المتسربلون: لابسو الدّروع.
[7] ـ الشّوابك: التي يتشبّث بها فلا يفلت.

فَوَارِسُنَـــــا إِذا بَكَـــرُوا وراَحُـــوا ... على الأَعـــــداءِ شُوسًا مُعْلَمِينَـــا [1]

لِنَنْصُـــــرَ أَحْمَـــــدًا واللهَ حَتَّـــى ... تَكُـــونَ عِبـــادَ صِدقٍ مُخْلِصِينَـــا

ويَعلَـــمُ أَهـــلُ مكّةَ حين سَـــارُوا ... وأَحـــزابٌ أَتَـــوْا مُتَحَزِّبِينَـــا

بِـــأَنَّ اللهَ ليسَ لَـــهُ شَرِيـــكٌ ... وأَنَّ اللهَ مَوْلَـــى المُؤْمِنِينَـــا

فَإِمَّـــا تَقتلُـــوا سَعْـــدًا سِفاهـــًا ... فإِنّ اللهَ خَيـــرُ القادرِينَـــا

سَيُدْخِلُـــهُ جِنـــانـــًا طيّبـــاتٍ ... تكـــونُ مَقـــامَـــةً لِلصَّالِحِينَـــا

كَمَـــا قد رَدَّكُـــمْ فَلاًّ شَرِيـــدًا ... بِغَيْظِـــكُمْ خَـــزايَـــا خَائِبِينَـــا [2]

خَزايَـــا لم تَنالُـــوا ثَمَّ خَيْـــرًا ... وكِدْتُمْ أَنْ تَكـــونُـــوا دَامِرِينَـــا [3]

بريـــحٍ عَـــاصفٍ هَبَّتْ عَلَيْـــكُمْ ... فكُنتُـــمْ تَحتَهَـــا مُتَكَمِّهِينَـــا [4]

ولعلّ في تلك الرّيح العاصفة التي هدمت خيام قريش وحلفائها، وأطفأت نيرانهم، دلالة على ذهاب أمرها وخور قوّتها، وتحوّل المبادرة إلى معسكر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يغزوها في عقر دارها ولا تغزوه[5]. وبدأت بشائر هذا التحوّل الإيجابيّ في مسار الدّعوة الإسلاميّة، بدعم صفوف المسلمين بإسلام رجلين من أشراف قريش ذَوَيْ رأي وحنكة وسيف بتّار، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص[6]. أمّا البشارة الأخرى فهي خروج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه سبعمائة من أصحابه معتمرا لا محاربا في ذي القعدة من سنة ستّ للهجرة، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة لتعلم قريش أنّه أتى زائرا بيت الله الحرام، ومعظّما له، ولكنّها كرهت منه ذلك، وعدّته تحدّيا لها، وقد طال التّفاوض بينهما حتّى أفضوا إلى عقد صلح الحديبية[7]: على أن يأمن النّاس من الحرب عشر سنين، وأن يرجع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ذلك العام، ويعود في العام المقبل، فتخرج قريش من مكّة، ويقيم بها ثلاثا هو وأصحابه[8].

---

[1]- الشّوس: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظر المتكبّر بمؤخّر عينه- والمعلم:- بفتح اللاّم وكسرها- الذي أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها.

[2]- الفلّ: القوم المنهزمون- الشّريد: الطّريد.

[3]- دامرين: هالكين.

[4]- العاصف: الرّيح الشّديدة- المتمكّه: الأعمى الذي لا يبصر.

[5]- المصدر السّابق: ص 230.

[6]- المصدر السّابق: ص 252.

[7]- الحديبية: قرية متوسّطة، سمّيت ببئر هناك عند مسجد الشّجرة التي بويع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحتها بيعة الرّضوان، بينها وبين مكّة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. (ينظر: المصدر السّابق: ص 282).

[8]- المصدر السّابق: ص 292.

ثمّ انصرف الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، وفيما هو بين مكّة والمدينة، نزلت سورة الفتح، يبشّره الله تعالى فيها بالفتح المبين :{ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا}.[1]

وفي ظلال صلح الحديبية، جادت قريحة الشّاعر حسّان بن ثابت بقصيدة تنبّأ فيها بفتح مكّة، ومطلعها:[2]

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاءُ[3]

وبعد مقدّمة طلليّة غزليّة على عادة شعراء الجاهليّة، شرع حسان في وصف خيل المسلمين بشوقها إلى مصادمة مشركي قريش، وتعطّش رماحهم إلى دمائهم، حتّى إنّ فرسانهم جبنوا وانسحبوا من المعركة، ولم تبق إلاّ نساؤهم تردّ وجوه الخيل بخمرهنّ، فكان أمام قريش خياران أحلاهما مرّ: فإن آثرت السّلام، أدّى المسلمون عمرتهم، وانكشف الغيب عن وعد الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وسلّم بفتح مكّة، وإلاّ فهي الحرب يعزّ فيها الله عزّ وجلّ جنده ودينه الذي نزل به روح القدس جبريل عليه السّلام من السّماء إلى الأرض، على المصطفى صلّى اله عليه وسلّم الذي لم يخش في تبليغ الحقّ لومة لائم، ولكنّ قومه الأقربين في مكّة كذّبوه، وخذلوه، وطردوه، فيسّر الله تعالى له من المدينة جندا صدّقوه، وآووه، ونصروه، فسمّوا الأنصار؛ وصار دَيْدَنُهم مع قريش في كلّ يوم: سباب، أو قتال، أو هجاء، وفي كلّ حال كانت لهم الغلبة عليها. فشعراء الأنصار: حسّان وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، كانوا أقذع هجاء، وفرسانهم كانوا أقدر على الجلاد، يُذلّون بسيوفهم البتّارة أمثال أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الجبان الرّعديد، وبني عبد الدّار الذين ضيّعوا اللّواء في بدر ثمّ في أحد، حتّى صار إلى عبد لهم، فقُتل وهو في يده. فكيف يجوز -بعد كلّ هذا- أن يتطاول أبو سفيان بن الحارث على

---

[1]- الفتح: 1- 3.

[2]- ديوان حسّان: ص 57

[3]- عفت: درست- ذات الأصابع والجواء: موضعان بالشّام بأكناف دمشق، وعذراء: موضع على بريد من دمشق؛ وكانت بهذه المواضع منازل بني جفنة ملوك غسّان الذين كان يقصدهم حسّان مادحا في الجاهليّة.

محمّد صلّى الله عليه وسلّم المبارك، الخيّر، الأمين، الوفيّ، فيهجوه وهو دونه؟ بل شرّه فداء لخيره صلّى الله عليه وسلّم، وهجاؤكم ومدحكم ونصركم له-اليـــــــوم- سواء، بعد أن ضعفتم وذهبت ريحكم. فقد تواشجت أواصر النّسب والقرابة بين الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وحسّان رضي الله عنه، حتّى لكأنّما عرضهما واحد، لذا وقف لسانه القاطع وشعره البارع لصيانة عرضه الشّريف، لا يبغي من ذلك سوى ثواب الله ومغفرته، يقول:[1]

عَدِمْنَـــــا خَيلَنَـــــا إِنْ لم تَرَوْهَـــا ... تُثِيـــــرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَـــا كَـــدَاءُ[2]

يُبَارِيـــــنَ الأَسِنَّـــةَ مُصْعِـــدَاتٍ ... على أَكْتَافِهَـــا الأَسَـــلُ الظِّمَـــاءُ[3]

تَظَـــلُّ جِيادُنَـــا مُتَمَطِّـــرَاتٍ ... تُلَطِّمُـــهُنَّ بالخُمُـــرِ النِّســـاءُ[4]

فإِمَّا تُعْرِضُـــوا عنَّـــا اُعْتَمَرْنَـــا ... وكـــانَ الْفَتْـــحُ وانْكشَفَ الغِطَـــاءُ[5]

وإِلاَّ فاصْبِـــرُوا لِجِـــلادِ يَـــوْمٍ ... يُعِـــزُّ اللهُ فِيـــهِ مَنْ يَشَـــاءُ[6]

وجِبريـــلُ رَســـولُ اللهِ فِينَـــا ... ورُوحُ القُدْسِ ليـــسَ لهُ كِفَـــاءُ[7]

وقـــالَ اللهُ قد أَرْسَلْـــتُ عَبـــدًا ... يَقُـــولُ الحقَّ إِنْ نَفَـــعَ البَـــلاءُ[8]

شَهِدْتُ بِـــهِ فقُومُـــوا صَدِّقُـــوهُ ... فَقُلْتُمْ لا نَقُـــومُ ولا نَشَـــاءُ[9]

وقـــالَ اللهُ قَدْ يَسَّـــرْتُ جُنْـــدًا ... هُمُ الأَنْصَـــارُ عُرْضَتُهَـــا اللِّقَـــاءُ[10]

لَنَـــا فِي كُلِّ يَـــوْمٍ مِنْ مَعَـــدٍّ ... سِبَـــابٌ أَوْ قِتَـــالٌ أَوْ هِجَـــاءُ[11]

فَنَحْكُـــمُ بِالقَوَافِـــي مَنْ هَجَانَـــا ... ونَضْرِبُ حِيـــنَ تَخْتَلِطُ الدِّمَـــاءُ[12]

أَلاَ أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُفْيَـــانَ عَنِّـــي ... فأَنْتَ مُجَـــوَّفٌ نَخِـــبٌ هَـــوَاءُ[13]

---

[1]- المصدر السّابق: ص 60-66.

[2]- النقع: الغبار- كداء: الثنية العليا بمكة ممّا يلي المقابر، وهو المعلّى، وباب من أبوابها .وقد دخلها المسلمون بعد ذلك يوم الفتح منه.

[3]- يبارين الأعنّة: أي أنّها تجاري الأعنّة في اللّين وسرعة الانقياد- مصعدات: أي ذاهبات صعدا- الأسل الظّماء: الرّماح السّمر أو الرّماح المتعطّشة إلى الدّماء.

[4]- متمطّرات: تعدو بشدّة يسبق بعضها بعضا- والخمر: جمع خمار وهو ما تغطّي به المرأة رأسها- وتلطّمهنّ بالخمر النساء أي يضربن خدود الخيل بخمرهنّ لتردّها، وهو كناية عن ضعف أهل مكّة.

[5]- اعتمرنا: أي أدّينا العمرة- وانكشف الغطاء عمّا وعد الله به نبيّه صلّى الله عليه وسلّم من فتح مكّة في غير وقت الحجّ، إذ دخلها في رمضان سنة ثمان للهجرة..

[6]- الجلاد: التضارب بالسّيوف في القتال.

[7]- روح القدس هو جبريل عليه السّلام، لأنّ القدس الطّهارة، وهو من الطّهارة خلق- وليس له كفاء أي ليس له نظير.

[8]- عبدا يعني رسول الله- صلّى الله عليه وسلّم- والبلاء الامتحان والاختبار يكون في الخير وفي الشّرّ.

[9]- شهدت به: آمنت وصدّقت.

[10]- الأنصار هم أنصار النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- العرضة: الهمّة، وهي عرضة له أي قوي عليه.

[11]- لنا يعني معشر الأنصار- وقوله: من معدّ يريد قريشا لأنّهم عدنانيّون.

[12]- فمن هجانا منهم رجعناه ومنعناه من أن يعود بقوافينا اللّذّاعة المفحمة، ومن صمد لقتالنا ضربناه وعصفنا به-

[13]- مجوّف نخب هواء كلّها بمعنى جبان لا قلب له، ونخب منزوع القلب -وهواء: خالي الجوف

بِأَنَّ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا ... وعَبْدَ الدَّارِ سَادَتُهَا الإِمَاءُ[1]

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ ... وعندَ اللهِ في ذاكَ الجَزاءُ[2]

أَتَهْجُوْهُ ولَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِداءُ[3]

هَجوتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا ... أَمِينَ اللهِ شِيمَتُهُ الوَفَاءُ[4]

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ ... وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي ... لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ[5]

لِسَانِي صَارِمٌ لا عَيْبَ فِيهِ ... وبَحْرِي لا تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ[6]

إذن، بدأ صوت الشّاعر المؤمن يعلو، وصوت الشّاعر المشرك يخفت، وأخذت شوكة المؤمنين تقوى وتشتدّ، فقد استغلّ الرسول صلى الله عليه وسلم الهدنة بينه وبين قريش وفتح حصون خيبر[7]، وصادف هذا الفتح المبين قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من المهاجرين إلى الحبشة، فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا التوفيق من الخالق عز وجل[8]. ثم مكث الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أشهرا، حتى إذا حلّ شهر ذي القعدة من سنة سبع للهجرة، خرج هو وأصحابه معتمرا عمرة القضاء أو عمرة القصاص، لأنه اقتصّ من قريش، إذ صدّته عن البيت في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ستّ للهجرة[9]، فدخل مكّة، وأدّى العمرة على مرأى من أهلها، وأقام بها ثلاثا، ثم قفل راجعا إلى المدينة في ذي الحجّة.

---

[1] - عبدا: ذليلا- وعبد الدّار بطن من بيطون قريش، وهو عبد الدار بن قصيّ بن عبد مناف، وبنو عبد الدار هم سدنة البيت وأصحاب الألوية، وكانوا قد تناوبوا حمل اللواء يوم أحد حتى صار إلى عبد لهم اسمه صُواب (بالضم)، فقتل وهو في يده.

[2] - الجزاء: المكافأة على الشيء إن خيرا وإن شرا، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين سمع منه ذلك قال: جزاؤك على الله الجنة يا حسّان.

[3] - فشرّكما لخيركما الفداء، جار على أسلوب الكلام المنصف، كقول الرّجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن أحدنا لكاذب.

[4] - الحنف في الأصل الميل من قولهم رجل أحنف ورجل حنفاء، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها بأصابعها، ورجل حنيف من هذا فهو الذي يتحنف عن الباطل أي يميل إلى الحق ويدين به.

[5] - العرض: المراد به هنا نفسه- الوقاء والوقاية كل ما وقيت به شيئا، فحفظته وصنته وحميته.

[6] - شبّه لسانه بالسّيف القاطع يقطع ألسنة الأعداء- وشبّه شعره بالبحر الصافي البعيد الغور الغزير الماء- والدّلاء: التي يستقى به، وواحدها دلو، أي لا ينال من شعره نقد ناقد ولا طعن معاند.

[7] - السيرة النبوية 3: ص303 وما بعدها

[8] - المصدر نفسه: ص332.

[9] - المصدر السابق 4: ص5.

وفي جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشا من ثلاثة آلاف مجاهد لجسّ نبض الرّوم، وإعلامهم بظهور أمر الإسلام الذي سيزاحم النّصرانية في الشّام، فخرج لهم هرقل في مائة ألف من الرّوم ومائة ألف من العرب، والتقى الجمعان في مؤتة[1]، فشجّع الناس عبد الله بن رواحة قائلا: "يا قوم، والله إن التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون: الشّهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنّما هي إحدى الحسنيين: إمّا ظهور وإمّا شهادة"[2]؛ فكأنّما سنّ الشّاعر المجاهد؛ بهذه الكلمات البليغة في تلك اللحظة الحرجة، ناموسا جهاديّا اعتنقه المجاهدون الفاتحون بعده. وقد تشجّع المسلمون، فقاتل القائد الأوّل زيد بن حارثة رضي الله عنه براية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى استشهد، فأخذها القائد الثّاني جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتل حتّى قطعت يمينه ثمّ شماله، فاحتضنها بعضديْه حتّى استشهد. فإذا جاء دور القائد الثّالث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه تقدّم بالرّاية، فطففت نفسه تضادّه، وتثنيه عمّا هو مُقدِم عليه، فأخذ يعنّفها ويؤنّبها على تردّدها وزهدها في الجنّة وقت الهول والحرب، بعد أن كانت تحلم بها وقت الأمن والسّلام؛ فما لها ترغب عن الشّرب من الكأس التي شربت منها نفسا الشّهيدين العظيمين زيد وجعفر رضي الله عنهما؟ إنّها أحقر من أن تضنّ بما جاد به المجاهدون المسلمون، فلا خيار لها عن النّزال راغبة أو راغمة، يقول:[3]

أَقْسَمْتُ يـــا نَفْـــسُ لَتَنْـــزِلِنَّـــهْ ... لَتَنْزِلِـــــنَّ أَوْ لَتُكْـــــرَهِنَّـــــهْ

إِنْ أَجْلَـــبَ النَّـــاسُ وشَدُّوا الرَّنَّـــــهْ ... ما لِـــي أَرَاكِ تَكْرَهِيـــنَ الجَنَّـــــهْ[4]

قد طَـــالَ مـــا قد كُنتِ مُطْمَئِنَّـــــهْ ... هَلْ أَنـــــتِ إِلاَّ نُطْفَـــةٌ في شَنَّـــهْ[5]

فإذا انقادت له نفسه ساقها إلى الشّهادة، ما دام الموت مصيرها، فتُبادِرْ إلى انتهاز الفرصة وتحقيق الأمنية، ولْتَهْتَدِ إلى الفوز كما اهتدت له نفسَا القائدين الشّهيديـــــــن،

---

[1] - مؤتة: قرية قريبة من الكرك، وهي مشارف الشام.
[2] - المصدر السابق: ص11.
[3] - المصدر السّابق: ص 15.
[4] أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا- الرّنّة: صوت ترجيع شبه البكاء.
[5] النّطفة: الماء القليل الصّافي- الشّنّة: السّقاء البالي، أي فيوشك أن تهرق النّطفة أو ينخرق السّقاء، ضرب ذلك مثلا لنفسه في جسده.

قال الشّاعر المجاهد:[1]

يـــا نَفْـسُ إِلاَّ تُقْتَـلِي تَمُوتِـــي هذا حِمَـــامُ المَـــوْتِ قَدْ صُلِيـتِ

ومـــا تَمَنَّيْتِ فقـــدْ أُعْطِيـــتِ إِنْ تَفْعَلِـــي فِعْلَهُمَـــا هُدِيـتِ

ثمّ استشهد عبدُ الله بن رواحة رضي الله عنه ، فاختار المسلمون خالد بن الوليد رضي الله عنه قائدا، فآثر توفير دمائهم، فاستطاع -بعبقريته الحربيّة-أن ينسحب بهم إلى المدينة، واستقبلهم النّاس يَحْثُونَ عليهم التراب، ويقولون: " يا فرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم :" ليسوا بالفرّار، ولكنّهم الكُرّار إن شاء الله تعالى".[2]

وقد حزن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لمقتل حِبِّهِ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حزنا شديدا، فواساه والمسلمين في شهدائهم شاعرُه حسّانُ رضي الله عنه بمرثية متفجّعة هيّجت ذكرياته الحزينة لأحبته، وأسالت دموعه غزارا على مقتل خيار المؤمنين الذين صاروا إلى جنّات النّعيم، يقودهم المبارك المظفّر زيد بن حارثة الذي تربّى في حجر النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وعبد الله بن رواحة شاعر الدّعوة الذي شهد المشاهد كلّها بسيفه وبشعره، وذو الجناحين جعفر بن أبي طالب الوفيّ الحازم من خيرة بني هاشم ذروة الإسلام وأولياء الله تعالى، ووعاء الكتاب المقدّس، قال حسّان:[3]

تَأَوَّبَنِـــي لَيـــلٌ يَبِيْتُ أَعْسَـــرُ وهَمٌّ إِذا ما نَـوَّمَ النّـــاسُ مُسْهِـــرُ[4]

لِذِكـــرَى حَبِيبٍ هَيَّجَتْ ثَمَّ عَبـــرَةٌ سَفُوحـــاً وأَسبـــابُ البُكَاءِ التَّذَكُّـرُ[5]

بَلاءٌ وفِقـــدانُ الحَبِيـــبِ بَلِيَّـــةٌ وكَمْ مِنْ كَـرِيـــمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِـرُ

رَأَيتُ خِيـــارَ المُؤمنيـــنَ تَوَارَدُوا شَعُـــوبَ وقد خُلِّقْتُ فِيمَـــنْ يُؤَخَّـــرُ[6]

فلا يُبْعِـــدَنَّ اللهُ قَتْلَـــى تَتَابَعُـــوا بمُؤْتَةَ مِنْهمْ ذُو الجَنـــاحيْـــنِ جَعْفَـــرُ[7]

وزَيْدٌ وعبـــدُ اللهِ حِيـــنَ تَتَـــابَعُـــوا جميعـــاً وأَسبـــابُ المَنِيَّةِ تَخْطُـــرُ[8]

---

[1]-المصدر السّابق: ص 15.
[2]-المصدر السّابق: ص 19.
[3]-ديوان حسّان: ص 235- 237.
[4]-تأوّبني: عاودني ورجع إليّ- أعسر أي عسير- مسهر: مانع من النوم.
[5]-هيّجت: أي الذكرى- ثمّ: هناك- العبرة: الدّمعة- السّفوح: السّائلة المنهمرة.
[6]-شعوب: من أسماء المنيّة، من قولهم شعبت الشّيء إذا فرّقته.
[7]-ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أثابه الله تعالى بيديه جناحين في الجنّة يطير بهما حيث شاء. (ينظر: السّيرة النّبويّة 4: ص15.)
[8]-أسباب المنيّة تخطر: يقال خطر في مشيته إذا تبختر فيها وتحرّك واهتزّ.

غَداةَ غَدَوْا بالمُؤمنيـــــــنَ يَقُـــودُهُمْ إلى المــوتِ مَيْمُـــونُ النَّقِيبَةِ أَزْهَـرُ[1]

فَصَـــارَ مَعَ المُستشْهدِيـــنَ ثَوَابُـــهُ جِنَانٌ ومُلْتَفُّ الحَديقـــةِ أَخْضَـــــرُ

وكُنَّـــا نَرَى في جَعْفَـرٍ مِن مُحَمَّـــدٍ وَفاءً وأَمْـــرًا حَازمًـــا حِينَ يَأْمُـــرُ

فمَازالَ في الإِسلامِ مِنْ آلِ هَـــاشـــمٍ دَعائـــمُ عِزٍّ لا تُـــرامُ ومَفْخَـــرُ

هُمُ جَبَـــلُ الإِسلامِ والنّـاسُ حَوْلَـــهُ رِضَامٌ إِلى طَـــودٍ يَـرُوقُ ويَقْهَـرُ[2]

هُمُ أَوْليـــاءُ اللهِ أَنْـــزَلَ حُكْمَـــهُ عَليهـــمْ وفِيهِـــمْ ذَا الكِتَـــابُ المُطَهَّرُ

ثمّ حدث أن نقضت قريش ما كان بينها وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من العهد والميثاق بما استحلّت هي وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة من دماء خزاعة التي دخلت في عقده وعهده في صلح الحديبية[3]، ولم ينفع أبا سفيان بن حرب اعتذاره عمّا حدث، بل زحف الرسول صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مجاهد على مكّة في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، وفي طريقه لقيه الشّاعر أبو سفيان بن الحارث ابن عمّه وأخوه من الرّضاعة، فأسلم واعتذر إليه عمّا مضى من محاربته وهجائه له، وعبّر عن ندمه على طول عمايته وانغماسه في ظلمات الضّلال، واعترف بفضل محمّد صلّى الله عليه وسلّم عليه، إذ لم يسأم من دعوته مرارا إلى طريق الهدى ودين الحقّ، يقول:[4]

لَعَمْرُكَ إِنَّـــي يـــومَ أَحْمِـــلُ رَايـــــةً لِتَغْلِبَ خَيـــلُ اللاّتِ خَيْـــلَ مُحَمَّـــــدِ[5]

لَكَالْمُدْلِـــجِ الحَيْـــرَانِ أَظْلَـــمَ لَيْلُـــهُ فهذا أَوَانِـــي حِينَ أَهْـــدِي وأَهْتَـــدِي[6]

هَدَانِـــي هَـــادٍ غَيْرُ نفسِـــي ونَالَنِـــي مَعَ اللهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُـــلَّ مُطَـــرَّدِ

أَصُدُّ وأَنَّـــى جَاهِـــدًا عن مُحَمَّـــدٍ وأُدْعَـــى وإِنْ لَمْ أَنْتَسِبْ مِنْ مُحَمَّـــدِ

وواصل الرّسول صلّى الله عليه وسلّم سيره إلى مكّة، ودخلها فاتحا بدون قتال، فأمّن أهلها، وحطّم الأصنام التي كانت في الكعبة، وجاءه الشّاعر عبد الله بن الزّبعرى السّهميّ مسلما معتذرا، نادما على ضلاله وعلى مجاراته الشّيطان في حرب دعوة الإسلام، وإيراد

---

[1] ميمون النقيبة: مبارك النفس مظفر بما يحاول- رجل أزهر: أبيض-مشرق الوجه.
[2] الرّضام: صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض، الواحدة رضمة- يروق: يعجب-الطّود: الجبل.
[3] المصدر السابق: ص30 وما بعدها.
[4] المصدر السابق:ص 36.
[5] اللاّت: اسم صنم من أصنام قريش.
[6] المدلج: الذي يسير ليلا.

نفسه موارد الهلاك، ثمّ واعدا إيّاه بأن يبدأ حياة جديدة في ظلّ الإيمان، فيصلح في إسلامه ما أفسد في كفره، ويجبر ما انكسر، ويرتق ما انفتق في سالف الأيّام، بدءا بتسليمه المطلق –وبكلّ جوارحه – بأنّ الله عزّ وجلّ هو ربّ السّموات والأرض، وأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هو النّذير البشير للنّاس كافّة، يقول: [1]

يا رَسُولَ المليكِ إنّ لِساني ... رَاتِقٌ ما فتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ[2]

إذْ أُجَاري الشّيطانَ في سَنَنِ الغَيّ ... ومَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ[3]

آمَنَ اللّحْمُ والعِظامُ لِرَبّي ... ثُمّ قَلْبِي الشّهيدُ أنتَ النّذيرُ

ولمّا استتبّ الأمر في مكّة، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوات ثلاث أخيرة إلى حنين[4]، فالطّائف[5]، ثمّ تبوك[6]، وبعدها استقرّ في المدينة، فطفقت العرب أفرادا وقبائل تأتيه مسلمة خاضعة من كلّ أطراف شبه الجزيرة سنة تسع للهجرة، حتّى سمّيت سنة الوفود. ومن هؤلاء الأفراد التّائبين المسلمين الشّاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي أنكر دعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طويلا، بل أرسل إلى أخيه الشّاعر بجير يثنيه عن الإسلام، زاعما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غرّر به وأضلّه عن طريق الهدى، حين أخرجه من دين الآباء والأجداد، فإن لم يثب إلى رشده، ولم يعد إلى أخلاق أهله، هلك غير مأسوف عليه، قال كعب:[7]

ألاَ أبْلِغَا عنّي بُجَيْرًا رسالةً ... فهلْ لكَ فيما قُلْتُ بِالخَيْفِ هلْ لكَا[8]

شَرِبتَ مع المَأْمُونِ كَأسًا رَوِيّةً ... فأنْهَلَكَ المَأْمُونُ منها وعَلّكَا[9]

---

[1] المصدر السّابق: ص53.

[2] رتق الفتق: خالطه- البور: الرّجل الضّالّ الهالك الفاسد الذي لا خير فيه.

[3] السّنن: الطّريق سمال ميله: ذهب مذهبه عادلا عن الطّريق المستقيم-المثبور: الملعون المطرود الهالك، من الثبور: وهو الهلاك والضّياع.

[4] خرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعد الفتح سنة ثمان إلى وادي حنين، فقاتل هوازن وحلفاءها، وانتصر عليهم، فدخلت هوازن في الإسلام. (ينظر: المصدر السّابق: ص 69 وما بعدها)

[5] بعد وقعة حنين، سار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطّائف، فأغلقت ثقيف أبواب مدينتها، فحاصرهم ليالي طويلة، وقاتلهم قتالا شديدا، ولمّا امتنعت عليه، عاد إلى المدينة. (ينظر: المصدر السّابق: ص106- 108).

[6] ثمّ خرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوك لغزو الرّوم، وصالح حكام تلك البلاد على دفع الجزية له، ثمّ قفل راجعا إلى المدينة، فكانت آخر غزوة له. (ينظر: المصدر السّابق : ص 131- 142').

[7] كعب بن زهير: شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السّكريّ (ت 275هـ)، الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة (مصر)، ط.1950، ص 3-4.

8- الخيف: أسفل الجبل ،

[9] كانت قريش تسمّي النّبيّ صلّى اله عليه وسلّم المأمون والأمين.

وخَالفـــتَ أَسبـــابَ الهُـــدَى وتَبِعْتَهُ على أَيِّ شيءٍ وَيْبَ غَيْـرِكَ دَلَّكَـــا[1]
على خُلُـــقٍ لم تُلْفِ أُمًّـــا ولا أَبًـــا عَليهِ ولَمْ تُدْرِكْ عليـه أَخًـا لَكَـــا

فأنشدها بجير رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فأهدر دم كعب. فكتب بجير إلى أخيه يحذّره من مصير الشّعراء المشركين الذين هجوا المصطفى الأمين وآذوه فقتلهم، وينبّهه إلى أنّ ما هو فيه من عبادة اللاّت والعزّى هو الضّلال بعينه، ويدعوه إلى النّجاة في الدّنيا وفي الآخرة بالإسلام إلى الله وحده لا شريك له، وإلى ترك التّشبّث بدين أبيه زهير وجدّه أبي سلمى، فقد حرّمه هو على نفسه، ثمّ خيّره بين القدوم إلى المدينة تائبا مسلما أو التّيه على وجهه في الأرض، قال بجير الشّاعر المسلم:[2]

مَنْ مُبلِـــغٌ كعبـــًا فَهَلْ لَكَ في الّتي تَلُـــومُ عليهـــا بَاطِلاً وَهِيَ أَحْـــزَمُ
إِلى اللهِ لا العُزَّى ولا اللاّتِ وَحْـــدَهُ فتَنجُـــو إذا كـــان النَّجـــاءُ وتَسْلَمُ[3]
لَدَى يَـــومٍ لا يَنجُـــو وليسَ بمُفْلِتٍ مِنَ النَّـــارِ إِلاّ طـــاهرُ القلبِ مُسْلِمُ
فَدِيـــنُ زُهَيْرٍ وهُوَ لا شَيءَ دِينُـــهُ ودِيـــنُ أَبـــي سُلْمَـــى عَليَّ مُحَـــرَّمُ

فلمّا بلغ كعبًا كتابُ أخيه، ضاقت به الأرض بما رحبت، وأيقن أنّه مقتول، فقدم المدينة، وأقبل على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يمدحه ويعتذر إليه عمّا فرط منه، بقصيدة مطلعها:[4]

بانَتْ سُعَـــادُ فَقَلْبِي اليومَ مَتْبُـــولُ مُتَيَّمٌ إِثْرَهَـــا لَمْ يُجْـزَ مَكْبُـــولُ[5]

بدأ كعب بن زهير قصيدته بمقدّمة غزليّة طويلة لا تتناسب وحالة الشّاعر التّائب، إذ بلغت ثلاثة عشر بيتا، شكا فيها تباريح الشّوق لبعد صاحبته سعاد عنه، ومُمَاطلَتِها في لقائه ووصاله، ثمّ انصرف إلى وصف ناقته القويّة النّشيطة في سيرها الحثيث نحو غايتها، فأطال أكثر من ذي قبل، واستغرق في ذلك ثمانية عشر بيتا. وكانت ناقته سائرة وحواليها الوشاة الأعداء يتوعّدونه بالقتل، فيما كان الأصدقاء يَزْوَرُّونَ عنه متنزّعين بمشاغلهم حتّى

---

[1] تقول: ويبا لهذا الأمر، أي عجبا له.
[2] المصدر السّابق: ص4.
[3] اللاّت والعزّى: صنمان من اصنام قريش.
[4] المصدر السّابق: ص6.
[5] بانت: فارقت- ومتبول: أصيب بتبل، أي تبلت قلبي- ومتيّم: مضلل وهو التذلل ، ذلله الحبّ- ومكبول: محتبس عندها، والكبل: القيد- ولم يجز: من الجزاء، يقول: ما أتابتني.

أسلموه لقدره، فما كان منه إلاّ أن استسلم لقضاء الله تعالى ما دام الموت غاية كلّ حيّ مهما عُمّر، يقول:[1]

يَسْعَى الوُشَـــــاةُ بِجَنْبَيْهَـــا وقَوْلُهُـمُ ... إِنّكَ يـــابْنَ أَبي سُلْمَى لَمَقْتُـــولُ[2]

وقَـــالَ كلُّ خَلِيـــلٍ كنتُ آمُلُـــهُ ... لا أُلْفِيَنَّـكَ إِنِّـــي عنكَ مَشْغُـــولُ[3]

فقلتُ خَلُّـــوا طَرِيقِـــي لاَ أَبَـــا لَكُمُ ... فَكُلُّ مـــا قَدَّرَ الرَّحمـنُ مَفْعُـــولُ

كلُّ ابْنِ أُنْـــثَى وإِنْ طالتْ سَلامَتُـــهُ ... يومـــاً على آلةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُـــولُ[4]

ثمّ مضى يستعطف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وينشد عفوه، مستجيرا من غضبه بمُنزل الذّكر الحكيم، حتّى لا يأخذه بالظّنّ أو بما لفقه له الوشاة الشّامتون من تهم هو بريء منها! فهو في موقف حرج، يجزع له الفيل ويفرق قلبه، ما لم ينل الأمان من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم؛ هذا الأمان الذي سرى في جوارح الشّاعر مخلوطا بالرّهبة وهو يكلّم الأمين صلّى الله عليه وسلّم وسط أصحابه، فكأنّه الأسد الجسور في عرينه، يقول:[5]

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَســـولَ اللّهِ أَوْعَدَنِـــي ... وَالْعَفْوُ عند رســـولِ اللّهِ مَأْمُـــولُ

مَهْلاً هَدَاكَ الّذي أَعطاكَ نَافِلَةَ الْـــ ... ـــقُـــرآنِ فيها مَوَاعِيـظٌ وتَفْصِيـلُ[6]

لا تَأْخُذَنّـــي بِأَقوالِ الوُشـــــاةِ ولم ... أُذْنِبْ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّـــي الأَقَـاويـــلُ

لقد أَقُومُ مَقامـــــاً لو يَقُـــومُ بِـــهِ ... أَرَى وأَسْمَعُ مـــا لـــو يَسمـــعُ الفِيـــلُ

لَظَلَّ يُرْعَـــــدُ إِلاّ أَنْ يَكـــونَ لَـــهُ ... مِنَ الرّســـولِ بِإِذنِ اللّهِ تَنْوِيـــلُ[7]

حتّى وَضَعْتُ يَمِينِـــي لا أُنَـــازِعُهُ ... في كَفِّ ذِي نَقِمَـــاتٍ قِيلُهُ القِيـــلُ[8]

لَذَاكَ أَهْيَـــبُ عِنْـــدِي إِذْ أُكَلِّمُـــهُ ... وقيـــلَ إِنَّكَ مَسْبُـــورٌ ومَسْـــؤُولُ[9]

---

[1]ـ المصدر السّابق: ص 19.
[2]ـ الوشاة: الذين يشون الكذب ويزيّنونه- بجنبيها: حواليها.
[3]ـ لاألفينّك: أي لا أكون معك في شيء، أو لاأنفعك فاعمل لنفسك
[4]ـ الآلة: الحالة أو التعش- وحدباء: صعبة أو معوّجة.>
[5]ـ المصدر السّابق: ص 19-21.
[6]ـ النّافلة: العطيّة
[7]ـ التنويل: من النّائل وهو العطاء، يقال: نلته وأنلته، والتنويل هاهنا: الأمان والعفو.
[8]ـ نقمات: جمع نقمة- قيله القيل: أي قوله الصّادق- وضعت يميني: أي صافحت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام.
[9]ـ إنّك مسبور ومسؤول: أي إنّه باحث عنك ومسائلك عمّا نقل عنك.

مِنْ ضَيْغَمٍ مِنْ ضِـراءِ الأُسْـــدِ مَخْدَرُهُ بِبَطْـــنِ عَثَّرَ غِيـــلٌ دُونَهُ غِيـــلُ[1]

فكعب لا يرى بأسا من أن يتوكّأ -لهجة وصياغة- على بعض معاني النّابغة الذّبياني إمام شعر الاعتذار[2] ليحقق غرضه، ثم يمضي إلى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينعته بأنّه نور للمهتدين، وسيف قاطع من سيوف الله على المعتدين، يعينه ويؤازرُه في دعوته خيار قريش الذين أسلموا وهاجروا من مكّة لا ضعافا ولا عزّلا، بل فرسانا شجعانا في كامل عدّتهم، قد تعلّموا من كثرة انتصاراتهم شكر الله تعالى والتّواضع له، ومن هزائمهم الصّبر والثّقة بنصره؛ فهُم إذا واجهوا عدوّهم -وإن كثر عدده- وقفوا له في ثبات ووقار، وجالدوه مجالدة يعجز عنها غيرهم من الأقزام الرّعاديد، وإنّهم يقبلون على الشّهادة بصدورهم لا مدبرين ولا خَوّارين من الموت، يقول[3]:

إِنَّ الرَّســـولَ لَسَيْفٌ يُستَضـــاءُ بِـــهِ مُهَنَّـــدٌ مِن سيـــوفِ اللهِ مَسْلُـــولُ[4]

في عُصْبَةٍ مِن قُريـــشٍ قال قائِلُـــهمْ ببطنِ مَكَّـــةَ لَمَّا أَسْلَمُـــوا زُولُـــوا[5]

زالـــوا فما زالَ أَنْكَـــاسٌ ولا كُشُفٌ عند اللّقـــاءِ ولا مِيلٌ مَعَـــازيـــلُ[6]

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمـــالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذا عَرَّدَ السُّـــودُ التَّنَابيـــلُ[7]

لا يَفْرَحـــونَ إِذا نَالَتْ رِمَـــاحُـــهُمُ قومـــًا وليسوا مَجازيعـًا إِذا نِيلُـــوا[8]

لا يَقَـــعُ الطَّعْـــنُ إِلاَّ في نُحُـــورِهِمُ ما إِنْ لَهُمْ عن حِيَاضِ الموتِ تَهْلِيـــلُ[9]

وما إن أنهى كعب بن زهير قصيدته حتى خلع عليه الرسول صلى الله عليه وسلم بردته التي صارت عنوانا لها اشتهرت به[10]، وعارضها الشعراء في العصور اللاحقة. وإذا

---

[1]- الضّيغم مشتقّ من الضّغم وهو العضّ- ضراء الأسد: أعنفها وأقواها- مخدره: عرينه أي مكمنه الذي يستتر فيه- بطن عثّر: موضع قِبَلَ تبالة تكثر فيه الأسود- الغيل: الشّجر الملتفّ- ودونه: بمعنى قريب أي من حوله.

[2] - قال النابغة معتذرا إلى النعمان أبي قابوس ملك الحيرة:

أُنْبِئْتُ أنّ أبا قابُوسَ أوْعَدني ولا قرارَ على زَأرٍ منَ الأسَدِ
مَهْلاً فِداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ
لا تقذِفَنّي برُكْنٍ لا كِفاء له وإن تأثّقكَ الأعداءُ بالرِّفَدِ

(ينظر: ديوانه: ص87).

[3] - المصدر السّابق: ص23-25.

[4] - المهنّد: السّيف المطبوع من حديد، وسيوف الهند أفضل السيوف.

[5] - زولوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة، ويعني بذلك الهجرة.

[6] - أنكاس: جمع نِكس وهو الضعيف الجبان- الكشف: الذين ينهزمون ولا يثبتون- الميل: جمع الأميل، وهو الذي لا يثبت على السّرج- معازيل: جمع مِعزال، وهو الذي لا سلاح معه أو الضعيف.

[7] - الزّهر: البيض- يعصمهم: يمنعهم- التّنابيل: جمع تِنبال، وهو القصير- عرّد: هرب.

[8] - مجازيع: جمع مِجزاع وهو الكثير الجزع

[9] - تهليل: تكذيب، يقال: هلّل الرّجل إذا جبُن في حملته أو إذا هرب.

[10] - العمدة 1: ص24.

جرت العادة أن يمنّ الشّاعر الكبير على ممدوحه بشعره الذي سيخلّده عبر الزّمن، فهذا لا ينطبق على ممدوح كعب، ذلك لأنه أفضل البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين، كما أنّه مَنَّ على الشّاعر بالهداية بعد الضّلال، وبالأمن بعد الخوف، وبالذّكر والخلود في ظلّ الإيمان بدل الخمول والنّسيان في غياهب الكفر.

ثمّ كان من وفود العرب التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع للهجرة، وفد بني تميم الذين دخلوا مسجده، ونادوه من وراء حجراته ليفاخروه حتّى تأذّى من صياحهم[1]، فنزل فيهم قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعقِلوُنَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[2]. فبمثل هذه الآيات الكريمة –وفي أخصّ دقائق الحياة اليومية– ربّى الله تعالى هؤلاء البداة الجفاة، ونقلهم النّقلة الحضاريّة التي مكّنتهم –في ظرف قصير– من أن يصبحوا سادة العالم الجديد الذي تحكمه حضارة الإسلام. وقد أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكمة وسعة الصّدر ما جعله يخرج لجفاة بني تميم، ويتحمّل لغطهم وفخرهم، فيأذن لخطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة ليقول ما يشاء، ثم ينهض خطيبه ثابت بن قيس الخزرجي فيجيبه. حينذاك قام شاعرهم الزّبرّقان بن بدر ليدعو بدعوى الجاهلية، ويفخر بقبيلته متجاهلا الوضع الجديد الذي يستدعي توحيد العرب تحت راية الإسلام، معتصمين بحبل الله جميعا، غير متفرّقين ولا متعادين. فقد رفع الزّبرقان حيّه بني تميم فوق أحياء العرب شرفا وسيادة وكرما؛ فهم يطعمون الناس الشّواء حين يحتبس الغيث ويحلّ القحط، ولذلك أذعنت لهم سادات العرب، وأسرعت إليهم تقدّم فروض الطّاعة، فأحسنوا وفادتها وأكرموها بنحر كرائم أموالهم، وبهذه الفعال كان لهم العزّ والإباء والمنعة في النّاس، ممّا شهدوا به وتناقلت أخباره الرّكبان، يقول[3]:

نَحْنُ الكِـــــرَامُ فلا حَيٌّ يُعَادِلُنَـــــــا مِنَّا المُلُـــوكُ وفِينَا يُقْسَمُ الرُّبُـــــعُ[1]

---

[1] - السيرة النبوية 4: ص177.
[2] - الحجرات: 4-5.
[3] - ديوان حسّان بن ثابت: ص301-302.

وكَمْ قَسَرْنَـــا مِنَ الأَحْيَـــاءِ كُلِّهِـــمِ ... عِندَ النِّهـــابِ وفَضْلُ العِـزِّ يُتَّبَـــعُ[1]

ونَحنُ نُطعِـــمُ عند القَحْطِ مَطْعَمَنَـــا ... من الشِّـــواءِ إذا لم يُؤْنَسِ القَـــزَعُ[2]

ثُمَّ تَرى النَّـــاسَ تَأْتِينَـــا سَرَاتُـــهُمُ ... من كُلِّ أَرضٍ هُوِيًّـــا ثُمَّ نَصْطَنِـــعُ[3]

فَنَنْحَـــرُ الكُومَ عَبْطًـــا في أَرُومَتِنَـــا ... لِلنَّازِليـــنَ إذا مـــا أُنْزِلُـــوا شَبِعُوا[4]

فلا تَرانـــا إلى حَيٍّ نُفَـــاخِـــرُهمْ ... إلاَّ اسْتَقَـــادُوا وكَانـــوا الرَّأْسَ يُقْتَطَعُ[5]

إنَّا أَبَيْنَـــا ولا يَأْبَى لنـــا أَحَـــدٌ ... إنّا كذلك عند الفَخْـــرِ نَرْتَفِـــعُ

فَمَنْ يُقَـــادِرُنَـــا في ذاك يَعْرِفُنَـــا ... فيَرْجِعُ القَـــومُ والأَخْبَـــارُ تُسْتَمَـــعُ

ثم قام حسّان رضي الله عنه فعارضه في كلّ ما قاله، ولكن بترفّع الشاعر المؤمن الذي تشبّعت روحه بمعاني الإسلام فمازجت شعره، ونقّته من شوائب الجاهلية. فقد خاطب حسّان بني تميم بلسان الوحدة، ولم يذكر حيّه من الأوس وبني النّجّار كعادته، بل جمع الأنصار إلى المهاجرين في خندق واحد، وبيّن فضلهم في هداية الناس إلى الإسلام دين الفطرة الذي تعتنقه كل نفس خيّرة، وتتحلّى بأخلاقه، وتنصاع لأوامره ونواهيه. وفي هؤلاء المسلمين طبع دأبوا عليه دوما: أن يضرّوا أعداءهم ويردعوهم، وأن ينفعوا أولياءهم وأتباعهم وينصروهم. وهم يتسلّحون -في الحرب وفي السّلم- بالعزّة والحلم والأناة والعفّة والتّرفّع عن الدّنايا، وبهذه الأخلاق السّامية صاروا أئمّة النّاس، يقول حسّان[6]:

إنَّ الذَّوَائِـــبَ مِن فِهْـــرٍ وإِخْوَتِـــهِمْ ... قد بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّـــــاسِ تُتَّبَـــعُ[7]

يَرْضَـــى بِهـــا كلُّ مَنْ كانتْ سَرِيرَتُـــهُ ... تَقْوَى الإِلهِ وبالأَمرِ الّذي شَرَعُـــوا[8]

قَومٌ إذا حَـــارَبُوا ضَـــرُّوا عَدُوَّهُـــمْ ... أَوْ حاوَلُوا النَّفْعَ في أَشيَـــاعِهِمْ نَفَعُوا[9]

---

[1] - النّهاب: جمع نهب، والنهب الغنيمة.

[2] - القزع: ههنا الغيم، وقوله: إذا لم يؤنس القزع، أب إذا لم يُرَ المطر وذلك آية القحط.

[3] - هويّا: أي سراعا.

[4] - الكوم: جمع أكوم وكوماء، وبعير أكوم: عظيم السّنام طويله، وناقة كوماء ضخمة السّنام- وعبطا: أي ننحرها من غير علة بها ولا كسر- والأرومة: الأصل.

[5] - استقادوا: أعطوا مقادتهم أي سلّموا لنا.

[6] - المصدر السابق: ص304-305.

[7] - الذّوائب: الأعالي، والمراد هنا السّادة- وفهر أصل قريش وهو فهر بن مالك بن النّضر بن كنانة، وقريش كلّها ينتسبون إليه. ولعلّه يريد بإخوة فهر الأنصار، وبالذّوائب من فهر المهاجرين.

[8] - السّريرة: عمل السّرّ من خير أو شرّ، والسّرّ ما أسررت به أو ما أخفيت.

[9] - حاولوا: راموا وطلبوا- والأشياع: جمع شيعة، وهي الأنصار والأتباع.

سَجِيَّةٌ تِلكَ مِنْـــهُمْ غَيْـــرُ مُحْدَثَـــةٍ ... إِنّ الخَلائِقَ فَاعْلَـــمْ شَرُّهَـــا البِدَعُ[1]

لا يَرْقَـــعُ النّـــاسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمْ ... عند الدِّفـــاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا[2]

إِنْ كان في النّـــاسِ سبّاقُـــونَ بَعدَهُمُ ... فكُلُّ سَبْـــقٍ لِأُدنَـــى سَبْقِهِمْ تَبَـــعُ

ولا يَضِنُّـــونَ عن مَوْلًـــى بِفَضْلِهِمِ ... ولا يُصِيبُهُـــمْ في مَطْمَعٍ طَبَـــعُ[3]

لا يَجْهَلُـــونَ وإِنْ حَـــاوَلْتَ جَهْلَهُـــمُ ... فـــي فَضلِ أَحْلامِهِمْ عن ذاك مُتّسَـــعُ[4]

أَعِفّةٌ ذُكِرَتْ في الوَحْـــيِ عِفّتُهُـــمْ ... لا يَطْبَعـــونَ ولا يُرْدِيهُـــمُ الطَّمَعُ[5]

كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نالُـــوا كَرامَتَـــهُ ... ومِنْ عَدوٍّ عَلَيْهِـــمْ جَاهِـــدٍ جَدَعُوا[6]

لقد آمنوا بالله عزّ وجل، وكانوا طوع بَنان نبيّه صلى الله عليه وسلم في الحلّ والتّرحال، في السّلم وفي الحرب، يخرج بهم مجاهدين في الحرّ وفي القرّ حتّى أخضعوا النّصارى واليهود والمشركين، وهم يسالمون من يسالمهم، ويحاربون من يحاربهم، وهم في حربهم باسلون مستميتون في الدّفاع عن حياضهم، لا يأخذ منهم عدوّهم إلا العفو، فإذا هزموا صبروا، فلم يضعفوا ولم يستكينوا ثقة بنصر الله تعالى، وإن انتصروا شكروه وتواضعوا له خوف الغرور والطّغيان؛ ذلك أنّهم أسد الله وجنده يقتحمون عدوّهم بصدورهم مقبلين غير مدبرين، لا يبالون، وقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم. فهؤلاء هم خير أمّة أخرجت للنّاس، إمامهم وجامع كلمتهم وناصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تفرّق الناس جميعا، وضلّواعن الصّراط المستقيم، لذلك استحقوا أن يجتمع لأجلهم حبّ القلب وصنعة اللسان بالمؤازرة والمديح مدى الدّهر، قال حسّان[7]:

أَعْطَـــوْا نَبِيَّ الهُدَى والْبِرِّ طَاعَتَهُـــمْ ... فما وَنَى نَصْرُهُمْ عَنهُ وما نَزَعُـــوا

إِنْ قَـــالَ سِيرُوا جَـــدُّوا السَّيْرَ جُهْدَهُـــمُ ... أَوْ قالَ عُوجُـــوا عَلينا ساعةً رَبَعُـــوا[8]

---

[1] - السّجيّة: الغريزة وما جُبل عليه الانسان- والخلائق: جمع خليقة وهي الطبيعة هنا- والبدع: جمع بدعة، والمراد بها هنا مستحدثات الأخلاق لا ماهو كالغرائز فيها.

[2] - يقول إنهم أعزّة، والكلام تمثيل.

[3] - لا يضنّون: لا يبخلون- الموالي: الحليف- الطّبع: الدّنس والعيب، وكلّ شين في دين أو دنيا فهو طبع.

[4] - الجهل هنا ضدّ العقل والأناة والحلم- وقوله: في فضل أحلامهم متّسع أي أنّ عقولهم أسمى وأرحب من أن تسفّ إلى الجهل.

[5] - أعفّة: جمع عفيف، والعفّة الكفّ عمّا لا يحلّ ويجمل- ولا يطبعون: لا يفعلون ما يدنّسهم- ولا يرديهم الطّمع أي لا يطمعون طمعا يؤدّي بهم إلى الهلاك.

[6] - قوله: نالوا كرامته مقلوب أي نال كرامتهم- وجاهد أي مجتهد في عداوته- وجدعوا من الجدع: أي القطع البائن في الأنف والأذن والشّفة واليد ونحوها، والمراد الإذلال.

[7] - المصدر السابق: ص306-307.

[8] - عاج بالمكان: عطف عليه ومال وألمّ به- ربعوا: أقاموا

مازالَ سَيْرُهُمُ حتّى اسْتَقَادَ لَهُمْ ... أَهلُ الصَّلِيبِ ومَنْ كانتْ لَهُ البِيَعُ[1]

خُذْ مِنْهُمُ ما أَتَى عفْوًا إِذا غَضِبُوا ... ولا يَكُنْ هَمُّكَ الأَمرَ الّذي مَنَعُوا

فإِنَّ في حَرْبِهِمْ فأْتٌ لَكَ عَداوتَهُمْ ... شَرًّا يُخَاضُ عليه الصَّابُ والسَّلَعُ[2]

نَسْمُو إِذا الحربُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَا ... إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا[3]

لا فَخْرَ إِنْ هُمْ أَصابُوا مِنْ عَدُوِّهِمِ ... وإِنْ أُصِيبُوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ[4]

كَأَنَّهُمْ في الوَغَى والْموتُ مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ بِبِيشَةَ في أَرْسَاغِهَا فَدَعُ[5]

إِذا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدِبُّ لَهُمُ ... كما يَدِبُّ إِلى الوَحْشِيَّةِ الذَّرَعُ[6]

أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ ... إِذا تَفَرَّقَتِ الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ[7]

أَهْدَى لَهُمْ مِدَحِي قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ ... فيما يُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ[8]

بهذه القيم الجديدة الإسلامية، أفحم الشاعر المؤمن حسّان بن ثابت شاعر تميم وأسكت غيره من الشّعراء ، لينتصر خيار رسول الله صلى الله عليه وسلم في اتّخاذ الشعر سلاحا فتّاكا يساند الدّعوة الإسلامية، ويردّ عنها كيد خصومها، ويكون رافدا من روافد نجاحها، بشهادة الأقرع بن حابس التميمي –والحقّ ما شهدت به الأعداء– حيث قال: "وأبي، إنّ هذا الرّجل لمُؤَتًى[9] له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا"[10]، ثم أسلموا، وأحسن الرسول صلى الله عليه وسلم جوائزهم.

لكن ليت وفد بني عامر كان كوفد بني تميم، فقد جاء فارسهم وشاعرهم عامر بن الطُّفيل وهو عاقد العزم على الاختلاء بالرسول صلى الله عليه وسلم لاغتياله بمساعدة أربد ابن قيس أخي الشاعر لبيد بن ربيعة لأمّه، ولكنّ الله جلّ وعلا خيّبهما، فلمّا انصرفا، دعا

---

[1] - استقاد لهم: أي أعطوهم مقادتهم، يقول: مازال سيرهم ذاك حتى انقاد لهم النصارى واليهود والكفار.

[2] - الصّاب والسّلع: ضربان من الشّجر ممرّان.

[3] - الزّعانف من الناس: سفلتهم ومن لا خير فيهم.

[4] - الخور: الضّعفاء الذين لا بقاء لهم على الشدّة- والجزع نقيض الصّبر.

[5] - الموت مكتنع: أي دان قريب- وبيشة: موضع تنسب إليه الأسود- الفدع: عوج وميل في المفاصل كلّها.

[6] - لا ندبّ لهم من الدبيب- الذّرع: كلّ ما استترت به من بعير أو غيره حتى تدنو من الوحشية فترميها أو تضربها، يقول: إذا حاربنا قوما لم نخاتلهم كما تختل الوحشية.

[7] - يقع على الواحد والإثنين والجمع والمذكر المؤنث بلفظ واحد، ومعنى شيعتهم هنا ناصرهم.

[8] - صنع: أي صانع حاذق.

[9] - المؤتى له: أي الموفّق له من آتاه الشيء وافقه.

[10] - السيرة النبوية 4: ص181.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، فأمّا عامر بن الطفيل فأُهْلِكَ بالطّاعون في عنقه، وأمّا أَرْبد فأحرقه العليّ القدير بصاعقة[1].

وقد تأثّر الشاعر لبيد بن ربيعة[2] كثيرا لموت أخيه أربد بتلك الصّورة المروّعة، فرثاه بعدّة قصائد باكية متفجّعة، نُختار منها قصيدته التي ترك فيها الجزع، وتحلّى بالصّبر والسّلوان، ممّا مكّنه من إنعام النّظر في الحياة والمصير، فكانت نظرته أكثر واقعية، مستسلمة للقدر، مسلّمة وراضية بقضاء الله سبحانه وتعالى. فمن طبيعة الإنسان أن تنهكه السّنون، فيصاب بالشيخوخة والعجز، ويلحقه الفناء، فيما تبقى النّجوم والجبال والعمارات ثابتة صامدة لصروف الدّهر. لذلك، فلا عجب أن يفاجأ المرء -في يوم من الأيّام- بفقد عزيز أحبّه، وحرص عليه، ونعم بصحبته زمنا طويلا، مَثَّلَهُ في ذلك مَثَل الدّيار تكون مسكونة مأنوسة بأهلها سنين عدّة، ثمّ تصبح -في ذات يوم- قفرا موحشة كأنّها ما قطنت قطّ. وقد يحوز المرء من المجد والمال في الدنيا ما يجعله أشهر من نار على علم، ثم يحول رمادا تذروه الرّياح، فكأنّه لم يَغْنَ فيها؛ لأجل ذلك، كان خير ما يدّخره الإنسان ويكتنزه أعمال صالحات باقيات تنفعه في آخرته، أمّا المال والبنون والأهل فإلى زوال غير معلوم. لكنّ المصائر معلومة، والأرزاق مقسومة بين النّاس على أساس ناموس التّضادّ، فهم صنفان متضادّان: سعيد مستمتع بالحياة، ينمو الخير بين يديه فيُفيض منه على الآخرين، وشقيّ متبرّم من الحياة، قد لازمه الخسران، فرضي من الدنيا بالفُتات، يقول لبيد[3]:

بَلِينَـــا وما تَبْلَى النُّجُـــومُ الطَّوَالِـــعُ ... وتَبْقَى الجِبَـــالُ بَعْدَنَـــا والمَصَانِـــعُ[4]

وقد كُنتُ في أَكْنَـــافِ جَـــارٍ مَضِنَّةٍ ... ففارَقَنِـــي جَـــارٌ بِأَرْبَـــدَ نَافِـــعُ[5]

فَلَا جَزِعٌ إِنْ فَرَّقَ الدَّهْـــرُ بَيْنَنَـــا ... وَكُلُّ فَتًـــى يَومًـــا به الدَّهْرُ فَاجِعُ[6]

---

[1] - المصدر السابق: ص182-184.

[2] - قيل إنّ لبيد بن ربيعة اسلم مع وفد بني كلاب حين أتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المدينة سنة تسع للهجرة، فحيّوه بتحيّة الإسلام، ثم رجعوا إلى بلادهم، (ينظر: الشعر والشعراء: ص171).

[3] - ديوان لبيد بن ربيعة: ص88-89.

[4] - المصانع: المباني تتخذ للماء أو هي القصور.

[5] - أكناف: جوانب- وجار مضنّة: جار يضنّ به لأنه عزيز- ففارقني بأربد: فارقني منه جار نافع- وجار نافع: أي كان نافعا خيرًا في حياته.

[6] - جزع: خوّار عند المصيبة- فاجع به: فاجع له، أي يرميه بالفجائع.

وما النّاسُ إلا كالدّيار وأهْلُها ... بها يَومَ حلُّوها وغدْوًا بلاقِعُ[1]

وما المَرءُ إلاّ كالشّهابِ وضوْئِهِ ... يَحُورُ رَمَاداً بعدَ إذْ هُوَ ساطِعُ[2]

وما البِرُّ إلاّ مُضْمَرَاتٌ مِنَ التُّقَى ... وما المالُ إلاّ مُعْمَرَاتٌ وَدَائِعُ[3]

وما المالُ والأهْلُونَ إلاّ وَديعةٌ ... ولابُدَّ يوماً أنْ تُرَدَّ الْوَدائِعُ

وما النّاسُ إلاّ عاملانِ: فعَامِلٌ ... يُتَبِّرُ ما يَبْني، وآخَرُ رَافِعُ[4]

فمِنْهُمْ سَعيدٌ آخِذٌ لِنَصِيبِهِ ... ومنهمْ شَقِيٌّ بالْمَعيشَةِ قانِعُ

إذن، ما عَمَلُ الشاعر وقد أفلته الموت، فعمّر[5] حتى صار يدبّ دبيبا على عكّازه سَنَدِهِ في شيخوخته وضعفه بعد أخيه الفقيد؟ إنّه ما زال يحتفظ بصفاء ذهنه وإباء نفسه وإن هرم جسمه، مَثَلُه في ذلك مَثَلُ السّيف الحادّ الصقيل في غِمد قديم، فما بقي له إلا أن يفيد الخلف بخبرات السّلف عن حياة يترصّدها الموت، فيتعجّل البعض يؤجّل البعض الآخر، "وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ".[6] لذا، فلا يجوز الفزع ممّا هو مقدّر محتوم، فما نجا أحد من الكروب والخطوب المخبوءة في سبيل المرء عن مزاعم المنجّمين والعرّافين، لأنّها من تدبير القاهر فوق عباده، علاّم الغيوب وحده، بآجال النّاس ومنازل الغيث، يقول لبيد:[7]

أَلَيْسَ وَرائي، إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي، ... لُزُومُ العَصَا تُحْنَى عَليها الأَصابِعُ[8]

أُخَبِّرُ أَخبارَ القُرُونِ الّتي مَضَتْ ... أَدِبُّ كأنّي كُلَّما قُمتُ رَاكِعُ[9]

فأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ غَيَّرَ جِفْنَهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ القَيْنِ والنَّصْلُ قَاطِعُ[10]

فَلاَ تَبْعَدَنْ إنَّ المَنِيَّةَ مَوْعِدٌ ... عليكَ فَدَانٍ لِلطُّلُوعِ وطَالِعُ[11]

أَعَاذِلَ ما يُدْرِيكِ، إلاّ تَظَنِّيًا ... إذا ارْتَحَلَ الفِتيانُ مَنْ هُوَ رَاجِعُ[12]

---

[1] - غدوا: أي غدا- وبلاقع: قفار خالية من أهلها.
[2] - الشّهاب: النّار- يحور: يتحوّل، يصير- ساطع: مشتعل.
[3] - مضمرات: ما أضمرت وأخفيت- ومعمرات: أي ما عمرت.
[4] - يتبّر: من التتبير وهو الخسارة والهلاك- وآخر رافع: أي يفعل الخير ويشيد بنيانه.
[5] - قيل إن لبيدا مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة في أوّل خلافة معاوية بن أبي سفيان. (ينظر: الشعر والشعراء: ص171)
[6] - لقمان: 34 .
[7] - ديوان لبيد: ص89- 90.
[8] - ورائي: قدّامي- تراخت منيّتي: امتدّ بي العمر- لزوم العصا: أي مصاحبة المحجن.
[9] - أدبّ : أمشي الدّبيب وهو مشية الشّيخ الهرم- راكع: بسبب الانحناء من كبر السّنّ.
[10] - أخلق جفنه: غيّر غمدة القدم- القين: الحدّاد- النصل: الحدّ القاطع.
[11] - فلا تبعدن: دعاء للمخاطب- فدان للطلوع وطالع: أي قريب الأجل وبعيد الأجل.
[12] - أعاذل: أعاذلتي- التظني: الظنّ والتخمين.

أَتَجْزَعُ مِمَّا أَحْدَثَ الدَّهْـــرُ بِالفَتَـــى ... وأَيُّ كَرِيـــــمٍ لَمْ تُصِبْهُ القَــوَارِعُ[1]

لَعَمْرُكَ مـــا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالحَصَى ... ولاَ زَاجِـــرَاتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صَانِــعُ[2]

سَلُوهُنَّ إِنْ كَذَّبْتُمُونِـــــي مَتَى الفَتَـــى ... يَذُوقُ المَنَايَـــا أَوْ مَتَى الغَيْثُ وَاقِـــعُ

لكنّ من فقده لبيد ليس أعزّ من سيّدْ البشر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم،الّذي اشتدّ به المرض أشهرا بعد حجّة الوداع سنة عشر للهجرة، حتّى توفّاه الله عزّ وجلّ ، فحزن المسلمون لفقده حزنا شديدا، وأحسّوا بالضّياع دونه، لولا أن ردّهم إلى صوابهم صاحبه أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه بموقفه الحازم، حين ذكّرهم بقوله تعالى: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ"[3]، ثمّ قال قولته الفاصلة: " أيّها النّاس، إنّه من كان يعبد محمّدا فإنّ محمّدا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنّ الله حيّ لا يموت".[4]

وقد نظم حسّان بن ثابت رضي الله عنه قصائد كثيرة يبكي فيها حبيبه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، الذي نعم بصحبته، وناصر دعوته طيلة عشر سنوات، نقف عند إحداها لأنّه وقف فيها طويلا عند طلل قبره في مدينة طيبة العامرة بالإسلام، يذرف دموعه الغزار، ويسترجع ذكرياته الطّيّبة التي حياها إلى جواره. فكأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم مازال حيّا يعظ المسلمين من على منبره، أو يؤمّهم في مسجده، أو يستقبل الوحي في حجراته؛ فما فتئت تلك الأماكن تفيض بنفح النّبوّة على مرّ الزّمن، يقول:[5]

بِطَيْبَةَ رَسْـــمٌ لِلرَّسُـــولِ ومَعْهَـــدٌ ... مُنِيرٌ وقد تَعْفُو الرُّسُـــومُ وتَهْمَـــدُ[6]

ولا تَمْحِـــي الآيَـــاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ ... بِهـــا مِنْبَرُ الهَادِي الَّذي كَـــانَ يَصْعَدُ[7]

وواضحُ آيَـــاتٍ وبَاقِـــي مَعَالِـــمٍ ... ورَبْعٌ لَـــهُ فيـــهِ مُصَلًّـــى ومَسْجِدُ

بِهـــا حُجُـــراتٌ كان يَنْزِلُ وَسْطَهَـــا ... مِنَ اللهِ نُـــورٌ يُسْتَضَـــاءُ ويُوقَـــدُ[8]

---

[1]ـ القوارع: المصائب والدّواهي.

[2]ـ الضّوارب بالحصى: كانت بعض النّساء في الجاهليّة تضرب بالحصى، وتزعم العلم بالغيب- وزاجرات الطّير: كان العرب إذا أراد أحدهم القيام بسفر أو غزو أو عمل هامّ، فكنّ يزجرن له الطّير، فإذا طار على اليمين تفاءلوا وأقدموا على ما يريدون، وإلاّ عدلوا عنه.

[3]ـ آل عمران: 144.

[4]ـ السّيرة النّبويّة 4:ص 271.

[5]ـ ديوان حسّان: ص145- 147.

[6]ـ طيبة: هي مدينة النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم هو سمّاها بذلك-والمعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه- وتهمد: فالهمود البلى في كلّ شيء

[7]ـ الآيات: جمع آية وهي العلامة.

[8]ـ الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

مَعَالِـــمُ لم تُطْمَسْ على العَهـدِ آيُهَـــا أَتَـاهَـــا البِلَـــى فالآيُ مِنْهَـا تَجَدَّدُ[1]

أَطَالَتْ وُقُوفـــًا تَذْرِفُ العَيْـنُ جُهْدَهَـا على طَلَلِ القَبْـــــرِ الّذي فيه أَحْمَـــدُ

فَبُورِكْتَ يـــا قَبرَ الرَّســـولِ وبُورِكتْ بِـــلادٌ ثَوَى فيها الرَّشيـــدُ المُسَدَّدُ[2]

إنّه قبر مبارك في بلاد مباركة، يحوي هادي النّاس إلى الخير والنّجاة، فحين وارى المؤمنون جسده الطّاهر بالتّراب، فإنّما واروا حلما رحبا وعلما سماويّا ورحمة مهداة، ثمّ عادوا إلى بيوتهم دون نبيّهم منكسرين، لا ينفكّون عن بكاء من بكته -يوم موته- السّماوات والأرض، يقول حسّان:[3]

تَهيـــلُ عليه التُّـــرْبَ أَيْـدٍ وأَعْيُـــنٌ عَليهِ وقَدْ غَـــارَتْ بذلكَ أَسْعُـــدُ[4]

لَقَدْ غَيَّبُـــوا حِلْمـــًا وعِلْمـــًا ورَحْمَـــةً عَشِيَّةَ عَلَّـــوْهُ الثَّـــرَى لا يُوَسَّـــدُ[5]

ورَاحُـــوا بِحُزْنٍ ليسَ فِيهِـــمْ نَبِيُّهُـــمْ وَقَدْ وَهَنَتْ مِنْهُـــمْ ظُهُـــورٌ وأَعْضُدُ[6]

يُبَكُّونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَاواتُ يَـــوْمَـــهُ ومَنْ قد بَكَتْهُ الأَرضُ فالنّـــاسُ أَكْمَدُ[7]

وَهَـــلْ عَدَلَتْ يومـــًا رَزِيَّةُ هَـــالِكٍ رَزِيَّةَ يـــومٍ مـــاتَ فيـــهِ مُحَمَّـــدُ

لقد كان فقد رسول الله صلّى الله عيه وسلّم أعظم رزء في إنسان، لأنّ بقاءه كان يعني بقاء الصّلة بين السّماء والأرض مرتبطتين بنور الوحي يعمّ أصقاع الأرض، فينقذ النّاس من الظّلمات إلى النّور، ويهديهم سبل الرّشاد ليسعدوا في الدّنيا وفي الآخرة. فقد كان المصطفى صلّى الله عليه وسلّم للمسلمين مثل الأب العطوف يتجاوز عن أخطائهم في حقه، ويقبل عذرهم، ويؤخّر عقوبتهم، فإن أحسنوا فالله يضاعف لمن يشاء. وكان الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يتجنّب التّعسير، ويميل إلى التّيسير رأفة بالمؤمنين أن يشقّ عليهم الأمر، فينحرفوا عن الهدى إلى الضّلال؛ فكان لهم مثلما صوّره القرآن الكريم:" لَقَدْ جَاءَكُمْ

---

[1]- لم تطمس: لم تغيّر- على العهد آيها: أي أنّ آياتها لا تزال على ما نعهد- فالآي منها تجدّد: أي تتجدّد، ولعلّ المراد بالآي ههنا آيات الذكر الحكيم.

[2]- المسدّد: يقال سدّده الله وفقه للسدّاد وهو الصّواب والقصد من القول والعمل.

[3]- المصدر السّابق: ص 147- 148.

[4]- تهيل عليه التّرب: تدفعه فينهال ويسقط- وأعين عليه: أي تذرف عليه الدّموع- أسعد: جمع سعد أحد سعود التّجوم، ومراده أنّه غاب بغيابه صلّى الله عليه وسلّم اليمن والبركة.

[5]- لا يوسّد: لا يجعل له وساد، والوساد: المتكأ.

[6]- وهنت: ضعفت وفترت من أثر الحزن.

[7]- يبكّون : يبكون عليه- من تبكي السّموات يومه: أي اليوم الذي قضى فيه- فالناس أكمد: أي أحزن من الكمد وهو الحزن.

رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ[1] عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ[3] بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ"[4]. وفيما كان المسلمون ينعمون بحدب الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عليهم ورحمته بهم، إذ أطفأ نورهم سهم الموت الذي لا يخيب، يقول حسّان:[5]

تَقَطَّعَ فيهِ مَنْـــــزِلُ الوَحْـــــيِ عَنْهُـــمُ ... وقَدْ كـــــانَ ذا نُـــورٍ يَغُـــورُ ويُنْجِدُ[6]

يَدُلُّ على الرَّحمـــنِ مَنْ يَقْتَـــــدِي بـــهِ ... ويُنْقِذُ مِنْ هَـــوْلِ الخَزَايَـــــا ويُرْشِدُ[7]

إِمـــــامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِـــمُ الحَقَّ جَـــاهِـــدًا ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُـــــوهُ يَسْعَـــدُوا

عَفُوٌّ عَنِ الزَّلاَتِ يَقْبَـــــــلُ عُذْرَهُـــمْ ... وَإِنْ يُحْسِنُـــــــوا فاللهُ بِالخَيرِ أَجْوَدُ[8]

وَإِنْ نَـــابَ أَمْرٌ لم يَقُومُـــوا بِحَمْـــدِهِ ... فمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيـــــــرُ مَـــا يَتَشَدَّدُ[9]

عَزِيـــــزٌ عليه أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُـــدَى ... حَرِيـــصٌ علـــى أَنْ يَسْتَقِيمُوا ويَهْتَدُوا

عَطُـــوفٌ عَلَيْهِمْ لا يُثَنِّـــي جَنَاحَـــهُ ... إِلى كَنَفٍ يَحْنُـــــو عليهـــمْ ويَمْهِـــدُ[10]

فَبَيْنَـــاهُمُ في ذلك النُّـــــورِ إِذْ غَدَا ... إِلى نُـــورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ المَوْتِ مُقْصِدُ[11]

لقد اختطف الموت من بكته الملائكة، وعادت بلاد الحرم قفارا من أنسها بنزول الوحي عليه، لذلك كان فقده صلّى الله عليه وسلّم لا يساويه فقد في الماضي ولا في مستقبل الأيّام حتّى يرث الله الأرض وما عليها. ولم يكن أنس المؤمنين بنزول الوحي على الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فقط، بل كان أنسهم بحياته بينهم، يتفيّأون بظلال أخلاقه القرآنية: من عفاف نفسه، وأمانته، ووفائه بالعهد،وجوده الذي كان يضاهي به الرّياح المرسلة وبخاصّة في رمضان، يجود بما ملكت يداه، لا يبقي مالا قديما، ولا يوقّر مالا محدثا؛ يصدر في كلّ

---

[1] من أنفسكم: من جنسكم ومن نسبكم عربيّ قرشيّ مثلكم.
[2] عزيز عليه ما عنتم: أي شديد عليه شاقّ لكونه بعضا منكم عنتكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب.
[3] حريص عليكم: حتّى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحقّ الذي جاء به. (ينظر: تفسير الكشّاف 2:" ص 220).
[4] التوبة: 128.
[5] ديوان حسّان: ص148- 150.
[6] يغور ويغير: يبلغ الغور وهو المنخفض من الأرض- وينجد: يبلغ النجد وهو المرتفع من الأرض، والمراد يعمّ جميع الأمكنة.
[7] أي يرشد من يتبعه إلى الحقّ سبحانه وتعالى، وينقذه من عاقبة الكفر والضّلال: الشّقاء في الدّنيا والعذاب في الآخرة.
[8] عفوّ من العفو: وهو التجاوز عن الذّنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطّمس
[9] ناب الأمر: نزل- لم يقوموا بحمده: أي لم يقضوا حقه ولم يقوموا بما يجب عليهم نحوه- وما يتشدّد: أي ما يتصعّب من الشّدّة
[10] عطوف عليهم: مشفق عائد بفضله بارّ بهم- ولا يثني جناحه إلى كنف: أي لا يصرف عطفه عن أحد، أي أنّه عطوف عليهم جميعا- يحنو عليهم ويمهد: أي يوطيء، وأصل المهد التوثير.
[11] مقصد: أي مصيب، من أقصد السّهم أي أصاب فقتل مكانه

ذلك عن أشرف نسب في قريش وأكرم بيت في مكّة، وعن حسن أدب أدّبه به الله تعالى، وعن علم غزير مبذول للنّاس، ورأي سديد منزّه عن الهوى، يقول حسّان:[1]

فَأَصْبَحَ مَحْمُـــودًا إِلى اللهِ رَاجِعـــًا ... يُبَكِّيهِ جَفْنُ المُرْسَـــلاتِ وَيَحْمَـــدُ[2]

وَأَمْسَتْ بِلادُ الحَـرْمِ وحْشًا بِقَاعُهَـــا ... لِغَيْبَةِ مَـا كَـــانَتْ مِنَ الوَحْيِ تَعْهَدُ[3]

ومـــا فَقَدَ المَاضـــونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... وَلا مِثْلُهُ حَتَّى القِيَـــامَـةِ يُفْقَـــدُ

أَعَفَّ وَأَوْفَـــى ذِمَّـــةً بعد ذِمَّـــةٍ ... وَأَقْـــرَبَ مِنْهُ نَائِـــلاً لا يُنَكَّـــدُ[4]

وَأَبْـذَلَ مِنْـهُ لِلطَّرِيـــفِ وتَـالِـدٍ ... إِذَا ضَنَّ مِعْطَـــاءٌ بِمَا كَـــانَ يُتْلِدُ[5]

وَأَكْرَمَ حَيًّـــا في البُيـوتِ إِذا انْتَمَـــى ... وَأَكْرَمَ جَـــدًّا أَبْطَحِيًّـــا يُسَـوَّدُ[6]

وَأَمْنَعَ ذِرْوَاتٍ وَأَثْبَـتَ في العُلَـــى ... دَعَـــائِـمَ عِزٍّ شَاهِقَـــاتٍ تُشَيَّـدُ[7]

وَأَثْبَتَ فَرْعـــًا في الفُروعِ وَمَنْبِتـــًا ... وَعُـــودًا غَـدَاةَ المُزْنِ فَالْعُـودُ أَغْيَدُ[8]

رَبَـــاهُ وَلِيـــدًا فَاسْتَتَمَّ تَمَـامَـــهُ ... على أَكْـرَمِ الخَيْـــراتِ رَبٌّ مُمَجَّدُ[9]

تَنَاهَتْ وَصَـــاةُ المُسلميـــنَ بِكَفِّهِ ... فلا العِلْمُ مَحْبُـوسٌ ولا الرَّأْيُ يُفْنَـدُ[10]

وليسَ هَوائِـــي نَازِعـــًا عَنْ ثَنَائِـــهِ ... لَعَلِّي بِهِ في جَنَّةِ الخُلْـــدِ أَخْلُـــدُ[11]

مَعَ المُصْطَفَـى أَرْجُـــو بِذَاكَ جِوَارَهُ ... وَفِي نَيْلِ ذَاكَ اليَـــوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

فالشّاعر حسّان الذي تشبعّت روحه بالإيمان، بات يعرف أنّ ممدوحه الجديد لا يدانيه ممدوح على وجه الأرض سابقا أو لاحقا، لذلك فلن يكفّ عن الثّناء عليه، وسيبقى وفيّا له في حياته، ولن يطلب –في مقابل ذلك– جائزة فانية، بل سيسعى جاهدا لنيل جائزة الخلود في الجنّة، ليظفر بصحبته صلّى الله عليه وسلّم في الحياة الأخرى.

---

[1] المصدر السّابق: ص 150- 153.
[2] يبكيه: أي يبكي عليه- والمراد بالجفن هنا العين نفسها- والمرسلات: الملائكة.
[3] بلاد الحرم: يعني مكة وما اتصل بها من الحرم.
[4] النّائل: ماتناله أي عطاء- والمنكد: التزر وأن لا يهنأه من يعطاه.
[5] الطّريف والطّارف: المال المحدث المستفاد- والتّالد والتّليد: المال القديم الأصليّ الذي ولد عندك أو ورث عن الآباء- ويتلد: أي يتّخذ من مال.
[6] انتمى: انتسب- وأبطحيّا: نسبة إلى الأبطح بمكّة.
[7] ذروات: جمع ذروة، وذروة كلّ شيء أعلاه- وشاهقات: مرتفعات بعيدات.
[8] المزن: السّحاب- وأغيد: ناعم متثنّ.
[9] استتم: بمعنى أتمّ، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : "أدّبني ربّي فأحسن تأديبي".
[10] تناهت: أي انتهت بكفّه- والوصاة: الوصيّة، والمراد بها هنا ما يتلقّاه المسلمون من الرّسول صلّى الله عليه وسلّم- ولا الرّأي يفند: فالفند الخطأ في الرّأي، وأفنده خطّأ رأيه أو أضعفه.
[11] نازعا عن ثنائه: كفّ وانتهى.

إذن، لقد تمكّن الشّاعر حسّان بن ثابت من تجاوز عبء شيخوخته، وغلبة الطّابع الجاهليّ على شعره، فاستطاع أن يواكب الحوادث المتسارعة، وأن يهضم تغيّرات الحياة الجديدة في وقت قصير، ثمّ يمزج القوالب الشّعريّة الموروثة بالطّابع الإسلاميّ لغةً وقِيَمًا في السّنين الأخيرة من الدّعوة الإسلاميّة أيّام الرّسول صلّىٰ الله عليه وسلّم. وفي الوقت الذي نضجت فيه التّجربة الشّعريّة الجديدة لدى حسّان، بدأ الشّعر الذي قيل في مؤازرة الدّعوة الإسلاميّة أو ضدّها، يفقد دواعيه بإسلام قريش بعد فتح مكّة، ووفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و" أصبحت رواية الشّعر الذي هوجمت به (قريش) من ناحية، والذي هوجم به المسلمون الأوّلون من المهاجرين والأنصار من ناحية أخرى، مفرّقا لكلمة الأمّة وباعثا لحزازات ينبغي لها أن تموت".[1]

وهكذا كان على الشّاعر المؤمن حسّان بن ثابت وغيره من الشّعراء أن يجدوا دوافع أخرى لنظم الشّعر تتواءم دوما وتعاليم الإسلام، في ظلّ الدّولة الإسلاميّة الفتيّة التي ظلّ خلفاؤها الرّاشدون يقتدون بسيرة النّبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو أن يعيشوا على هامشها.

[1] محمّد محمّد حسين: الهجاء والهجّاؤون في الجاهليّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط3، 1970، ص 248.

الخـــــاتمـــة

إنّ دراستنا الدّلاليّة لاستخدام التّضاد في شعر الدعوة الإسلامية أيّام الرّسول صلى الله عليه وسلم وشعر الفترة التي سبقتها، وفق أدوات المنهج التاريخي (الاستقصاء، والمقارنة، والتحليل، والاستنتاج)، مكّنتنا من التّوصّل إلى جملة من النّتائج نجملها في ما يأتي:

1- إنّ استقراء عبد الله بن المعتز للشعر الجاهلي وشعر الدعوة الإسلامية في كتابه "البديع"، في ما يخص استخدام شعراء هاتين الفترتين للتضاد -أو المطابقة كما سمّاه- وحكمه بقلّته بل ندرته المستحسنة عندهم، كان استقراء صحيحا من وجهة نظره هو، لأنّه قارن بين الشّعر القديم والشّعر المحدث في استعمال فنون البديع بعامّة، واستنتج إسراف الشّعراء المحدثين في اللّجوء إليها في أشعارهم، ولأنه -كذلك- انطلق في مقارنته من فكرة البيت المفرد المستقلّ، ولم ينظر إلى سياق النّصّ كلّه وما فيه من قيم متصارعة، أو مشاعر متناقضة، أو مواقف متعارضة، كما لم يفطن إلى إمكانية أن يكون نصّ لشاعر في تضادّ مع نصّ لشاعر آخر في موقف معين.

2- وإنّ جدل البلاغيين والنّقاد العرب القدامى حول ثنائية اللّفظ والمعنى، وانحياز بعضهم إلى اللّفظ، وركون بعضهم إلى المعنى، أو محاولة البعض الآخر التّوفيق بين النّظرتَيْن، جعلهم يغفلون عن إدراك حقيقة جوهرية في العمل الشّعري تتمثّل في إبداع الشاعر الكبير للغته الخاصّة التي تمكّنه من التّعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس متوافقة أو متناقضة، ومن التّرجمة عن موقفه من الحياة ونظرته إلى الكون.

3- وقد أعلى البلاغيون والنّقاد العرب القدامى من شأن التّشبيه القريب المنتزع من البيئة، وجعلوه أبين دليل على الشّاعرية، وضيّقوا الخناق على الاستعارة إن كانت تنافي فضيلة الوضوح التي شرطوها للشّعر الجيّد في تصوّرهم، وما عبأوا بالطّباق لهوان شأنه عندهم، ودلالته على التّناقض المستقبح في الشّعر في رأيهم. وما فطن لمزيّة التّضادّ إلاّ حازم القرطاجنّيّ المتوفّى سنة 684هـ، وعلّل رأيه بإلحاحه على تفاعل النّفس مع الكلام إذا تقارنت فيه المتضادّات تقارُنَ المتماثلات والمتشابهات، وإمكانية دلالة هذه المتضادّات على الانسجام والاتّساق، وبذلك فسح السّبيل أمام الشّعراء في مجال استخدام المطابقة في الشّعر.

وقد رأينا الشّاعر الجاهلي امرأ القيس في معلّقته يعبّر بالتّضادّ عن قوّة الخلق وانسجامه وجماله متمثّلا في فرسه الأصيل، فيما هو مشهود له -عند القدماء- بجودة تشبيهاته وتعدّدها في البيت الواحد.

4- وكانت دراستنا الدّلالية للنّصوص الشّعرية تهدف إلى اكتناه التّضادّ والكشف عن دلالاته داخل السّياق، وعنينا بالسّياق الأبيات السّابقة واللاحقة للبيت الذي يحوي الطّباق، واتّخذنا النّصّ كلّه سياقا يحيا فيه هذا الطّباق؛ لذلك حاولنا في دراستنا للمعلّقات العشر إيجاد لُحمة ما بين الأبيات المختارة في كلّ معلّقة، والابتعاد -ما أمكن- عن إفراد البيت المستقلّ بالدّراسة.

5- وقد أدرك الشّاعر الجاهلي بذكائه الفطري أهمّية التّضادّ كأداة فنّيّة لا كمصطلح، ومناسبته للتّعبير عن تناقضات حياته الجاهلية، وعن صدامه مع قبيلته وقيمها السّائدة، وعن نظرته إلى الحياة والموت كثنائية تشغل تفكيره وتقلق وجوده؛ ولذلك غلب ورود التّضادّ في أبيات الحكمة التي عدّت في ذلك العصر علامة على الفحولة، كما لمسنا ذلك في حِكَم زهير بن أبي سلمى في معلّقته، وعند الأعشى ميمون حين لخّص مشوار حياته في بداية قصيدته في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

6- أمّا في شعر الدّعوة الإسلامية فقد برز التّضادّ على مستوى العقيدة بين التّوحيد والشّرك، وعلى مستوى الموقف بين التّصديق والتّكذيب، وبين الإيمان والكفر، وعلى مستوى الحياة بين حياة في الدّنيا متّصلة بحياة في الآخرة، وبين حياة يترصّدها الموت كحتمية ومصير نهائي. لذلك، انقسم الشّعر العربي على نفسه -في ظلّ تلك التّحوّلات المتسارعة -انقساما قيميا لا فنّيا بين شعر مناصر للدّعوة الإسلامية وشعر معاد لها؛ إذ بقيت القوالب الشّعرية الموروثة هي هي، لم يحاول أحد من شعراء المعسكرين تجاوزها والقفز عليها، لأنّها أعظم ما توصّل إليه الشّاعر العربي آنذاك في مجال الصّياغة الشّعرية. والجديد في شعر الدّعوة الإسلامية تجاوز شعراء الفئتين المتناقضتين استخدام التّضادّ كألفاظ مفردة داخل التّركيب في البيت والبيتين من القصيدة، إلى إيراده كنصّ في تضادّ مع نصّ آخر من حيث القيم المتصارعة، ليسودَ ما يستحقّ البقاء، ويتنحّى ما تقادم، فكان مصيره الزّوال والفناء.

7- ويبدو لنا أنّ التّضادّ حين يكون لازمة من لوازم لغة الشّاعر الكبير، فإنّه يترجم به عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر متناقضة، ويعبّر بواسطته عن عمق تجربته الشّعرية، وعن موقفه من الحياة، ونظرته إلى الكون؛ وهي أمور عزيزة في الشّعر تكفل له طول البقاء والخلود. فمن التّعسّف بعد كلّ ما ذكرناه عَدُّ التّضادّ أو الطّباق مجرّد مُحسّن بديعي معنويّ يُؤتَى به بعد أن يستوفي الكلام شروطه، لتحسينه وإضفاء الرّونق والجمال عليه لا غير.

وسيكون للتّضادّ فرصة أخرى للإبانة عن أهمّيته في الشّعر، في العصر العبّاسي، حين ينتقل العرب المسلمون من البداوة إلى الحضارة، فتتمازج الثّقافات وتتصارع، ويجد الشّعر العربي نفسه في خضمّ معركة القديم والجديد؛ وتلك فكرة تحتاج إلى مزيد من البلورة والتّقصّي من أيّ باحث يبتغي الكشف عن دلالات التّضادّ الثّريّة.

فـهـرس الأعـلام

-أ-

-الآمديّ: 8، 10.
-ابن أبي الإصبع المصُريّ: 11، 14، 18.
-ابن الأثير: 11.
-ابن الأعرابيّ:2.
-ابن الأنباريّ: 22، 23.
-ابن حجّة الحمويّ: 19، 20.
-ابن درستويه: 22.
-ابن دريد: 7.
-ابن رشيق:7، 9، 10، 17، 21، 22.
-ابن السّكّيت: 22.
-ابن سنان الخفّاجيّ: 10، 15.
-ابن قتيبة: 3.
-ابن المعتزّ:3، 4، 5، 7، 8، 9، 14، 113.
-أبو بكر الصّدّيق: 72، 73، 78، 79، 107.
-أبو تمّام: 2، 5، 8، 9.
-أبو حاتم السّجستانيّ: 7، 22، 23..
-أبوذؤيب الهذليّ: 24.
-أبو سفيان بن الحارث:72، 75، 91، 92، 96.
-أبو سفيان بن حرب: 64، 76، 96.
-أبو سلمى ربيعة بن رباح:50، 98.
-أبوالشّغب العبسيّ: 8، 18.
-أبوصخر الهذليّ: 13.
-أبوالطّيّب اللّغويّ : 22.
-أبوالطّيّب المتنبّي: 19.
-أبو عبيدة: 3، 23.
-أبوعديّ: 16.
-أبو عليّ الفارسيّ: 23.
-أبو عمرو بن العلاء: 2.
-أبو نواس: 4، 5.
-أبو هلال العسكريّ: 10، 12، 14، 17.
-أبو يعقوب السّكّاكيّ: 11، 12.
-الأخفش: 3.
-أربد بن قيس: 24، 104، 105.
-أسامة بن منقذ: 10، 14.
-أسماء: 43.
-الأصمعيّ:2، 3، 5، 6، 7، 21، 22، 43.
-الأعشى ميمون: 60، 61، 62، 63، 64، 114.
-الأفوه الأوديّ: 8.
-الأقرع بن حابس التّميميّ: 104.
-امرؤ القيس: 23، 30، 31، 32، 33، 38، 114.
-أمّ أوفى زوجة زهير: 50، 51.
-أميّة بن أبي الصّلت: 80.
-أميّة بن خلف: 79.
-الأنطاكي محمّد: 22.
-الأوس: 72، 78، 79، 80، 84، 85، 86، 87، 88.
-أوس بن حجر: 50.
-أولمان: 21.

-ب-

-بجير بن زهير: 50، 97، 98.
-البحتريّ: 8، 9، 14.
-البسوس: 40.
-بشّار بن برد: 3، 4، 5.
-بشامة بن الغدير: 50.
-بكر بن وائل:39، 43، 45، 46، 62.
-بنو أسد: 24، 33.
-بنو بدر: 50.
-بنو بكر عبد مناة بن كنانة: 96.
-بنوتميم: 101، 102، 104.
-بنو عامر: 104.
-بنو عبد الدّار: 91، 93.
-بنو قريظة: 87.

-بنو مرّة: 50، 51.
-بنو النّجّار:78، 79، 80، 84، 85، 86، 88.
-بنو النضير: 82، 86.
-البوصيريّ: 15.

-ت-

-تغلب بن وائل:39، 41،40، 42، 43، 45، 46.
-التّهاميّ: 13.

-ث-

-ثابت بن قيس الخزرجيّ: 101.
-ثعلب أبو العبّاس: 7، 8.
-ثقيف : 80، 101.

-ج-

-جبريل عليه السّلام: 87، 91، 92.
-الجاحظ: 2، 3، 4، 5، 6.
-جرهم: 51، 52.
-جرير: 18.
-جعفر بن أبي طالب:93، 94، 95، 96.

-ح-

-الحارث بن حلّزة: 43، 45، 46.
-الحارث بن عوف: 50، 51.
-الحارث بن هشام: 77، 82.
-حازم القرطاجنّيّ: 11، 16، 17، 18، 113.
-حجر بن الحارث الكنديّ: 33.
-حسّان بن ثابت: 72، 73، 75، 78، 85، 86، 91، 92، 95، 102، 103، 104، 107، 109، 110، 111.
-الحسن البصريّ: 17.
-الحسن بن وهب: 3.
-حصن بن حذيفة: 51.
-حمزة بن عبد المطّلب: 78، 79، 83، 84، 85، 86.

-خ-

-خالد بن الوليد: 90، 95.
-الخرنق أخت طرفة: 39.
-خزاعة: 96.
-الخزرج: 72، 75.
-الخطيب القزوينيّ: 12، 15.
-الخليل بن أحمد: 5، 6، 7، 21.
-الخنساء أخت زهير: 50.
-خولة: 35.

-د-

دعبل الخزاعيّ: 9.

-ذ-

-ذبيان: 50، 51، 52، 54، 55.
-ذوقار: 62.

-ر-

-الرّاعي: 3.
-ربيعة بن مالك العامريّ: 64.
-رجاء عيد: 15.
-الرّمّاني: 10.

-ز-

-الزّبرقان بن بدر: 101.
-زبيبة أم عنترة: 46.
-الزّمخشريّ: 10، 12.
-زهير بن أبي سلمى: 7، 50، 51، 52، 55، 59، 98، 98، 99، 114.
-زيد بن حارثة: 94، 95، 100.

-س-

-سعد بن أبي وقاص: 78، 79.
-سعد بن معاذ: 87، 88، 89، 90.
-سعاد: 98.
-سلمان الفارسيّ: 87.

-سلمى أخت زهير: 50.
-سنان بن أبي حارثة: 50.
-ش-
-شدّاد أبو عنترة: 46.
-الشّريف الرّضيّ: 19.
-شيبة بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-ص-
-الصّغانيّ الحسن بن محمّد: 20.
-صفيّ الدّين الحلّيّ: 14، 20.
-ض-
ضمضم المرّيّ أبو هرم وحصين: 49.
-ضرار بن الخطّاب: 75، 78، 88.
-ط-
-طرفة بن العبد:34، 35، 37، 38، 39.
-الطّرمّاح بن حكيم: 16.
-ع-
-العاصي بن منبه: 77.
-عامر بن الطّفيل: 104، 105.
-عامر بن لؤيّ: 79، 80.
-عامر بن مالك أبو براء العامريّ: 64.
-عبد الرّحمن البرقوقيّ: 19.
-عبد القاهر الجرجانيّ: 10، 28.
-عبد اللّه بن رواحة: 75، 83، 91، 94، 95.
-عبد اللّه بن الزّبعرى: 75، 77، 84، 85، 96.
-عبس: 46، 47، 49، 51، 52، 56.
-عبلة بنت مالك: 46، 47، 48، 49.
-عبيد بن الأبرص: 33، 34.
-عتبة بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-العتّابيّ: 3.
-عثمان بن عفّان: 78، 79.
-عديّ بن ربيعة (مهلهل): 39، 45.
-عطارد بن حاجب بن زرارة: 101.
-علقمة بن سيف: 41، 42.
-علقمة بن عبدة: 74.
-عليّ بن أبي طالب: 78، 79.
-عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ: 9، 10.
- عمر بن الخطّاب: 50، 78، 79.
-عمرو بن الحارث الغسّانيّ:56، 74.
-عمرو بن العاصّ: 90.
-عمرو بن كلثوم:17، 39، 40، 43، 45، 46.
-عمرو بن هشام أبو جهل: 77، 79، 80.
-عمرو بن هند: 34، 39، 40، 43، 45.
-عمير بن عثمان التّيميّ: 79، 80.
-عنترة بن شدّاد: 46، 47، 49.
-غ-
غطفان:87.
-ف-
-فخر الدّين الرّازيّ: 11.
-الفرزدق: 13، 24.
-فهر (قريش): 102.
-ق-
-قدامة بن جعفر: 7، 8، 9، 10، 14، 16.
-قريش: 51، 52، 63، 64، 70، 72، 75، 77، 78، 81، 82، 83، 84، 85، 87، 90، 91، 93، 96، 100، 111.
-قطرب أبو عليّ: 20، 22.
-ك-
-كبشة زوجة زهير: 50.
-كعب بن الأشرف: 75، 82، 83.
-كعب بن زهير:50، 97، 98، 100، 101.
-كعب بن مالك: 75، 79، 82، 89، 91.

-كعب بن لؤيّ بن غالب:79، 80، 82.
-كلثوم بن مالك: 39.
-كليب وائل بن ربيعة: 39، 45.
-كنانة: 89.

-ل-

-لبيد بن ربيعة: 24، 64، 65، 69، 104، 105، 106، 107.
-ليلى بنت مهلهل بن ربيعة: 39، 45.
-ليونز: 26، 27.

-م-

-محمّد بن عبد الله بن عبد المطّلب(ص): 46، 63، 64، 70، 72، 78، 79، 83، 84، 85، 88، 90، 91، 92، 93، 96، 98، 107، 108، 110، 111.
-مالك أبو عبلة: 47.
-المتجرّدة زوجة النّعمان بن المنذر: 56.
-محمّد بن عبد الملك الزّيّات: 3.
-مرّة بن كلثوم: 45.
-مسلم بن الوليد: 4، 5.
-المضرّب بن كعب بن زهير: 50.
-معبد أخو طرفة : 37، 39.
-المقنع الكندي: 18.
-منبه بن الحجّاج بن عامر: 77.
-المنذر بن النّعمان: 45.
-منشم: 52.
-منير سلطان: 15.
-ميّة: 57.

-ن-

-نابغة بني جعدة: 7.
-النّابغة الذّبيانيّ:55، 56، 58، 59، 74، 100.
-نبيه بن الحجّاج بن عامر: 77.
-نوار: 65، 66.
-النّعمان بن المنذر أبو قابوس: 56، 57، 58، 59.

-هـ-

-آل هاشم: 64، 72، 73، 95، 96.
-هرقل: 94.
-هرم بن سنان: 50، 51.
-هريرة: 60.
-هند بنت عتبة بن ربيعة: 83، 84.

-و-

-وحشيّ: 83.
-وردة أمّ طرفة بن العبد: 34.
-الوليد بن عتبة بن ربيعة:83.

-ي-

-يزيد بن مسهر الشّيبانيّ: 62.

فهرس الأماكن

-أ-

-أحد:83، 84، 85، 86، 88، 91.

-الأندرين: 39، 40.

-ب-

-البحرين: 39.

-بدر: 76، 77، 78، 79، 81، 82، 83، 84، 91.

-البديّ: 67.

-بردى: 74.

-البريص: 74.

-بيشة: 104

-ت-

-تبوك: 97.

-ث-

ثهمد: 35.

-ج-

-جرثم: 51.

-جلّق: 74.

-الجواء: 47، 91.

-ح-

-الحبشة: 93.

-الحديبيّة: 90، 91، 96.

-حنين: 97.

-حومل: 30.

-الحيرة: 34، 39، 55، 56، 100.

-خ-

-الخلصاء: 43.

-خيبر: 93.

-د-

-الدّخول: 30.

-الدّرّاج: 51.

-ذ-

-ذات الأصابع: 91.

-الدّنوب: 33.

-ر-

-الرّجام: 65.

-ش-

-الشّام: 40، 55، 56.

-شبه الجزيرة العربيّة: 60، 69، 76، 87.

-شمّاء: 43.

-ص-

-الصّاقب: 44.

-ط-

-الطّائف: 97.

-طيبة: 107.

-ع-

-عنّر: 7، 100.

-عكاظ: 60.

-عذراء: 91.

-ف-

-الفرات: 59.

-ق-

-القطّبيّات: 33.

-ك-

-كداء: 92.

-م-

-مؤتة: 94، 95.

-المتثلّم: 51.

-المدينة المنوّرة: 72، 73، 75، 82، 86، 87، 91، 93، 95، 97، 98.

-مكّة المكرّمة: 63، 70 ،72، 73، 75، 76، 81، 82، 85، 87، 90، 91، 93، 96، 97، 100، 111.

-ملحة: 44.

-ملحوب: 33.

-منى: 65.

-منفوحة: 60، 64.

-ي-

-يثرب: 73، 79، 82، 85، 95.

-يذبل: 31.

-اليمامة: 60، 64.

-اليمن: 74.

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم

2- الآمدي الحسن بن بشر
الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، تحقيق السّيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط. 1965.

3- ابن الأنباري أبو بكر محمّد بن القاسم
كتاب الأضداد، تحقيق محمّد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت (لبنان)، ط. 1998.

4- ابن حمزة العلويّ يحيى
الطّراز، مكتبة المعارف، الرّياض (المملكة السّعودية)، ط. 1980.

5- ابن رشيق أبو عليّ الحسن
العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت (لبنان)، ط5، 1981.

6- ابن سلاّم محمّد الجمحيّ
طبقات فحول الشّعراء، محمود محمّد شاكر، دار المدنيّ بجدّة (المملكة السّعودية)، (دون تاريخ).

7- ابن سنان الخفاجيّ أبو محمّد عبد اللّه بن محمّد بن سعيد
سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصّعيديّ، مطبعة عليّ صبيح وأولاده (مصر)، ط. 1969.

8- ابن قتيبة أبو محمّد عبد اللّه بن مسلم الدّينوريّ
الشّعر والشّعراء، تحقيق محمّد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت (لبنان)، ط2، 1986.

9- ابن المعتزّ أبو العبّاس عبد اللّه
البديع، تحقيق إغناطيوس كراتشقوفسكي، دار المسيرة، بغداد (العراق)، ط.1979.

10- ابن منظور جمال الدّين محمّد بن مكرم
لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1968.

11- ابن هشام المعافريّ أبو محمّد عبد الملك
السّيرة النّبويّة، تحقيق محمّد عليّ قطب ومحمّد الدّالي بلطه، المكتبة العصريّة، بيروت (لبنان)، ط. 1998.

12- ابن يعيش أبو البقاء موفق الدّين
شرح المفصّل، عالم الكتب، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).

13- أبو زيد القرشيّ محمد بن أبي الخطّاب
جمهرة أشعار العرب، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت (لبنان)، ط. 1980.

14- أحمد إبراهيم موسى
الصّبغ البديعيّ في اللّغة العربيّة، دار الكاتب العربيّ للطّباعة والنّشر بالقاهرة (مصر)، ط. 1969.
15- أحمد مختار عمر
علم الدّلالة، مكتبة دار العروبة للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط1، 1982.
16- الأعشى ميمون
ديوان الأعشى، شرح عمر فاروق الطّبّاع، دار القلم، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).
17- الأعلم الشّنتمريّ يوسف بن سليمان بن عيسى
أشعار الشّعراء السّتّة الجاهلين، تحقيق لجنة إحياء التّراث العربيّ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (لبنان) ، ط2، 1981.
18-امرؤ القيس بن حجر الكنديّ
شرح ديوان امرئ القيس للأعلم الشّنتمريّ، تصحيح الشّيخ ابن أبي شنب، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط. 1974.
19- البحتريّ أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطّائيّ.
ديوان البحتريّ، تحقيق وشرح حسن كامل الصّيرفيّ، دار المعارف بمصر، ط2، 1973.
20- بطرس البستانيّ
أدباء العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، دار نظير عبّود، بيروت (لبنان)، ط. 1989.
21- تمّام حسّان
الأصول، دار الثّقافة، الدّار البيضاء (المغرب)، ط1، 1981.
22- ثعلب أبو العبّاس أحمد
قواعد الشّعر، تحقيق رمضان عبد التّوّاب، دار المعارف، القاهرة (مصر)، ط. 1956.
23- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام محمّد رمضان، مؤسّسة الخانجي بالقاهرة (مصر)، ط3، (دون تاريخ).
24- الجرجانيّ عبد القاهر
دلائل الإعجاز، موفم للنّشر، الجزائر، ط. 1991.
25- الجرجانيّ عليّ بن عبد العزيز
الوساطة بين المتنبيّ وخصومه، تحقيق محمّد أبي لبفضل إبراهيم وعليّ محمّد البجاويّ، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ (مصر)، ط4، 1966.

26- حازم القرطاجنّيّ
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمّد الجيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت (لبنان)، ط2، 1981.
27-حسّان بن ثابت
شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ، عبد الرّحمن البرقوقيّ، دار الأندلس، بيروت (لبنان)، ط. 1980.
28- الخطيب التّبريزيّ أبو زكريّا يحيى بن عليّ
شرح القصائد العشر، ضبط وتصحيح عبد السّلام الحوفي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط2، 1987.
29- الخطيب القزويني جلال الدّين محمّد بن عبد الرّحمن
الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللّبنانيّ، بيروت (لبنان)، ط6، 1985.
30- الرّازي محمّد بن أبي بكر
مختار الصّحاح، ضبط وتعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، ط4، 1990.
31- ربحي كمال
التّضادّ في ضوء اللّغات السّامية، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1975.
32- رجاء عيد
في البلاغة العربيّة، مكتبة الطّليعة، أسيوط (مصر)، (دون تاريخ)
33- الزّمخشريّ جار اللّه أبو القاسم محمود بن عمر
تفسير الكشّاف، تحقيق محمّد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة (مصر)، ط2، 1977.
34- زهير بن أبي سلمى
ديوان زهير بن أبي سلمى، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979.
35- الزّوزنيّ أبو عبد اللّه الحسين بن أحمد
شرح المعلّقات السّبع، تقديم ظافر كوجان، دار اليقظة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1969.
36- السّجستانيّ أبو حاتم سهل بن محمّد
كتاب الأضداد، تحقيق محمّد عبد القادر أحمد، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة (مصر)، ط. 1991.
37-سعد زغلول عبد الحميد
في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1976.

38- السّكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر
مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).
39- ضيف شوقي
البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف بمصر، ط2، (دون تاريخ)
40- طرفة بن العبد
ديوان طرفة بن العبد، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979.
41- عبد الرّحمن البرقوقيّ
شرح ديوان المتنبيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت (لبنان)، ط. 1980
42- عبد العزيز عتيق
علم البديع، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1974.
43- عبيد بن الأبرص
شرح ديوان عبيد بن الأبرص، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979.
44- عمرو بن كلثوم
شرح ديوان عمرو بن كلثوم، عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربيّ، حلب (سوريا)، ط1، 1999.
45- عنترة بن شدّاد
شرح ديوان عنترة بن شدّاد، عبد المنعم عبد الرّؤوف شلبي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط. 1980.
46- الغلاييني مصطفى
رجال المعلّقات العشر، المكتبة العصريّة، بيروت (لبنان)، ط. 1990.
47- الفرزدق همّام بن غالب التّميميّ
شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللّبذاتي ومكتبة المدرسة، بيروت (لبنان)، ط1، 1983.
48- قدامة بن جعفر أبو الفرج
نقد الشّعر، تحقيق محمّد عبد المنعم خفّاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).
49- لبيد بن ربيعة
ديوان لبيد بن ربيعة العامريّ، دار صادر، بيروت (لبنان)، ط. 1966.
50- محمّد الأنطاكيّ
الوجيز في فقه اللغة، مكتبة دار الشّرق، بيروت (لبنان)، ط3، (دون تاريخ).
51- محمّد زكي العشماويّ
النّابغة الذّبيانيّ، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1980.

52- محمّد عزّام
قضيّة الالتزام في الشّعر العربيّ، دار طلاس للدّراسات والتّرجمة والنّشر، دمشق (سوريا)، ط1، 1989.
53- محمّد محمّد حسين
الهجاء والهجّاؤون في الجاهليّة، دار النّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط3، 1970.
54- محمّد عليّ سلطاني
البلاغة العربيّة في فنونها، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق (سوريا)، ط. 1980.
55- المرزبانيّ أبو عبد اللّه محمّد بن عمران
الموشّح في مآخذ العلماء على الشّعراء، تحقيق محمّد عليّ البجاويّ، دار نهضة مصر، ط. 1965.
56- مطلوب أحمد
معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ، بغداد (العراق)، ط. 1983.
57- منير سلطان
البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالإسكندرية (مصر)، ط. 1986.
58- النّابغة الذّبيانيّ معاوية بن ضباب
ديوان النّابغة الذّبيانيّ، تحقيق وشرح محمّد الطّاهر ابن عاشور، الشّركة التّونسيّة للتّوزيع والشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط. 1976.
59- الهمذاني عبد اللّه بن عيسى
الألفاظ الكتابيّة، الدّار العربيّة للكتاب، ط. 1980.
60- عبد الرّحمن الحاج صالح
مدخل إلى علم اللّسان الحديث، مجلّة في علم اللّسان البشريّ، معهد العلوم اللّسانيّة والصّوتية، جامعة الجزائر، المجلّد الثّاني، العدد 1، 1972.

فهرس البحث

المقدّمة

الفصل الأوّل: مصطلح التّضادّ 1

أ- مصطلح التّضادّ ضمن فنون البديع 2

ب- تحديد مصطلح التّضادّ عبر:

1- المستوى المعجميّ 7

2- المستوى النّحويّ 12

3- المستوى البلاغيّ 14

4- المستوى الدّلاليّ 20

الفصل الثّاني: التّضاد في شعر ما قبل الدّعوة الإسلاميّة (المعلّقات العشر) 29

1- معلّقة امرئ القيس بن حجر الكنديّ 30

2- معلّقة عبيد بن الأبرص 33

3- معلّقة طرفة بن العبد 34

4- معلّقة عمرو بن كلثوم 39

5- معلّقة الحارث بن حلّزة 43

6- معلّقة عنترة بن شدّاد 46

7- معلّقة زهير بن أبي سلمى 50

8- معلّقة النّابغة الذّبيانيّ 55

9- معلّقة الأعشى ميمون 60

10- معلّقة لبيد بن ربيعة 64

الفصل الثالث: التّضادّ في شعر الدّعوة الإسلاميّة أيّام الرّسول ﷺ 71

1- شعر غزوة بدر (سنة 2هـ) 76

2- شعر غزوة أحد (سنة 3هـ) 83

3- شعر غزوة الخندق (سنة 5هـ) 86

4- قصيدة حسّان بن ثابت بعد صلح الحديبيّة (سنة 6هـ) 90

5- شعر غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة 8هـ) 94

6- شعر فتح مكّة (رمضان سنة 8هـ) 96

7- شعر سنة الوفود (سنة 9هـ) 97

أ- إسلام كعب بن زهير وقصيدة البردة في مدح الرسول ﷺ 97

ب- مناقضة حسّان شاعر تميم الزبرقان بن بدر 101
ج- رثاء لبيد بن ربيعة لأخيه أربد 104
8- رثاء حسّان بن ثابت لرسول الله ﷺ 107

الخاتمة 112
فهرس الأعلام 116
فهرس الأماكن 120
قائمة المصادر والمراجع 121
فهرس البحث 126